عبدالله قبرصي يتذكّر 4

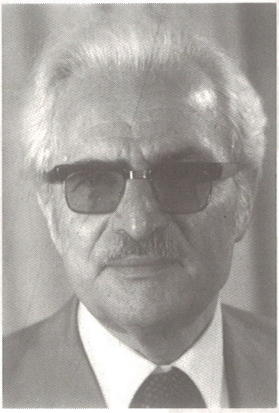

- الثورة القومية الاجتماعية الأولى واستشهاد سعادة
- اغتيال رياض الصلح
- مقتل عدنان المالكي
- طرد جورج عبدالمسيح

الفرات

11443
15000
فد

عبدالله قبرصي يتذكّر

الجزء الرابع

عبدالله قبرصي

يتذكّر

الجزء الرابع

- الثورة القومية الاجتماعية الأولى واستشهاد سعادة.
- اغتيال رياض الصلح.
- مقتل عدنان المالكي.
- طرد جورج عبدالمسيح.

* اسم الكتاب: عبدالله قبرصي ـ يتذكر، الجزء الرابع.
* المؤلف: عبدالله قبرصي.
* الطبعة الأولى: آب 2004 م.
ISBN: 9953-417-39-3
* جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
© لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادّته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك. إلا بموافقة كتابية من المؤلف ومقدماً.
* الناشر:
الفرات للنشر والتوزيع
■ ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
■ هاتف: 961-1-750054 ـ فاكس 961-1-750053
* التوزيع عبر الانترنت:
www.alfurat.com

الإهـــداء

الى معلمي وزعيمي أنطون سعادة
في الذكرى المئوية الأولى لولادته.
عبدالله قبرصي

المقدمـة

أهمية هذه المذكرات، انها ليست كسابقاتها، حزبية بمعنى الحزبية الضيق، وان يكن الحزب هو محورها الرئيسي ومصدر وجودها.

انه لصحيح، مثلاً، ان ثورة انطون سعاده سنة 1949 قومية اجتماعية ولكنها تتناول أسس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في لبنان، مما يؤول بما يشبه الحتم الى تأثيرها في محيطه السوري والعربي. انها ثورة حزب لا من أجل الحزب بل من أجل الوطن ومن ثم انها قد تكون أول ثورة ذات أبعاد تغييرية جذرية في قواعد الحياة العامة، بل الخاصة، على مختلف الصعد والمستويات. انها الثورة التي تقيم الحياة الجديدة على أنقاض الحياة القديمة والتقليدية، التي تسبّبت بانهيار وجودنا القومي ودورنا الحضاري في العالم.

ان أكثر الثورات التي سبقتها، بدءاً من فلسطين الى الشام، الى العراق، الى لبنان نفسه، كانت للتحرر من الاستعمار، من التسلط الاجنبي، من جيوشه وتعسفه واستعباده، أما ثورة سعاده فكانت للقضاء على الرجعية والتخلف والاقطاع والطائفية، وكل معطلات الوحدة والتقدم، انها الثورة التي تستهدف بناء الانسان والوطن، على ركائز حضارية، على قواعد الحرية والنظام والواجب، لكي لا يظلا عرضة للبيع بالمزاد في المحافل الدولية وللاستغلال في السياسات الداخلية حروباً أهلية وأزمات وفضائح.

اننا ننحني اجلالاً أمام ثورات فلسطين ضد الانكليز والصهاينة، هذه

الثورات التي تستمر حالياً في الانتفاضة المباركة ضد الاغتصاب الاسرائيلي، كما ننحني اجلالاً وإكباراً أمام ثورة سلطان باشا الأطرش، الثورة السورية سنة 1925، كما ثورة هنانو وصالح العلي قبلها وبعدها، كما ننحني اجلالاً أمام ثورات العراق للتخلص من الاستعمار وآخرها ثورة رشيد الكيلاني، بالرغم مما وجّه اليها من تهم وشكوك!... دون ان ننسى ثورة المليون شهيد في الجزائر التي هزّت الضمير العالمي.

انها الثورات التي أتاحت لنا التحرر من سلطان المستعمرين، كما ستتيح لنا الثورة الفلسطينية المستمرة عاجلاً أم آجلاً التحرر من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الرهيب الطامع بأرضنا ومائنا وموادنا كلها.

أما الحرب الاهلية اللبنانية التي امتدت ستة عشر عاماً، فإني أزعم انها لم تكن حرباً ولا ثورة بقدر ما كانت مسلسلاً من الفتن الطائفية التي دبرتها وغذتها اسرائيل، لقد اسماها غيري الحرب العبثية، وبعضهم اسماها الحرب القذرة... اننا لا نزال نعاني من عواقبها. لقد آلّف حول هذه الحرب - ولنسمّها حرباً - الاساتذة جوزف أبو خليل وكريم بقردوني وعبدالله أبو حبيب، كتبًا هامة، تصلح أسانيد لتأريخها، متى اكتملت حلقاتها بمؤلفات الطرف الآخر، طرف «الحركة الوطنية» والمقاومة الفلسطينية. أما مذكراتنا هذه فتصدر عن منحى مختلف شكلاً وأساساً. انها تتناول أحداثاً بعيدة نسبياً وإذا لم تكن مصيرية بالمعنى المطلق للكلمة فقد كانت على الاقل مصيرية في الحزب السوري القومي الاجتماعي. أحداثاً تكمن وراءها، بشكل او بآخر، ارادة التغيير الجذري كما قلنا.

لن أتناول ثورة سعاده بكل تفاصيلها، كاحتلال المخفر ومواجهة الجيش اللبناني وتثوير العشائر ودعوة القوميين الاجتماعيين العسكريين في الجيش وقوى الأمن للتحرر والعصيان، والاشتراك بالتالي بالعمليات العسكرية، لأن التفاصيل تظل شأناً ثانوياً ازاء الغايات الكبار في انهاء النظام العتيق، ليحل محله النظام الذي سيحقق الحرية والاخاء القومي والمساواة والديمقراطية والوعي الشامل... وعي حقوق الانسان وبالوقت نفسه وعيه واجباته الوطنية

والقومية ونتيح امامه بالتالي الآفاق الواسعة للنهوض والتقدم.

ولأن ثورة سعاده أعلنت في لبنان، فقد أرادها ان تحرر ارادة الشعب اللبناني من كل الكوابح والكوابيس لكي يضع دستوراً جديداً يحل محل الدستور الذي أشرف عليه الفرنسيون 1926 فجاء على شاكلة دستور جمهوريتهم الثالثة سنة 1875، على ان يتضمن الدستور الجديد حتماً فصل الدين عن الدولة، وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الانتاج، وإزالة الحواجز بين مختلف المذاهب والطوائف، وإقامة أفضل العلاقات مع محيط لبنان الطبيعي، سورياً وعربياً.

هذه أهمية ثورة سعاده سنة 1949 في جوهرها، وغاياتها ومراميها لا تسليم لبنان الى حسني الزعيم كما زعم الزاعمون المغرضون او التابعون للحكم الذي كان مسيطراً على رقاب البلاد والعباد.

لقد سمّى سعاده الثورة، الثورة القومية الاجتماعية الاولى. لأنه كان بثاقب بصره وبصيرته مدركاً ان القوى والوسائل التي جهزها للقيام بها، لم تكن كافية وان مصيرها نتيجة لهذا المعطى كان مجهولاً وانتصارها بالتالي غير مضمون.

هنا مجال الجواب على التساؤل الذي أطلقه الناس، ومنهم بعض رفقائنا القوميين، انه التساؤل المشروع: كيف يقدم سعاده على اعلان ثورة لم يضمن لها النجاح؟ أما كان متسرعاً، أما كان مخطئاً؟

سيجد القارىء جواباً حاسماً على هذا التساؤل، ما من حرب او ثورة أو عمل ما مضمون النجاح، فصدفة تافهة أحياناً تقضي على خطة محكمة. ثم ان الثورات الشعبية، ومنها ثورة سعادة، ليست في وقائعها ونتائجها الآنية فحسب، ان التاريخ، ان الايام المقبلات وحدها، صالحة لتقويمها ومحاكمتها. ثورة سعاده الفاشلة، ما كانت فاشلة، لو أننا تابعنا نتائجها. اننا نؤكّد ان سقوط حكم بشارة الخوري ما كان ليقع بالسهولة التي وقع بها، لولاها. ثم ان المحاولة الانقلابية القومية الاجتماعية في 1961/12/31 الفاشلة هي أيضاً، ما كانت تقع لولا سالفتها، ولذلك اسميناها الثورة القومية الاجتماعية الثانية...

التاريخ سيحكم وسيجيب على التساؤلات التي أشرنا اليها. أما الجواب الجاهز لدينا فإن ثورة سعاده ثم ثورة الحزب على عهد الرئيس فؤاد شهاب

هما وراء كل ثورة آتية او وراء كل انتصار يحققه الحزب في الشعب او في السلطة. ان الشعب لا يستفيق وينقض على الطغاة والأنظمة العتيقة بالخطب وحدها والمقالات والندوات والمهرجانات، ان الشعب سيحركه أيضاً التاريخ. وثورة سعاده كما ثورة 1961 تاريخيتان كان لهما ما بعدهما والآتي أهم من الماضي والحاضر.

أما اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رياض الصلح الذي كان سببه المباشر، اقتناع السوريين القوميين الاجتماعيين أنّ انطون سعاده ما كان ليعدم لولا نفوذه ومكانته في الشام والعالم العربي. ما كان للرئيس بشارة الخوري ولا كل «سلاطينه» ان يجرؤوا على اعدام انطون سعاده ـ ولو باسم القانون وبحكم عسكري لولا رياض الصلح. انه اذن المسؤول الأول... هكذا ـ على الاقل ـ اعتقد القوميون الاجتماعيون.

لقد ذكرت في متن هذه المذكرات، ذكرت صادقاً وجازماً بأن الحزب لم يبحث في مؤسساته الدستورية أمر اغتيال رياض الصلح لا تصريحاً ولا تلميحاً. وإذا كان بعضهم قد ادّعى انه وراء الاغتيال، فقد ادعى باطلاً. الذين قتلوا رياض الصلح قتلوه بمبادرة منهم، بل انهم خالفوا كل قواعدنا النظامية. ولكن المسؤولين وعلى رأسهم جورج عبد المسيح ما كان بإمكانهم ان يتنكّروا لمن دبّروا ونفذوا عملية الاغتيال. رأي الحزب انهم نفذوا حكم الشعب، حكم العدالة. فالقاتل في كل شريعة يقتل. القتل ليس من أجل القتل! أليس كذلك؟ قد لا يكون هذا رأيي بالضبط ولكنه الرأي السائد في العالم أجمع!

المهم ان هذه المذكرات، تتضمن عرضاً مفصلاً لمقتل رياض الصلح. انه التاريخ يجب ان يكتب حقائق لا أساطير أو أباطيل.

ولكن هذه الحقائق لا تكتمل الا بطرح سؤال كبير: هل كان اتفاق الرئيس رياض الصلح وانطون سعاده مستحيلاً؟ فلو شاءت الاقدار ـ ولنحملها وحدها المسؤولية ـ ان يتفق الرجلان، ماذا كان حدث؟

كلاهما مؤمنان بالشأن القومي، وان كان سعاده صاحب رسالة سورية قومية اجتماعية، وان كان رياض الصلح كرّس حياته عاملاً للوحدة العربية،

مؤمناً بالقومية العربية. كلاهما قوميان هل تتم وحدة عربية قبل توحيد الهلال الخصيب؟ ما كان بالإمكان ايجاد جوامع مشتركة؟ ألم نجد هذه الجوامع، نحن واخواننا في الاحزاب الناصرية والبعثية والقومية العربية عموماً، فأصبحنا حلفاء بعد ان كنا خصوماً؟ ماذا كان يمنع لو ان رياض الصلح أراد ان يتلاقى مع سعاده وان يتعاونا، عوضاً عن الاضطهاد الذي كان يحركه ويحرض عليه ضد سعادة والقومية السورية؟ أكان طبيعياً، أن يسلك رياض الصلح سبل التفاهم والود والتعاون مع بيار الجميل والنجادة، وأن يتخلى عن الحزب السوري القومي الاجتماعي ويحقد عليه الى أن استفزه في احداث الجميزة المفتعلة والمدبّرة بينه وبين الكتائب للإيقاع بالحزب وبالنتيجة دفعه الى اعلان الثورة.

نصل بالنتيجة الى نهاية مأساوية، رياض الصلح يعدم انطون سعادة، والقوميون يغتالون رياض الصلح انتقاماً وثأراً، منفذين حكم الشعب! لنكن منصفين حكم أكثرية الشعب ـ بخاصة في لبنان ـ لأن رياضاً كان يتمتع بشعبية واسعة بين أنصاره والكثيرين من المعجبين به عامودياً وأفقياً! آه لو اتفق الرجلان، اذن لتغير وجه التاريخ في العالم العربي بطوله وعرضه!

نصل الآن الى عقدة العقد، الى الحدث الاخطر في تاريخ حزبنا وهو اغتيال العقيد في الجيش السوري عدنان المالكي، خلافاً لكل مبادىء وتعاليم الحزب وممارساته.

الحزب ليس جمعية ارهابية، ليس حزب العنف كيفما اتفق. ان عنفه هو العنف الثوري دون زيادة ولا نقصان. الاغتيالات وأي شكل آخر من أشكال العنف، ليس في طبعه ولا في تقاليده ولا في تعاليمه.

من هنا كانت ثورة الحزب على الذين دبروا اغتيال العقيد عدنان المالكي. خلافاً لكل ما قيل وكتب، لم يقرر الحزب بمؤسساته الدستورية اغتيال عدنان المالكي. بل أكثر من ذلك، لم يعلم الحزب بمؤسساته الدستورية بهذه الجريمة الا بعد وقوعها وأكثر المسؤولين الكبار عرفوا بها من الصحف!

كانت هناك أسباب وأسباب وراء الثورة القومية الاجتماعية الأولى، وكان هنالك حكم الشعب على رياض الصلح، الذي كان وراء اعدام سعادة، ولكن ما

هي مبررات مقتل العقيد عدنان المالكي، المواطن العسكري المؤمن بالقومية العربية والمنفذ لسياسة حزب البعث العربي الاشتراكي في الجيش الشامي!...

لقد أعلنا على أثر الاغتيال عدم علمنا كقيادة حزبية بهذه الجريمة. وها نحن نعلن في هذه المذكرات اننا فوجئنا بها ككل مواطن عادي. فوجئنا بها واستنكرناها، ومع ذلك، فقد كان خصومنا السياسيون في الشام على درجة من الحقد علينا، أدت الى استغلال هذه الجريمة للانقضاض على مطابعنا واحراقها، وللانقضاض على الحزب وزج ضباطه وجنوده وقادته في السجون. ما كان لنا اعتراض على محاكمة وإعدام من ثبتت عليهم تهمة ارتكاب هذه الجريمة او مدبريها، ولكن أن يؤخذ البريء بجريرة المجرم، ان يتخذ حادث القتل ذريعة لضرب الحزب ضربات قاضيات، فهذا في اعتقادنا، اجراماً يتجاوز قتل العقيد المالكي.

ان للتحقيقات التي قمت بها شخصياً، كرئيس للجنة التحقيق وكرئيس للمجلس الأعلى في دعوى مقتل العقيد المالكي، كشفت لي أهداف مدبري الجريمة ان تكن - كما نتصور - الوصول الى الحكم افساحاً للمجال أمام ضباط الحزب للقيام بانقلاب عسكري ناجح! هذا افتراض يكاد يكون الحقيقة الكامنة وراء الجريمة، لأن جورج عبد المسيح كان يعتقد ان تسلمنا الحكم في الشام معناه تسلمه قيادة الحزب مدى الحياة، لأنه هو الذي خطط فهو المنتصر أولاً.

ليس قادة الحزب الذين دبروها بأغبياء، كلهم في مركز المسؤولية العليا ولهم تاريخهم النضالي وتجاربهم. هل يمكن ان يقتل عدنان المالكي مجاناً؟ هل يمكن ان يقتل لأنه طالب بإبعاد جورج عبد المسيح؟ لا يمكن افتراض هذا الامر ولا التوقف عنده طويلاً. لذلك لا يستوقفنا هذا الافتراض مطلقاً!

لم تكن الاغتيالات، في التاريخ، سبباً للوصول الى الحكم ولا طريقاً. الاغتيالات قلما تجدي نفعاً، او تحقق أهدافاً عظمى اللهم الا إذا رافقت تحركات ثورية وعمليات ثورية شاملة إذا قتلت خصماً كعدنان المالكي جعلت منه شهيداً.

حتى الساعة التي نكتب فيها هذه المذكرات لم نعثر، لا من الشهود لا من

الوثائق، على سبب واحد من أسباب اغتياله ولا على هدف واحد من أهداف اغتياله.

قال لي أحد الضباط السوريين وهو المقدم جمال جبرا الذي كان ملحقاً عسكرياً لسوريا في فنزوالا سنة 1967: ان اغتيال عدنان المالكي كان اغتيالاً للحزب السوري القومي الاجتماعي في الشام!....

لم نكتف برواية كل هذه الأحداث، لقد سردنا بكثير من الاقتضاب قصتنا مع الرئيس جمال عبد الناصر. لقد بدأنا حلفاء طبيعيين لثورة مصر الناصرية. فإذا برفقائنا اليوم وخصومنا بالأمس الاشتراكيين والبعثيين يعطلون هذه العلاقة بما أشاعوه عنا وما افتعلوه، فإذا بالرجل يشن هجومه علينا، فنصبح نحن القوميين الاجتماعيين، شمعونيين بنظره وكلاء لأميركا! عبد الناصر استطاع ان يعزلنا بخطاب واحد ألقاه في اللاذقية بتاريخ 12 أيار 1958... كان عبد الناصر ساحراً للجماهير. انها لمأساة ان يعتدي علينا وان نتحول الى خصوم عوضاً عن ان نكمل ما بدأناه تحالفاً وتعاوناً بين ثورتين.

ثم ماذا عن رئيسنا الاسبق القديم المرحوم جورج عبد المسيح؟ القومي الاول، والأمين الاول، والرئيس الأول بعد سعادة، لماذا صدر بحقه قرار طرد من الحزب، فراح يصمم على شقه. ولو انصاع لقرار المجلس الأعلى، لما تجرأ رئيس من بعده على التمرد!.

انها الاقدار أحياناً، لا ارادات الرجال، كتبت لنا مصائرنا. الأقدار لا تزال تسبب لنا الفواجع والمآسي. فمتى تصبح معنا بعد ان طال الزمن على قيامها ضدنا؟

ها أنا أدفع بمذكراتي الى الطبع، اني أضحي، ولكنني أشدد على أني ما ظلمت، ضحيت لان من الصعب على أصدقائي ورفقائي الذين وردت اسماؤهم وراء أفعال وأحداث مؤلمة، أن يسكتوا عني. سيعلنون الحرب عليّ من جديد.

آسف، ولكني مستعد لأني مسلح بالحق، اني أكتب التاريخ بأمانة ليقرأه الناس دروساً وعبراً.

أرجو ان ينسوا جراحهم في سبيل الحقائق التي لا يجوز ان تزور لأنها تتداخل مع كل تلك الأحداث. ان السياسة الدولية لا توفر أحداً. قراءة كتاب لعبة الأمم تكفي القارىء مؤونة البحث عمّا باستطاعة المخابرات الدولية افتعاله أو ارتكابه من جرائم وأحداث جسام. ان مسألة اياري في الشيلي مثل صارخ.

لغيرنا أن يكتب التاريخ العام. نحن نكتب تاريخنا الخاص، فليربطه المؤرخون في سياقه التاريخي الطبيعي، لقد أدينا قسطاً في الدفاع عن الحقيقة بعد اعلانها...

لا نختم الا بالأسى والأسف ان رئيسنا الاسبق جورج عبد المسيح شق الحزب سنة 1957 فسبب الانشقاقات التي تلت انشقاقه. لو خضع لقرارات المجلس الأعلى لأنقذ الحزب وأنقذ نفسه. أنقذ الحزب لأن عبد المسيح الرجل القومي لو خضع للقرار الحزبي لكان أمثولة في الامتثال للمؤسسات الحزبية الدستورية.

بعد ان تكونت عندنا قناعة مطلقة معززة بالأدلة والأسانيد انه مع اسكندر شاوي وراء مقتل المالكي، لم يعد لنا مناص من محاكمته وادانته. لو سكتنا لكنا شركاءه في تدبيرها وتنفيذها! لقد رفضناها منذ سمعنا بها واستنكرناها فلم يكن بإمكاننا ان نساير رئيساً لنا وأميناً من أمنائنا لئلا نصبح شركاءه! تقبل كل شيء في سبيل انقاذ رؤسائك ورفقائك الا ان تصبح مجرماً!

إذا أعدنا رواية هذه الوقائع، رغم مرور الزمن القانوني عليها، فلأن كتابة التاريخ فرضتها علينا. الحق اذن على التاريخ. فالمعذرة من الذين لم نستطع الا ان نروي الحقائق التي نعرفها عنهم، لم تعد مؤذية فالعفو العام قد شملهم. فضلاً عن مرور الزمن، لقد صارت تاريخاً ونحن لا نكتب التاريخ، لا أريد ان أصنع اعداء، أنا غني بالأصدقاء فقير بالاعداء والحمدلله.

كان بإمكاني ان أربط كل الأحداث الواردة في هذه المذكرات بما جرى ويجري في العالم العربي، ولكني لم أفعل تاركاً للقارىء ان يحلّ محلي.

العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع في الجمهورية العربية السورية ونائب رئيس مجلس الوزراء ذكر في مذكراته مرآة حياتي، ان مصر هي التي

قتلت المالكي واستند الى اتصال هاتفي لسفير مصر الشعبية بالمالكي يصر فيها عليه الحضور الى الملعب حيث قتل.

السؤال هو: هل ان مصر تستطيع اعطاء أوامر للقومي يونس عبد الرحيم ليقتله وينتحر؟.

عبدالله قبرصي

1991

مقدمات الثورة

عند عودته من مغتربه القسري، في 2 آذار 1947، ألقى سعاده الخطاب الثوري الذي تسبب بصدور مذكرة بتوقيفه. كانت كلمته الأخيرة في ذلك الخطاب، وكأنها الأمر اليومي يصدره القائد العسكري لجنوده: «كلمتي الاخيرة لكم أيها القوميون عودوا الى ساحة الجهاد...».

ماذا يعني هذا القول؟.

بل ماذا يعني تواريه عن الأنظار واعتصامه بالجبال، وحوله المسلحون والأنصار، ينفخ فيهم روح التمرد على الطغاة والطغيان...

الأمين والرئيس السابق نعمه ثابت، أحد الذين كانوا الى يمين سعاده وهو يؤسس الحزب في مطالع الثلاثينات، قال لي، بعد اجتماع عاجل عقده الزعيم مع شكيب وهّاب الذي يقال انه عضواً في الحزب، بعد الاستقبال الرائع الذي أقيم له في مطار بيروت والغبيري عند عودته الى لبنان...

«يا أمين عبدالله، الزعيم يُفَكِّر يعمل ثورة، قل لجورجيت (زوجتي) ان تحضر فرشة السجن».

لم يكن سعاده يقصد في الحياة لعبا. ألم تكن تعاليمه كلها ثورية، حروفاً وأدباً وكتباً، لقد كان يحياها، بمعنى ان ثوريته كانت ثورية أصيلة، يترجمها بكل تصرفاته، بكل سلوكه بكل سياساته، كما سنبين ذلك تفصيلاً.

1 ـ الاجتماع في دار العقيد قيصر زهران يمين:

كان ذلك في شتاء سنة 1949. لا أستطيع تحديد التاريخ. كانت مسؤوليتي رئيساً للشعبة السياسية اللبنانية. وكان مطلوباً مني ان أمدّه يومياً بالمستجدات على الساحة اللبنانية، الأمر الذي لم أكن أنفذّه بانتظام والذي كان ينتقدني عليه انتقاداً مرّاً. «تاريخك ياعبدالله تاريخ الاهمال...» كان يقول لي وهو يتألم من انصرافي الى المحاماة وعدم الاضطلاع بالمسؤولية الحزبية اضطلاعاً لائقاً ومقبولاً... ورغم هذا التقصير، كانت ثقته بي مطلقة، بدليل ما كتبه الى غسان التويني في 9 ايلول 1946 من اني بين أوائل المطلعين على أفكاره وخططه.

كان العقيد قيصر زهران يمين مفتشاً عاماً للجيش السوري على اثر اعلان استقلال سوريا ولبنان ورحيل الفرنسيين بعد الثورة عليهم في البلدين. وكان من أشد المتحمسين لحرية الوطن ومؤمناً بما كان يسمى بالوحدة السورية. ولأني لا أعرف ظروف انتمائه الى الحزب تفصيلاً طلبت اليه، وأنا وكيله العام في بعض قضاياه العدلية، ان يكتب لي، فلم يفعل مع الاسف. انه على أبواب التسعين من عمره، يقيم بين عائلته في بيت مري، بجوار بيت الامين السابق جورج عبد المسيح.... (توفي سنة 1991)، كما توفي جورج عبد المسيح سنة 1999.

كان العقيد زهران وقد أصبح عضواً سرياً في الحزب، يأتي على مرأى الناس الى دار الزعيم في رأس بيروت، غير هياب ولا وجل... ان شجاعته تبلغ حدود التهور أحياناً. وكان يسكن في ذلك الوقت في منزل يقع وراء كنيسة الروم الاورثوذكس في المصيطبة. دعاني سعاده لمرافقته في زيارة طارئة الى العقيد زهران في ذلك المنزل. كان الوقت ليلاً ماطراً... ما ان استقر بنا المقام في الدار حتى انفردنا في زاوية من الصالة. وما مضت دقائق حتى كان العقيد يطلعنا على خطته في الثورة التي كان قد اتفق وسعادة على القيام بها. كانت الخطة مكتوبة بقلم رصاص وفيها التفاصيل التالية:

1 ـ أين يستحسن ان يكون مقر قيادة الثورة...؟

وكان رأي العقيد ان يكون في الدكوانة من ضواحي بيروت الشمالية.

2 ـ ماذا يقتضينا من أسلحة وأموال؟

لا أذكر التفاصيل ولكنّ العقيد فصّلها في تقريره.

3 ـ من هم الاشخاص المسؤولون في الدولة اللبنانية الذين يجب ان نحتجزهم؟:

ألف: رئيس الجمهورية.

باء: رئيس الحكومة والوزراء.

جيم: قائد الجيش وأركانه.

4 ـ تفاصيل الخطة:

ألف: وجوب تعطيل الطيران الحربي في رياق او السيطرة عليه.

باء: وجوب قطع الطريق على القوات العسكرية التي يمكن ان تتحرك من البقاع او من الجنوب.

طرح الزعيم عدة اسئلة على العقيد وأخذ منه الورقة المكتوبة بقلم رصاص ودسها في جيبه على أمل عقد لقاء آخر لمناقشتها والتوسّع في بحث طرق تنفيذها.

2 ـ الإعداد للثورة:

اعترف بكل بساطة اني لم اشترك في الاعداد للثورة الا في ناحيتها السياسية ولكني كنت بحكم تواجدي في دار الزعيم وصلاتي الوثيقة به وبكل القياديين اطلع على بعض نشاطات هذا الاعداد.

اني اعرف ان الزعيم انشأ ما اسماه «السلك» من عداد الرفقاء المؤهلين جسدياً ونفسياً للتدرب على يد بعض الضباط ليصبحوا بدورهم ضباطاً. اذكر من الذين وقع عليهم الاختيار الامين الراحل اميل رعد والامين جبران جريج والامين السابق ابراهيم يموت والامين ادغار عبود والامين الراحل اسكندر شاوي وأخيه فؤاد وبالطبع على رأس القائمة الامين جورج عبد المسيح الذي كان عميد للدفاع وخلفه الامين اديب قدورة واخيراً الرفيق الراحل وليم سابا.

هذا عدا عن التدريب الذي كان يقوم به الضابط السابق في الجيش الشامي الرفيق منير ملاذي بالاضافة الى التدريب الذي انتدب لوضع خطوطه احد كبار الضباط السابقين جمال باشا العزبي الذي اشترك مع آخرين بوضع

كتيب يشتمل على قواعد التدريب وعلى كيفية بلوغ المراتب والرتب وسوى ذلك من الشؤون العسكرية الصرف.

ان عدم اشتراكي في العمليات الاعدادية يجعل من هذه الذكريات ناقصة حتماً. الا انها تفتح الباب واسعاً امام الذين ذكرت اسماءهم اذا كانوا لا يزالوا احياء. ليدلوا بمعلوماتهم فتصبح مسألة الثورة القومية الاجتماعية الاولى واضحة المراحل واضحة الترتيبات من جميع وجوهها.

ان التدريب العسكري الذي بدأ صيف 1947 و1948 والذي شمل المناطق الحزبية كان يجري في مخيمات نائية عن العمران ويصاحبه تثقيف عقائدي وأخلاقي بقصد عقدنة العسكر فلا يمارسون استعمال السلاح الا بوحي ايمانهم المطلق بالقضية والزعيم.

واني اعتقد ان اطلاع سعاده على النشاط العسكري أما شخصيًا او بواسطة التقارير التي كانت ترفع اليه بانتظام، هو الذي حمله في حزيران 1948 بمناسبة مهرجان أقيم في برج البراجنة على القول: «إذا كانت اسرائيل تخرج ضباطاً فالحزب السوري القومي الاجتماعي يخرّج ضباطاً أيضاً... ويتهدد بالتالي ويتوعد اسرائيل. كما أنه هو نفسه الذي حمله على استمزاج اصدقائه الخلص كالمطران بولس الخوري جرى هذا الاستمزاج بحضوري وبواسطتي، كلفني سعاده ان أرافق المطران الى منزله في رأس بيروت، وكان سيادته قد انتخب حديثاً على أبرشية صور وصيدا ومرجعيون (المقابلة جرت بحضوري في 2 أيار 1949) أي قبل حادثة الجميزة الشهيرة، سأل سعاده المطران: «ما رأيك سيدنا ان نقدم على عملية استلام الحكم؟». فأجابه المطران بما معناه: «اني أجيبك بما أحفظ من الانجيل فقد ورد فيه ان أي ملك يريد ان يهاجم ملكاً آخر يتحقق من قواه، فإذا كانت قواه قادرة على الغلبة أقدم وإلا أحجم». وسكت المطران وسكت سعاده وانتهى البحث واستمرت الزيارة بمواضيع أخرى.

لم يكن لنا في ذلك الحين ضباط من وزن النقيب فؤاد عوض والنقيب شوقي خيدالله (الدكتور في الآداب اليوم) والنقيب بديع غازي مؤمنين بالقضية على رئاسة القوات التي يقودون في صور (فؤاد عوض) مرجعيون (شوقي

خيرالله) ليكون الاعداد محكماً ومتيناً. الا ان الزعيم كان على صلة مباشرة عدا العقيد قيصر زهران يمين الذي ورد ذكره آنفاً بضابط كبير في البقاع هو الضابط ابو طقه الذي لم أتعرف اليه شخصياً بل كنت أسمع باسمه وبقدرته العسكرية ونفوذه الكبير في الجيش خاصة في ثكنة ابلح. لنعترف ببساطة ان قوانا المسلحة في الجيش وقوى الأمن لم تكن كافية.

اختراق الجيش وقوى الأمن

من هنا كان هم سعاده الأول ان يخترق الجيش وقوى الأمن حيثماوجدت في غاية تأمين قدرات فاعله للاستيلاء على بعض المناطق وللتمكن من تنفيذ أي خطة كفيلة بإنجاح الثورة.

كان الامين جبران جريج من أكثر القياديين قرباً من الزعيم مع الأمين السابق الدكتور هشام شرابي والرفيق الدكتور جورج عطية والأمين الياس جرجي قنيزح ومع الرفقاء خالد جنبلاط وادغار عبود وعبدالله محسن وكامل أبو كامل وأديب قدورة وفؤاد أبو عجرم وجورج عبد المسيح واسكندر شاوي. يمكنني التأكيد ان هؤلاء الامناء كانوا أركان حربه في الاعداد للثورة القومية الاجتماعية الاولى.

أما اعتماده الأول في الشأن العسكري فكان بالدرجة الاولى على الأمين جورج عبد المسيح الذي عينه فيما بعد صدرا (نقيباً) في معركة سرحمول (قرب بشامون) وعلى الشهيد عساف كرم الذي استشهد في العمليات العسكرية للثورة في البقاع الغربي (بين مشغرة وشتورة) في أوائل تموز 1949.

في ليلة من الليالي الماطرة، دعيت بعد منتصف الليل من قبل سعاده لأكون من الشهود على ادخال عضو سري هو ملازم أول وكان يشغل وظيفة رئيس المكتب الثاني في الجيش اللبناني. بالفعل كنت من شهود ادخال الملازم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كنت أشاهد عملية الادخال وقلبي يخفق بسرعة وتلتهمني الهواجس والمخاوف... ان ادخال أي ضابط بنظري ليس فيه ما يدعو الى الحذر والخوف، بقدر ادخال رئيس المكتب الثاني، أي رئيس استخبارات الجيش داخلاً وخارجاً...

لم أتمالك نفسي، بعد ان عانقنا الملازم الرفيق الجديد وهنأناه على اهتدائه الى القضية القومية والعمل على نصرتها، ان اختلي بسعادة واسأله بصوت خافت: «أليست مغامرة ضخمة ان ندخل في صفوفنا رئيساً للمكتب الثاني...؟ أجاب الزعيم مبتسماً: «نحن بحاجة اليه أكثر مما هو بحاجة الينا ...» فسكتت وانصرفت غير مطمئن وغير مقتنع!

ثم كان البحث عن السلاح.

ان الثوري الاصيل، مهما كان ملتهباً بثوريته، لا يجازف عبثاً بنفسه وبحزبه. لذلك ما فاتت سعاده. مسألة البحث عن السلاح.

عثر أحد الاركان على مصنع سري للسلاح. انه يصنع بنادق. فأمر سعاده بالتعاقد معه على صنع ما يتيسر. لست أدري اذا كان قد وفق في هذا المسعى أم أخفق. الا ان الذي أعرفه انه لم يكن يترك باباً دون طرقه من أجل هذه الغاية. ولعمري هذا حق وواجب، حق للثائر ان يوجد سلاحاً لثورته وواجب عليه ان يسلح ثواره وإلا بماذا يثور؟

هنا يأتي دوري السياسي. ولعل من الامانة للحقيقة ان أذكر ان المبادرات في الحزب كانت دائماً تأتي من الزعيم. صحيح اني كنت رئيساً للشعبة السياسية اللبنانية، ولكنني لم أبادر يوماً الا في اجراء اتصالات، كانت أكثرها مثمرة مع الشخصيات السياسية البارزة كالرئيس سامي الصلح مثلاً. من هنا كان دوري، في مجمله تنفيذياً لا تخطيطياً. كان الاستشراف والمبادرة ميزات المعلم وحده. لقد كان رئيسنا جميعاً وكان يقبض على كل الحبال شدها او ارخائها او مطها.

في مطالع سنة 1949، استدعاني وطلب الي ان أتوجه الى الاستاذ شفيق الحلبي، الذي كان قاضياً كبيراً، ونقل الى الادارة، فعين محافظاً لمدينة بيروت. كان من أكثر المقربين للرئيس اميل اده. وكانت مهمتي هي التالية: «ان الحزب بحاجة الى مال وسلاح، فهل يمكن ان يحصل عليها من حزبهم...؟ وما هي شروطهم؟».

بل كان سعاده نفسه قد اجتمع الى أحد اثرياء بيروت السيد فيليب تامر، الذي ناصرناه في انتخابات 1947 الشهيرة، ليعرض عليه التعاون، عن طريق مد

الحزب بالسلاح والمال على ان يؤمن له الحزب مركزاً مميزاً في الحكم في حال نجاح الثورة.

لم يتحرك المغفور له فيليب تامر ولم يتحمس للمشروع فكان علي متابعة مساعي مع الاستاذ شفيق الحلبي... لم أوفق لأنه اتصل بي بعد مدة قصيرة، واجتمعنا ثانية في داره وكان جوابه سلبياً. عرض الامر على الرئيس اميل اده، فلم يستجب.

في هذه الاثناء، دعاني سعاده الى مكتبه وقال لي: «انني أشعر بالخطر على حياتي، فقلبي «يقطش» وأنا مهدد بالاغتيال، كما ان الأعمال التي إقوم بها مرهقة، قل لي ياعبدالله ما هو النقص الذي ترونه في القضية التي نناضل من أجل تحقيقها فكراً أو تنظيماً لكي نسدد هذا النقص قبل فوات الأوان».

قلت للزعيم: «لا أرى هنالك نقصاً إلا في التشريع الدستوري فمن يدير الحزب وكيف يدار اذا حصل لك أي سوء إذا غبت عنا بالحبس او منعك مانع طبيعي او قانوني من ممارسة صلاحياتك؟».

قال الزعيم: «ضع لي مشروعاً وأرسله لي في الغد لأنظر فيه». ما كاد يكمل كلامه حتى دخل علينا الدكتور عبدالله سعاده فطلب اليه سعاده ان يفحصه، فقام بالمهمة ولما عاد سألت الدكتور عبدالله اذا كان هنالك أي اعتلال في قلب الزعيم او صحته فأجابني بالنفي.

في اليوم التالي، وضعت المواد 11 - 12 - 13 من الدستور وحرصت على ان يمارس السلطات التنفيذية في الحزب نائب للزعيم وان يكون من حق المجلس الاعلى ممارسة صلاحياته الدستورية. يدعى المجلس الاعلى لانتخاب نائب للزعيم في مهلة خمسة عشر يوماً.

ومرت الايام وأنا أتصور ان الزعيم أخذ بوجهة نظري. وكنا بعد استشهاده قد حوكمنا وحكم على بعضنا بالسجن مع وقف التنفيذ وعلى البعض الآخر بالسجن تنفيذاً، هذا بعد ان أعدم في 16 تموز ستة من رجال الثورة على رأسهم أديب الجدع وبدلت أحكام الاعدام عن ستة وعلى رأسهم يوسف قائد بيه، فالتقيت في مستشفى السجن أنا والأمين انعام رعد والأمين فؤاد أبو

عجرم وأديب قدورة وسوانا. فطرحت على الأمين انعام سؤالاً عما سنفعله بعد غياب المعلم ومن سننتخب نائباً للزعيم. فأجابني: «من أين أتيت بنائب الزعيم ليس في الدستور ذكر لنيابة الزعامة!» فثرت عليه متحدياً: «أنا وضعت النص والزعيم يأخذ بوجهة نظري فإذا لم تعجبه يستدعيني للحوار». قال لي انعام: «هذه المرة لم يستدعيك وقد وضع النص بذاته، فالصلاحيات التنفيذية تنتقل الى رئيس الحزب الذي ينتخبه المجلس الاعلى». فانتفضت وقلت له: «هل تشارط». فقال: «اقبل». قلت له: «من مئة ليرة الى مئة ليرة». فقبل. فما ان خرجنا من السجن حتى رحت اقرأ الدستور فإذا بالأمين انعام رعد يربح الشرط لم يأخذ الزعيم بوجهة نظري فقط لجهة نيابة الزعامة. فيما أدرج باقي النصوص كما وضعتها. والدليل القاطع على صدق ما أقول ان المادة "11" تنص على انتخاب خلف له.

لنعد الى الثورة.

بتاريخ 22 أيار 1949، وبعد ان كان سعاده قد ألقى خطابه التاريخي في أول آذار من السنة نفسها وهو يحمل في الكثير من عباراته اشارات الى تغير الاوضاع القائمة. استدعاني بصورة مستعجلة وطلب الي الاتصال الفوري بسفير فرنسا الكونت دي شايلا الذي كنت أعرفه جيداً لاستدرجه الى ابداء رأيه في وصول حزبنا الى الحكم... اذا كان بإمكاننا التعاون...

في الثالث والعشرين من أيار كنت في السفارة الفرنسية... أقابل السيد انطوان رزق، رئيس مكتب السفير راجياً ان يخابره لاستقبالي على الفور لأنقل اليه أموراً في غاية الاهمية والخطورة تتعلق بصلاحيات السفير في لبنان ونقل رسالة عاجلة الى حكومته. فهز السيد رزق رأسه وأجابني بأن سعادته مسافر بعد دقائق الى فرنسا وانه ليس لديه الوقت لاستقبال أحد... وخيرني السيد رزق بين ان أفضي اليه بالمهمة التي أطلب المقابلة من أجلها، فينقلها اليه شخصياً ويأتيني بالجواب في الغد، او انتظر عودته...

قلت للسيد رزق: «اني مؤتمن على مهمة هي في غاية الدقة والخطورة، فاستميحك عذراً اذا كنت غير مفوض للافضاء بها اليك أنت بالذات رغم الثقة المطلقة التي لي بشخصك!... وبالفعل خرجت لتوي لأبلغ الزعيم ما حدث...

لقد وافق على تصرفي.

اني متأكد ان سعاده كان يتمسك أو يحاول الامساك بحبال متعددة، بل كان يتصل بجهات مختلفة للحصول على المواد الثورية، ولاستمزاج أصحاب الحول والطول داخلاً وخارجاً، لأن أية ثورة تولد جهيضاً اذا لم تعد كامل عدتها. لا تكفي النفوس القوية والسواعد المفتولة والصفوف البديعة للانتصار، يجب ان يكون بمتناولها كل أدوات الانتصار المادية، والسياسية، الى جانب أدواتها النفسية... لقد كانت نفس الزعيم تغلي، وكذلك نفوس القوميين الاجتماعيين، ولكن لم يكن بمقدورهم ان ينقضوا على السلطة بالحجارة والفؤوس، مقابل الطيارات والمدافع والمصفحات والبنادق!. ثم ما نفع ثورة منتصرة اذا لم تعترف بها الدول؟.

3 ـ الاعداد النفسي:

ذكرنا آنفاً، ان خطاب سعاده التاريخي في الغبيري يوم عودته كان خطاباً ثورياً. دعوة القوميين الى العودة الى ساحة الجهاد لم تكن عبثاً ولا اعتباطاً. كانت تخفي وراءها خلفية لم يستخف بها المسؤولون في الحكم اللبناني. فالحشود التي أمّت مطار بيروت من كل حدب وصوب، اقضت مضاجعهم.

كان من أهم تدابير الحكم الا تتجه الى المناطق الحساسة التي تتواجد فيها مراكز سلطانه او التي تتكاثف فيها التجمعات الشعبية كالبسطة وساحة البرج وباب ادريس، او حتى الشوارع الكبرى في أطراف المدينة كفرن الشباك ورأس بيروت. وانفاذاً لهذا الاتجاه تم اقفال مداخل تلك المناطق بحشود من الجيش وقوى الامن مجهزة بكامل اعتدتها الحربية.

كان الحزب بغياب سعادة، ورغم حصوله على رخصة باسم الحزب القومي، قد عرض عضلاته في احتشادات ضخمة سواء في عيناب حيث كان يقود التنظيم العسكري الشهيد عساف كرم سنة 1944 او في بعقلين سنة 1945 او في ضهور شوير سنة 1946. وقد كانت اعداد القوميين كبيرة الى حد تغطية الساحات والشوارع والمداخل والمخارج من كل بلدة على مرأى ومسمع من رجال الحكم وعلى رأسهم وزير الدفاع المغفور له الامير مجيد ارسلان... ان خطاب

سعاده اذن لم يكن ديماغوجيا. لم يكن مزاحاً.

أدرك حكام لبنان، بعد ان تدارسوا ذلك الخطاب التاريخي انه يشكل تحدياً لسلطاتهم، ولم يطل بحثهم، فما ان ارتاح سعاده في دار كنا استأجرناها له في زقاق البلاط، حتى جاء من يبلغه ان مذكرة توقيف صدرت بحقه، فاضطر للتواري عن الانظار واستنفار بعض الابطال لحراسته ومرافقته بهذا الشكل العلني والواضح، كان المقدمة لثورة 1949، بل انه كان الصورة الحية لنهجه الثوري بعد رجوعه من مغتربه القسري ودليلي على ان هذا النهج كان مقرراً، اذ كان ذكره لنعمه تابت وأسد الاشقر عندما اجتمعا به في القاهرة في شباط 1947 للاتفاق معه على خطابه يوم الاستقبال الذي كان.. حزبياً. نعمه تابت وأسد الاشقر طالبا بأن يكون خطابه هادئاً، لا يوحي بأي تحد، فجاء الخطاب على غير ما توقعا بدليل ما قاله لي نعمه عندما كان الزعيم واقفاً على شرفة دار الامين الراحل مأمون اياس يلقي خطابه: «يا عبدالله قل لزوجتك ان تحضر لك فرشة السجن!».

اني أتصور ان الهاب الناس بالنَفَس الثوري لم يكن في خطاب الاستقبال فحسب، ولا في الاعتصام بالجبال والاستعداد لمواجهة السلطة بالسلاح، بقدر ما كان في تصريحات سعاده الى الصحف وبياناته الثورية.

اني أقدم فقط على سبيل المثال ما كتبه سعاده في أحد بياناته... عندما أعلن الحكومة اللبنانية حكومة عاصية:

بيان الثورة

إن الرجال المتسلطين على الشعب اللبناني بطرق الإرهاب والتزوير في الانتخابات والتنكيل بالقوى السياسية الفتية الناهضة بمبادىء الحياة الاجتماعية الجديدة قد داسوا إرادة الشعب الحر. ووقفوا حجر عثرة في سبيل حريته ومحاربين للمبادىء السياسية العامة التي تؤمن خيره وارتقاءه، وعبثوا بسلامة الأفراد والعائلات وعرضوا حياة الأفراد الآمنين للخطر وعائلاتهم للترويع وقصدوا إذلال النفوس بواسطة الإرهاب والتنكيل. فشكلوا نوعاً خطراً من قطع الطريق السياسي أو الحكومي فضلاً عما وزعوه من مفاسد ملأوا بها الدواوين.

لذلك:

فإن الحـزب القومي الاجـتماعي يعلن الحكومة طاغية خـارجة عن إرادة الشعب، معرضة خيره للمحق وسلامته للخطر ويثبت هنا ما أعلنه من قبل في صـدد المجلس النيـابي الذي تشكل بتزوير فـاضح للانتـخـابات التي جـرت سنة 1947 في جـو من مطـاردة السيـاسـيين وإرهاب المعـاكسين، أي أن هـذا المجلس ليس مجلساً شرعياً ولا يمكن أن يمثل حقيقة إرادة الشعب ويعلن الثورة الشعبية العامة لأجل تحقيق المقاصد التالية:

1 ـ إسـقـاط الحكومة وحل المجلس النيـابي واعتـبـار مـقـرراته التـشـريعيـة في السياسة الداخلية الناتجة عن مساومات خصوصية باطلة.

ولم يقتصر سعاده على تثوير القوميين والانصار في الجمهورية اللبنانية في 11تشرين الثاني 1948 توجه الى الجـمـهورية الشـامـية، بسـيـارة عضو في المجلس النيابي الرفيق زكي نظام الدين من الجزيرة العليا يصحبه الامين الياس جرجـي قنيـزح والرفـيق الدكـتور جورج عطيه وزوجـتي وولدي ضيـاء، لا بد لي بهـذه المنـاسـبـة ان أروي مـا حـدث في الطريق لأن لـه دلالاته ومـغـازيه. فـفي الطريق، وبين المعاملتين وجونيه، اصطدم الرفيق نظام الدين بسيارة لبنانية، ولم يتوقف لتقدير الاضرار وتحديد المسؤولية بواسطة خبير. فما ان وصلت سيارته الى مداخل بلدة جبيل، حتى كان هنالك حاجزاً للدرك اللبناني، أوقفها وطلب من الركاب الترجل، دون ان يعرف ان بينهم الزعيم. اقتيد الرفيق نظام الدين الى المخـفـر والزعيم ومن معه راحـوا ينتظرون في مقهى. طال غياب الرفيق نظام الدين، فأرسل الزعيم الامين الياس والرفيق عطيه لتفقده، فطال غيابهما ايضاً... فإذا بالزعيم يغادر المقهى ثائراً، ويدخل المخفر ـ حسب رواية صحبه ـ ويعلن اسـمـه للدرك: «هنا انطون سـعـادة، زعـيم الحـزب السـوري القـومي الاجـتمـاعي... مـا بالكم تحـتـجـزون رفقـائي، وحـادث الصـدام مـا نتج عنه الا أضرار مادية؟..».

هبّ قائد المخفر والدرك يرحبون بالزعيم. دقائق وكان كل شيء قد سوي بعد اعتذارات مكررة من قائد المخفر الذي كان يزجر الرفيق نظام الدين لأنه لم يخبره بوجود سعاده معه!. وقد روت لي هذه الحادثة زوجتي التي رافقت

سعاده حتى بلدة شكا والكورة فقط!....

وبالمناسبة تحضرني حادثة مماثلة جرت بحضوري في العام نفسه في بيروت:

كنا نقيم حفلات اجتماعية كل يوم احد في بيت احد الرفقاء - وأكثرها كان يقام في منزل الامين جبران جريج في شارع مدام كوري - نخصص ريعها لنفقات دار الزعامة. وقد حضرنا حفلة في دار آل عضاضة في الاشرفية، وكنا عائدين بسيارة تاكسي، الزعيم والامينة الاولى في الصدر وأنا الى جانب السائق.

اعترضنا حاجز للشرطة قرب بناية العازارية على مقربة من ساحة البرج. طلب الي الحاجز الترجل لتفتيشي. فما كان من الزعيم الا ان تدخل وقال للشرطيين: «هنا انطون سعادة، لماذا التفتيش؟» فهرع الشرطيان يطلبان الى السائق ان يفتح النور داخل السيارة ليريا وجه انطون سعادة!.

«حضرة الزعيم نريد ان نتبرك بطلعتك البهية!..».

واعتذرا....

أذكر هذه الحوادث البسيطة، في سياق الكتابة عن الثورة القومية الاجتماعية الاولى، لأنها تعبر عن واقع هو بذاته تعبيري: الاحترام والاعجاب، حتى عند قوى الامن التي كانت تكلف بمطاردة سعادة، بشخصه وهيبته وشجاعته وعلمه! كان قد فرض نفسه في لبنان بصورة خاصة زعيماً بحق وحقيقة وقائد نهضة للإصلاح والانقاذ.

لماذا أذكر الرحلة الى اللاذقية والجمهورية الشامية؟ لأعرج على خطاب سعاده في اللاذقية نفسها. ان ما ورد في فقراته، يدل على النبض الثوري في كل مواقفه قبل اعلانه ثورته.

تشرين الثاني 1947

قلت اني في هذه الذكريات لا أتقيد بالتسلسل التاريخي. عذري اني أتكل على ذاكرتي. بإمكاني بالطبع ان أمزق هذه الصفحات وأعيد صياغتها بترتيب حسابي دقيق. ولكنني لا أفعل عن قصد. ان هذه الفوضى دليل اني أكتب

بعفوية وأكتب ذكريات تصلح أساساً للتاريخ اذا لم تكن تاريخاً.

أعـود الى تشـرين الثـاني 1947، كـان سـعـاده قـد خـرج لتـوه من مـأزق الملاحقات القضائية وما يمكن ان يسفر عنها من مصادمات ومضاعفات. كنت الى جانبه (كما ورد ذلك في باب مذكرة التوقيف في «عبدالله قبرصي يتذكر»). لا أكرر هنا ما كتبته سابقاً، ولكنني أعود اليه عن قصد، لاشتماله على قرار ثوري، يدخل تحت الباب الذي أخوض فيه: «الاعداد النفسي للثورة».

كنت أمثل الحزب لدى الحكومة اللبنانية بقرار من سعاده نفسه. وكنا في النظام الذي قدمناه للحصول على الرخصة قد ذكرنا ان رئيس المجلس الاعلى هو الذي يمثل الحزب لدى السلطات اللبنانية. وكان سعاده قد عينني رئيساً لهذه الغاية بالذات رغم ان المجلس كان محلولاً. وكنا قد طلبنا ترخيصاً للاحتجاج على وعد بلفور في تشرين الثاني سنة 1947 باستعراض للقوميين في جادة الفرنسيين، على ان يخطب سعاده في الحشود من شرفة فندق النورماندي. فإذا بي أتبلغ قراراً من مدير الامن العام أدوار أبو جودة يمنع ذلك الاستعراض...

أبلغت القرار الى المعلم، فاستشاط غيظاً وطلب من الرفيق الراحل صلاح الاسير للاتصال مباشرة بالامير رئيف أبي اللمع، أحد أبر اصدقائه وأكثرهم غيرة ووفاء للضغط على الرئيس رياض الصلح ليلغي قرار المنع.

باءت مساعي الدكتور أبي اللمع بالفشل. وكنا مع سعاده في صالة في خان انطون بك حيث كانت جريدتنا النهضة، عندما أبلغنا الدكتور أبي اللمع اصرار الحكومة على الرفض بواسطة الرفيق الراحل صلاح الاسير الذي كان أديباً وشاعراً.

ما أكرر تدوينه عن ذلك الاجتماع هو التالي: بعد ان تأكد لدينا قرار الرفض الصادر عن الحكومة، سألنا سعاده ما العمل.... فتكلم بغضب ثم فجأة أمر الامين جبران جريج الذي كان الى جانب مكتبه بأن يطلب المناطق القومية من الشمال الى الجنوب وان يبلغ هذه المناطق هاتفياً قراره بوجوب الزحف الى بيروت، واقتحام الحواجز اذا وجدت.

عندئذ طلبت الكلام وقلت: «انني أعتبر هذا القرار اعلان ثورة على

السلطة، فهل لي ان اسأل الزعيم ماذا أعد لهذه الثورة، أين السلاح، أين المال، أين سيارات الاسعاف للجرحى، ما هي غاية هذه الثورة؟... ما هي نسبة نجاحها؟.

قد لا تكون هذه الكلمات وعمرها أكثر من نصف قرن هي نفسها بالحرف ولكن الروح والمعنى والقصد هو المطلوب.....

وضع سعاده رأسه بين يديه لحظات، ثم قال للأمين جريج الغ الطلبات (لأننا كنا نطلب الهواتف من السنترال لعدم وجود التلفون الالي).... ثم ناداني مع الرفيق فؤاد نجار الذي كان من نواميسه لا صحبه بعد ان فض الاجتماع وتفرق المجتمعون!... وكان ان استبدل العرض بتجمّع في حرج بيروت ألقى خلاله خطابه التاريخي في 2 تشرين الثاني سنة 1947 والذي اختتمه بيحيا لبنان، تحيا فلسطين، يحي العراق، وتحيا سوريا.

قلت اني أعيد رواية هذه الواقعة لأثبت مرة أخرى اتجاهات سعاده الثورية، وكيف كان يغذي القوميين بروح العطاء، روح المقاومة والاقتحام... لقد كان هجومياً في كل مواقفه غير وجل ولا هياب.

أول آذار 1949
أو خطاب الوداع الاخير

كانت عـائلتي في ضيـافـة الامينة الاولى في أواخـر شبـاط 1949 وكنت لا أزال أعمل في مكتبي في شارع المعرض حتى التاسعة ليـلاً، وإذ بجرس الهاتف وعلى الخط الزعيم.

قال لي تقريباً بالحرف: «ان الاحتفال بأول آذار يوم الاحد المقبل في فندق النورمـاندي وقد دعونا بعض رجال الحكم والصحافة، وقد تقرر ان يقدمني للمدعوين، عميد الاذاعة (لا أذكر من كان العميد يومذاك) هل هذا معقول والامين عبدالله موجود؟» قلت: «حضرة الزعيم هذا قرار مجلس العمد». فأجاب: «اما قراري فهو ان تقدمني أنت. أنا بانتظارك. زوجتك وأولادك عندنا. نحن بانتظارك».

فرحت ان تكون ثقة الزعيم بي، رغم اهمالي أحياناً القيام بالمسؤوليات المطلوبة مني لم تتزعزع بفعل هذا الاهمال. ورحت استعجل التاكسي للوصول... كانت اليسار، ابنة الزعيم الوسطى، ثائرة ذلك المساء. لم تترك مجالاً لأبيها ليتحدث الي. لا أريد لا أريد كانت تردد. فحملها برفق وتؤدة، وراح يلاطفها ويسايرها ويعالجها في غرفة النوم حتى عادت الى هدوئها. وأبلغني من بعد قراره وأخذ على عاتقه ابلاغ رئيس مجلس العمد هذا القرار.

غريب أمر الحكومة اللبنانية كم اضطهدت الحزب والزعيم. ان اللبنانيين يحصدون ثمن اخطائهم ومظالمهم. كانت الحكومة قد قررت تعطيل جريدة النهضة فاستبدلناها بالجيل الجديد... وها هي تقرر منع الاحتفال بأول آذار في فندق النورماندي. قال لي مفتشو الأمن العام وهم يبلغونني القرار: «تحتفلون في المنزل لا في الفندق، محظر عليكم الخروج الى الشارع متظاهرين!».

وكان على ما يبدو، مقرراً اقامة احتفال أول آذار للقوميين الاجتماعيين وعائلاتهم في دار الرفيق (هاني بلطجي) وموقعه في منطقة رأس بيروت قرب مخفر حبيش. فاحتشد جمع غفير ملأ الحديقة المحيطة بالمنزل والمنزل بصالاته الواسعة. وفيما كان الزعيم يلقي خطبة العيد وهو واقف على كرسي يحيط به الامين جبران جريج وبعض الفرسان من القوميين الاجتماعيين، حدث هرج ومرج في الخارج. وجاء من يخبره ان آمر المخفر وفرقته يطلبون الدخول الى الاحتفال وإذا لم يستجاب، لطلبهم فسيمنعون الاحتفال بالقوة... فطلب الزعيم ان يفسحوا لهم في المجال للدخول وان يكرموهم وان تنتظم صفوف القوميين. فدخل قائد المخفر وثلاثة من رجاله فيما بقي الآخرون في الخارج. وأكمل الزعيم خطابه هادىء الاعصاب كعادته. ان هذا الخطاب يقع أيضاً تحت باب الاعداد النفسي للثورة.

ما أذكره عن تلك اللحظة اني كنت مع الامينة الاولى في الصالة الشرقية فما ان رأت الشرطة يدخلون حتى هجمت، فحاولت ايقافها فقالت لي: «أريد ان أقاتل مع الزعيم!».

أما الاحتفال الكبير الذي كان دعي اليه عدد من رجال السياسة والمحاماة والطب، وجميع رجال الصحافة الاصدقاء، والذي منعت الحكومة اقامته في فندق النورماندي، فقد تقرر اقامته في الاشرفية في منزل الرفيقين اسكندر وفؤاد شاوي كما تقرر ان أقدم سعاده للحضور وان يتكلم ناموس الزعيم آنذاك الامين السابق الدكتور هشام شرابي الذي كان من نواميسه (امناء سره).

تركنا في محيط فندق النورماندي بعض الرفقاء ليصطحبوا من لم نستطع ابلاغه من المدعوين الى مكان الاحتفال الجديد. أذكر ان الرئيس سامي الصلح حضر في الموعد المضروب الى الفندق، فاصطحبه الرفقاء الى الاشرفية. كما أذكر من الحضور النقيب جان تيان، الذي كان آنذاك نقيباً للمحامين...

أما أنا فقد كان خطابي شعرياً الى حد كبير، فقد بدأته بتصور انتصار النهضة، والاحتفال بالعيد في حشد ضخم من القوميين والمواطنين والزعيم على صهوة جواده، بين خيالة الجيش يحملون الزوبعة ويدخلون مع الزعيم الى ساحة الاحتفال.

وكان في تلك الليلة خطاب الوداع. خطاب أول آذار 1949 الذي لم نذكر ان سعاده ألقى خطاباً بعده. أعيد نشر هذا الخطاب بنصه الحرفي، لأنه بكل ما ورد فيه ثورة قائمة بذاتها...».

ان مـرجل النهـضـة يغلي، قـال سـعـاده في بيت الـرفـيق هـاني بلطجي... وبالفعل كان مرجل النهضة يغلي، لأن كيل الصبر لدى سعاده والقوميين كان قد طفح... كما كانت قد طفحت في عهد الرئيس بشارة الخوري ورياض الصلح تراكمات الفساد والمظالم، ضد الحزب والشعب اللبناني بأسره (المثل الصارخ على كل ذلك انتخابات 25 أيار 1947).

من كل هذا العرض، تثبت بما لا يقبل الجدل، نية القيام بثورة ضد الحكام المتمادين في اضطهادهم للحزب وللشعب.

ولكن لماذا كل هذه الخطب والقرائن والدلالات على ان الثورة كانت قيد الاعداد. أليس الحزب بحد ذاته رفضاً للأوضاع السائدة في لبنان والهلال الخصيب والعالم العربي. أليس في عقيدته ونظامه دليل قاطع على ان الغاية هي بالنتيجة تغيير الانظمة القائمة، بكل هيكليتها وكل بناها الادارية والثقافية والعسكرية، وكل اجهزتها وكل ممارساتها وركائزها المهزوزة، لإقامة النظام الجديد مكان نظامها العتيق المهترىء! النظام الطائفي الاقطاعي الفوضوي، العائلي العشائري المهين للإنسان وللمجتمع معاً.

وهل تكون اقامة النظام الجديد النظام القومي الاجتماعي بالخطب والتصريحات والكلام السياسي، أم تكون بالحديد والنار عندما تدق ساعة الحقيقة؟ عندما تصبح للحزب قوته القادرة وكوادره الحاضرة والتأييد الشعبي لمبادئه ومواقفه!.

ثم أليس في خطاب سعاده في بشامون سنة 1948 من على شرفة منزل الرفيق عادل مسعود دلالات وايحاءات صارخة ان الرجل كان مستشهداً وكانت يده على الزناد عندما صرخ: «الحياة كلها وقفة عز فقط، وحياتي تساوي عندي (تكه)».

ثم ما الذي كان في عالمنا العربي بل في العالم يبشرنا بأن سايكس بيكو

التي قررت مصير بلادنا في الحرب الكبرى الاولى قد توقفت عند حدود جلاء الجيوش الفرنسية عن بلادنا؟

ألم تكن كارثة استيلاء عصابات الهاغانا والارغون على القسم الاكبر من فلسطين قد هزت العالم العربي بطوله وعرضه وكانت الشعوب العربية تغلي طالبة الخلاص من الحكام الذين تسببوا بتلك الكارثة.

لقد كان سعاده ينذر ويحذر قبل تأسيس الحزب بزمان، وفي كل مراحل المسألة الفلسطينية، من ضياع فلسطين.

واعلان دولة اسرائيل في 15 أيار 1948 ألم يكن كافياً لأن يحرك كل القوى الثورية للتخلص من الانظمة القائمة لتحل محلها أنظمة تقدمية، أنظمة تعي مسؤولياتها الخطيرة في انقاذ الوطن من الكوارث والمحن التي حلت به والتي تنتظره.

وانقلاب حسني الزعيم الناجح وطلائع برامجه في فصل الدين عن الدولة ودعوة القوى الشابة لتحمل مسؤولياتها، أما كان يجب ان يستغله سعاده للقيام بثورة في لبنان، تجعل منه منارة النهوض والتقدم في محيطه الطبيعي كله؟.

التاسع من حزيران 1949
وما بعده

طلب الي سعاده مقابلة صديقي القاضي السابق ناظم رعد، الذي كان قد عين مديراً للشرطة اللبنانية، وذلك يوم 9 حزيران 1949 لكي الفته الى محاذير اجتماع حزبي دعت اليه الكتائب اللبنانية في مقهى الجميزة. فتوجهت الى المدير بعد أخذ موعد مسبق، وتقابلنا، فعرضت عليه الخطر من صدام بين الكتائبيين والقوميين الاجتماعيين بمناسبة الحشد الكتائبي الذي سيعقد نهار غد في مقهى الجميزة. هذه الخطورة ناتجة عن مصالحة أجراها رياض الصلح بين حزبي الكتائب والنجادة، استعداداً للتحرش بالحزب، الذي يقع مركز جريدته «الجيل الجديد» في مطابع الرفيق ميشال فضول في مواجهة مكان الحشد الكتائبي. وعدني المدير بأن يتخذ الاحتياطات اللازمة حين وقوع أي صدام شريطة الا يصدر عن القوميين أية بادرة استفزاز... ونقلت الى سعاده ما دار بيننا.....

الغريب اني اطمأنيت الى وعد الاستاذ ناظم رعد لأني كنت أثق به صديقاً وقاضياً نزيهاً، خصوصاً وهو كان عضواً في المحكمة المختلطة التي حاكمتنا في كانون الثاني سنة 1936 وكان حكمها بالفعل حكماً عادلاً ومعقولاً. ولذلك انصرفت الى أعمالي يوم التاسع من حزيران كالمعتاد... ولم أعرف ما جرى في ذلك النهار المشؤوم الا عندما طرق بابي الامين السابق فوزي المعلوف في العاشرة ليلاً ناقلاً الي أمر الزعيم بالتوجه الى داره فوراً. قلقت لهذا الطلب المفاجىء في تلك الساعة المتأخرة فهرولت برفقة الامين فوزي، رئيس جمعية خريجي الجامعة الاميركية في بيروت سابقاً وابن العائلة الكريمة التي تأسس الحزب في رعايتها مع عائلة جرجس سمعان الحداد.

وصلنا الى دار الزعيم فإذا بها تعج بالقوميين وبالسلاح المتوفر. وسعاده في مكتبه، متجهم الوجه، مقطب الجبين، في أعلى مراتب غضبه، لقد كانت الثورة تصطخب في عينيه قبل فمه. دخلت وجلست مع القادة الذين كانوا قد وصلوا قبلي. عرفت بالفاجعة تفصيلاً.

كان الزعيم في مكاتب الجيل الجديد، وشاهد بأم عينيه حشد الكتائبيين، فقرر الانصراف لكي لا يكون حضوره مدعاة استفزاز. فنزل مع مرافقه علي عوض وما ان فتح باب سيارته ليهم بالدخول حتى ألقى نظرة فاحصة على الجموع المحتشدة. فوقف الناس مشدوهين من تجرؤه على النزول اليهم، ما حرك أحدهم ساكناً الا بعد ان صعد الى السيارة وتحركت، اذ قام بعضهم برشقها بالحجارة...

ولم تمر برهة حتى هاجم المجتمعون المطبعة ومكاتب الجريدة بالرصاص، ثم صعوداً الى داخل المكاتب وأطلقوا النار على من كان فيها فأصيب خمسة من الرفقاء العاملين في الجريدة محررين او حرساً بجروح بالغة نقلوا على أثرها الى مستشفى اوتيل ديو ووضعوا تحت حراسة مشددة من قبل الشرطة. لم يستحضر القوميون سلاحاً للدفاع عن أنفسهم عند الاقتضاء... من الرفقاء الجرحى على ما أذكر فيكتور أسعد وديع الاشقر وفؤاد الشاوي.

كان الامين جبران جريج كالعادة الى جانب الزعيم واقفاً. سئل بحضورنا ان يشرح ماذا شاهد حول بيت الكتائب، مما يعني ان سعاده كان قد أوفده ليستطلع ما يجري. قال الامين جريج ان بيت الكتائب، كان مطوقاً بالكتائبيين وقوى الأمن. وان الاستاذ حميد معوض الذي التقاه انبأه عن استعدادات الكتائب لصد أي هجوم مفاجيء يقوم به القوميون الاجتماعيون. ولم يخطىء ظن الكتائبيين لأن الزعيم كان قد استنفر عدداً من المقاتلين وكنت قد شاهدت عدداً من الزجاجات المعبأة بالمواد المحرقة والمسامير... كما شاهدت الاسلحة المتوافرة في بيروت. الا ان تقرير الامين جريج عن مشاهداته جعله يتروى ومن ثم ان يتراجع. ما كان أحدنا نحن أعوانه بقادر في تلك اللحظات الاليمة والموجعة والحرجة ان يبدي رأياً. كنا حوله على استعداد لتلقي الأوامر وتنفيذها. وبالفعل طلب الي أن أتوجه مع الامين جبران جريج والامين ابراهيم

يموت الى مخفر الجميزة ومن ثم الحصول على اذن بمقابلة الجرحى وتفقدهم في المستشفى.....

كما أمر جبران وابراهيم يموت بالمرور بمكتب الحزب في شارع المعرض لأخذ غرض ما. كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف ليلاً. مررنا بشارع المعرض، ثم توجهنا الى مخفر الجميزة دون التقيد بقوانين السير ووجهاته لأن الساعة كانت قد تجاوزت الثانية عشرة وأصبحت الطرقات خالية خاوية، خاصة وقد ارتعب الناس وحسبوا حساباً لانتقام القوميين!.

وصلنا الى المخفر فإذا بالمدعي العام اسعد البدوي.... وهو من أنزه ما عرف قصر العدل من القضاة. كان هو أيضاً متجهم الوجه وفي حالة عصبية ظاهرة. قال لي: «ماذا تفعل هنا؟». قلت: «أنا قادم للحصول على اذن بتفقد الجرحى في اوتيل ديو، لعلهم محتاجون الى دم، الى معونة....». وقبل ان يجيبني بلا او نعم، ناداه من بعيد المفوض عصام حلواني قائلاً: «أرى ان نرسل قوة.... الى راس بيروت». ولما رآني سكت وهرول ليكلم المدعي العام... قلت في نفسي: « القوة هذه ضدنا لا معنا، اذ لو كانت معنا لاستمر المفوض العام في حديثه العلني والصارخ....!».

وحانت مني التفاتة الى غرفة المفوض العام في المخفر فإذا الشيخ بيار الجميل، والاساتذة جوزف شادر، جوزف سعاده وجاك شديد، وكلهم من اركان الكتائب، موجودون صامتون، كمن ينتظر أمراً جللاً.

نزلت الى السيارة لأقول لجبران وابراهيم: «هيا فلنسرع، ان قوة تتوجه الى رأس بيروت لإلقاء القبض على الزعيم». فانطلقنا بأقصى سرعة ممكنة. وعندما بلغنا شجرة الخروب التي كانت على مدخل بيت الزعيم، مقابل الجهة الجنوبية من مستشفى خالدي اليوم، رأيناه مسلحاً وحوله بعض الحرس المسلحين... قلت لسعادة: «أرجو ان تخلي هذا المكان، الى مكان أمين، لأني أتصور ان قوة من رجال الامن قادمة لإلقاء القبض عليك...». وشرحت له ما سمعت، فاتجهنا معاً الى مدخل بيت الدكتور فؤاد غصن، قرب المركز الثقافي البريطاني. هنالك كان قد لحق بنا ادغار عبود وخالد جنبلاط وفؤاد شاوي وكامل أبو كامل والرفيقة معزز روضة.

بسرعة، استدعى الزعيم فؤاد الشاوي الى مدخل بناية الدكتور غصن وأعطاه أمراً بحضوري بالتوجه الى الجميزة والقيام بعمل ما ضد قادة الكتائب في المخفر، طبعاً هذا الامر بقي أمراً.

أما أنا فقد رافقته الى السيارة حيث كان ينتظره الامين كامل أبو كامل والرفيقة معزز روضة وخالد جنبلاط وقلت له: «لا تنسى ان ترسل لنا تعليمات». فأجابني: «بقدر ما ترسلون لي معلومات بقدر ما أرسل لكم تعليمات....» هذه آخر كلمات سمعتها من انطون سعاده...! انها كلمات الوداع الاخيرة.

وراحت السيارة تنهب الارض بسرعة الى منزل السيدة روضة على الاوزاعي... فلما جاءت الفرقة المكلفة بالقاء القبض على الزعيم، لم تجده، فأوقفت من كان موجوداً في الدار. أما أنا والباقون فقد طلب الينا الزعيم الا ننام في بيوتنا.

كانت زوجتي وطفلاي ضياء وحنان في ضيافة خالهما المطران بولس الخوري، مطران صور وصيدا وتوابعهما، في جديدة مرجعيون. وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً تقريباً، قلت في نفسي: «من يمكن ان يستقبلني الآن». وصعدت الى منزلي أحاول ان أنام، ومعي ضحى وصباح وعاطف فقط... لم أوقظهم فيكفي ان أكون وحدي على فوهة بركان برسم التفجير أو التفجر!.

تركت أولادي يتدبرون أمرهم، وحملت الحقيبة الصغيرة التي كنت قد استودعتها رسائل الزعيم لي وعددها يفوق العشرين رسالة كما استودعتها كثيراً من الاوراق والوثائق الحزبية... كان قد خطر في بالي منزلان الجأ اليهما، منزل ابن خال أمي الرجل المحب الطيب جرجس شيخاني (بترومين) الذي كان في قلب وادي أبو جميل، ومنزل رفيقنا القديم جورج سركيس (كفتون) قصدت المنزل الاول فاستقبلت بوجوم، رغم ما أعرفه عن حب الخال وعائلته لي ولعائلتي. عرفت اني غير مرغوب بي، وأدركت فيما بعد السبب لهذا الوجوم. الخال جرجس شهم ومحب وكريم النفس وكذلك زوجته، لكن قبالة دارهم كانت شقة مأجورة لأحد رجال الأمن. كان الخطر قابعاً في تلك الشقة علي وعليهم.

أما منزل جورج سركيس ـ الذي لا يزال مكانه حتى يومنا هذا ـ فمتفرع عن شارع المكحول. دخلت وأنا واثق اني أدخل بيتي. فإذا بالأخ الحبيب، حارس الزعيم في عهد الحزب السري، ينتحي بي جانباً ويسر في أذني انه مراقب، وان الجامعة الاميركية التي عمل لحسابها في مركز التموين، تحظر على موظفيها التعاطي مع الأحزاب والحزبيين. حزنت وتمرمرت نفسياً لكني اذعنت للأمر الواقع وبالفعل مضى على هذه الواقعة حوالي أربعين عاماً، وتوفي جورج سركيس وبقي من أعز اصدقائي وأحبهم الى قلبي! كنت أتفهم واقع اصدقائي وأقربائي وأعذرهم....!!

كان علي ان أتدبر أمري بأي ثمن، فحملت الحقيبة وتوجهت الى صيدلية الجامعة لصاحبها رفيقي وصديقي ميشال رفقه. وانزويت هناك في غرفة تحضير الادوية مختفياً عن الأنظار. وما لبث ان دخل علي الرفيق نصري سرور ابن شقيقة الامين جورج عبد المسيح. فطلبت اليه ان يأخذ حقيبتي وان يدفن ما فيها من وثائق في مكان ما من حديقة منزلهم بعد ان يضعها في تنكة ويحسن تلحيمها كي لا تتسرب اليها المياه... فرحب بالفكرة وفعل. والمؤسف ان والده ساعده في هذه العملية، ويبدو ان نصري اشترك في الثورة القومية الاجتماعية التي أعلنها سعاده فيما بعد، ولوحق، فإذا بوالده ينبش التنكة من تحت الارض ويفتحها ويحرق ما فيها. ما سلم من رسائل الموجهة الي من الزعيم الا رسالة واحدة وجدت بين أوراقه ونشرت في رسائله. كان قد كتب لي هذه الرسالة من قبرص (اذا سلمتني الحكومة البريطانية الى لبنان، فتكون أنت الذي سلمتني ياعبدالله) هذه الرسالة منشورة بين رسائل سعاده التي تقع في ثلاثة مجلدات.

كان علي ان أجد مكاناً الجأ اليه. فخطرت لي فكرة، بعد ان أمضيت نهاري في مكان أمين، ان أتوجه الى منزل خطيب الرفيقة ليلى بربر، شقيقة زوجتي واسمه فرنسيس صالح. كان يقيم مع والدته وإحدى قريباته في منزل يقع في شارع مدام كوري، مقابل الدار البيضاء التي لا تزال قائمة... هذا المنزل هدم منذ بضعة أشهر.

كان فرنسيس صالح ـ الذي سيرد اسمه كثيراً في هذه المذكرات ـ رجلاً

وطنياً، هادىء الاعصاب، كريم النفس، كتوماً، خلاقاً. لقد استقبلني مع والدته العجوز وقريبته استقبالاً حسناً وأفرد لي غرفة، تشبه السجن، لأني لم أكن طوال النهار حراً في الخروج أو الدخول، لأن نسيبته كانت تعمل خياطة وعندها جمهرة من المعاونات من كل لون وشكل...!

عرفت زوجتي منه بمقري عندما عادت من مرجعيون بعد ظهر ذلك اليوم مضطربة خائفة من سوء المصير.

كان قد مضى حوالي الست سنوات على خروجنا من معتقل المية ومية. كنا قد نسينا السجن وأهواله وأوساخه وعذاباته.... ها هو السجن يعود بالغرفة المقفلة الأبواب طوال اثنتي عشرة ساعة، لا يمكننا خلالها ان نرى نور الشمس!.

قبل حضور الخياطات، كانت أم فرنسيس ونسيبته تحملان الي الزاد الكافي للترويقة والغداء. وجميع الجرائد التي تصدر في بيروت. وكانت زوجتي قد حملت الي بعض الكتب الحزبية وغير الحزبية.

لم يكن مسموحاً لأحد ان يقابلني، حتى أولادي. أما زوجتي فكانت تتسلل مع شقيقتها ليلى لمقابلتي وتزويدي بآخر الاخبار تحت جنح الدجى.

الحملة التي شنتها الحكومة اللبنانية التي كان يرأسها رياض الصلح، كانت حملة شعواء فعلاً. كانت النية قد عقدت على تصفية انطون سعاده وحزبه. الخيانة العظمى كانت التهمة الموجهة الينا. فالحزب السوري القومي الاجتماعي «عدو لبنان رقم واحد». والانكى انه «يتعامل مع اليهود» وهو الذي تأسس لمحاربة اليهود. لم يترك الحكام آنذاك شائعة الا وأطلقوها ضدنا في الصحافة اللبنانية والعربية والأجنبية. لقد قصدوا اذلال الحزب وتلويثه والتمثيل به ثم القضاء عليه. كانت زوجتي تعتقد انها النهاية. ان رياض الصلح صديق شخصي لخالها المحامي فهيم خوري الذي كان من مؤسسي حزب عصمة العمل القومي، مع المناضل علي ناصر الدين وصلاح بيهم وقسطنطين يني وفؤاد النكدي ومحمد علي الرزا!...

لذلك، صممت على ادخال خالها فهيم في التخفيف عني. الا أنها لم تجرؤ في بداية الحملة العنيفة، لأنه لم يكن يسمع فيها الا التشهير والتشنيع. انني

أحـيل قـراء هذه المذكـرات، اذا كـان يهـمهم الامـر، ان يقـصـدوا دار أية جـريدة لبنانية، ليقرأوا فيها العناوين المزعجة والأخبار المثيرة، طبعاً في مجموعاتها في ذلك التاريخ المشؤوم.

قبل ان يعلن سعاده الثورة، وبوجود رخصة قانونية للحـزب، كانت الاتهامات تتـزايد، وبالرغم من ان مـدعي عـام التـمييـز يوسف شـربل كان قد أمـر بوقف التعقبات عن الحزب في بداية الملاحقات، بخاصة بعد حادث الجميزة الذي لوحق على أثره الحـزب وجـرحـاه، ولم يلاحق المجـرمـون الذين حـاولوا القـتل وافتـعلوا المشكل، لأن يوسف شـربل لم يكن يجد جـرماً جـزائياً يلاحق الحـزب بسببه. فالحزب مرخص وان تحت اسم الحزب القومي، الا ان الرخصة مستندة الى مبادىء الحزب المطبوعة والمعروفة من الحكام ومن الناس!.

ورغم ذلك الموقف القـانوني الذي عـرفنا بـه فيـمـا بعـد من أقـرب المقـربين للرئيس بشـارة الخـوري، فإن التعليـمات لقضاة التحـقيق وقـوى الأمن، كانت ان ينكلوا بالقـوميين مـا استطـاعوا لذلك سـبـيلاً. انـي أذكـر مثـلاً أنهم دخلوا بيت الأمين انعـام رعـد، وراحـوا يمزقـون السـجـاد فيـه ثم يرمـون المؤن الموجـودة في المطبخ، فـيـخلطون البـرغل والرز والسكر بخـوابي الزيت، ويكسـرون الخـزائن والصناديق ويسـتـولون على مـا فـيـهـا. كمـا أذكـر انهم دخلوا بيت الامين يوسف الاشقر في ديك المحدي، ففعلوا نفس الشيء وقد أخبرت انهم نهبوا مبلغاً كبيراً من المال كان في احدى الخزائن التي خلعوها وحطموها.

أذكر هذين المثلين كنموذج عما جرى، وبالفعل وللأمانة التاريخية، يجب ان أسـجل ان بيوت القـوميين كلها واجهت نفس المصيـر، الا حيث قيض للملاحقين ان يقـعـوا على رجـال أمن اصـدقـاء، تردعهم أخـلاقهم وشـرفهم العـسكري عن ارتكاب مـثل هـذه الجـرائم المحطة بالانسـان عـامـة وبقـوى الأمن المؤتمنين على أرزاق الناس وأعنـاقهم! ولنتـذكـر للأمـانة التـاريخـيـة أيضـاً ان عـدد قـوى الأمن الشـرفاء، أصـحاب الضـمائر المستقيمـة، من ضباط وعناصـر، كان عددا كبيـراً يفـوق بكثـيـر عـدد المسـتـزلمين للرؤسـاء والوزراء وللمـوظفين الكبـار، مـدنيين وعسكريين!.

انني أعتقد ان بيتي وبيوت بعض القادة القوميين من مستواي لم تخرب

لأسباب تتعلق بمكانتهم الاجتماعية والسياسية. أنا مثلاً كنت طوال نضالي السياسي محمياً بنقابة المحامين في بيروت التي لم تتخل عني ولا في مرحلة من المراحل. وان من واجبي ان أسجل لنقابتي هذا الفضل كما سجلته في الاجزاء السابقة من ذكرياتي!... بل ان علي ان أسجل عرفاني للنقباء الاساتذة نجيب الدبس - جان جلخ - جان تيان - ادمون كسبار - فؤاد الخوري - فؤاد رزق - نمر هبّي - فيليب سعاده - جورج فيليبيدس وجبرائيل نصار.

الاتصال بحسني الزعيم

قلت آنفاً ان سعاده اختفى في الأيام الاولى في شاليه معزز برتو روضه في الاوزاعي ومنه انتقل الى عاليه. قبل سرد قصة مغادرته الى دمشق، يجب ان نثبت أسباب توجهه اليها.

كانت دمشق تعيش عهد حسني الزعيم، العهد الانقلابي الاول في العالم العربي كله الذي وقع في مطالع سنة 1949 وكان من أبطاله رفيقنا القديم الاستاذ أكرم الحوراني، الذي لعب في عهد عبد الناصر دوراً رئيسياً اذ أصبح نائباً له.... وأصبح مركزه في القاهرة وتنكر لحزبه وعقيدته.

كنا من مؤيدي هذا الانقلاب، لأن أكرم الحوراني كان وراءه، ولأنه جاء يبشر بنقض التقاليد البالية في الحكم الشامي، ويعد بالتغيير في أشكاله شبه الثورية كما يبشر بتغيير وجوه حكام لبنان: الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح...

أدرك سعاده منذ البدء ان تحركاته سترفض من قبل الرئيسين، لأنهما بالحدس، اذا لم يكن بالدرس والتمحيص، كانا يعرفان ان حسني الزعيم هو حليف انطون سعاده الطبيعي ضدهما... لذلك ترك منزله في راس بيروت في شهر نيسان ليقيم أياماً في حدث بيروت في منزل نصيرنا الراحل اسكندر نصرالله والد الرفيق الراحل رجا والامينة الاديبة القومية الاجتماعية هيام نصرالله محسن، زوجة الرئيس الاسبق للحزب الامين الراحل عبدالله محسن...

دون دعوة مسبقة، أخذت عائلتي، زوجة وأولاداً الى حدث بيروت، لاجتمع الى سعاده، لاطمئن الى صحته من جهة، وأتداول معه بشأن الانقلاب المفاجىء الذي وقع في دمشق من جهة أخرى بوصفي رئيساً للشعبة السياسية اللبنانية.

ما ان أصبحت على مقربة من المنزل المقصود، حتى فوجئت بالتصفيق. فإذا بتجمع من الرفقاء، بعضهم من الحدث وبعضهم من بيروت وضواحيها وإذا بالرفيقة فايزة معلوف أمينتنا تقدم الخطباء وراء مذياع مركز على باب لمنزل مطل على ساحة التجمع، فما ان وقع نظرها علي حتى أعلنت من وراء المذياع: «الكلمة الآن للأمين عبدالله قبرصي».

كمحام وكممارس نفس الخطابة منذ نعومة أظافري لم أتردد في قبول هذا التحدي. طلبت الى الرفقاء حولي ان يساعدوني على خلع معطفي الشتوي الثقيل، ولمعت في ذهني قصة انقلاب حسني الزعيم، فسارعت الى المذياع، لألقي خطاباً عن الانقلاب أذكر اني استهليته بالعبارة التالية:

«كل انقلاب عسكري لا يسبقه انقلاب في النفوس وفي الضمائر هو انقلاب ناقص. ان السلطة التي يستمدها أبطال الانقلاب من قوة الجيش المادية هي سلطة مفتقرة الى ارادة الشعب.... ان الشعب سيحكم بالنتيجة على هذا الانقلاب فأما يؤيده فينتصر بإرادة الشعب او لا يؤيده فيسقط بإرادة الشعب...».

ثم ختمت خطابي بالعبارة التالية:

«لماذا دعيتموني الى الخطابة. عندما يكون الزعيم بيننا، الزعيم وحده يتكلم ونحن نصغي... تكلم يازعيمي».

فوقف سعاده في ذلك الحشد الصغير، ليوجه الي كلمة ثناء اعتز بها وهي وصفي الخطيب الفصيح الساحر!. ثم ليعلن: «لا بأس ان نكون طغاة على المفاسد، ونعلن سخطنا ومقاومتنا للطغيان اينما وجد. «هذا الخطاب كان قد التقطه الامين ابراهيم يموت ونشر مجتزأ في أحد اعداد جريدتنا «البناء»....

انتهى الاجتماع وجئت استأذن سعاده بالانصراف فشدّ على يدي مهنئاً... الا أنني لمحت ان وراء التهنئة ما وراءها. ونحن في السيارة عائدون الى بيروت قلت لشريكه حياتي جورجيت: «الليلة سأتلقى رسالة تقريع من المعلم...» فقالت لي: لقد ألقيت خطاباً موفقاً نال اعجاب الحاضرين فصفقوا لك طويلاً وسعاده ذكرك بالخير...» فأجبتها اني أعرف الزعيم. كان وراء شده على يدي بعض الملامة!.

كنت على وشك خلع ثيابي لآوي الى فراشي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، وإذا بالباب يقرع. قلت لجورجيت: «هذا رسول من الزعيم يحمل رسالة التقريع». فضحكت ساخرة. وسارعت الى فتح الباب فإذا بالأمين فوزي المعلوف يحمل الي رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة (هي منشورة في كتاب رسائله الجزء الثالث...) فتحتها لأقرأ فيها انتقادين:

الأول: كيف اتخذ موقفاً من انقلاب حسني الزعيم وأنا رئيس الشعبة السياسية اللبنانية، قبل ان أتداول مع اعضاء اللجنة بالموضوع ونتخذ قراراً بتوصية للزعيم ان يتبنى موقفنا؟

الثاني: كيف يجوز لي ان أقول ان الزعيم بيننا، وعندما يكون الزعيم بيننا وحده يتكلم. أليس في الحزب خطيب غير الزعيم؟ ان الحزب مليء بالخطباء والمفكرين، لا الزعيم وحده الخطيب والمفكر... ثم لماذا تحريض الزعيم على الكلام بما يشبه الامر قبل استشارته؟

تقبَّلت هذا الانتقاد الموضوعي فرحاً. ان سعاده يعلِّمنا دائماً طريق الصواب، طريق العقل والحكمة والمسؤولية. لا نزال نتعلم منه حتى في هذه السن المتقدمة وحتى بعد استشهاده. انه قدوتنا.

لم تترك هذه الواقعة ذيولاً سيئة لا لدي ولا لدى المعلم، بدليل دعوته لي بعد مدة قصيرة لا تتجاوز شهر نيسان مع الامين عبدالله سعاده والرفيق خالد جنبلاط والامين عبدالله محسن والامين أديب قدورة، وطلب الينا ان نكون وفداً مركزياً، برئاسة الامين عبدالله سعاده، يتوجه بأسرع ما يمكن الى دمشق حيث ينضم الينا الامين معروف صعب، نقابل حسني الزعيم، ونؤيد انقلابه، ونطالبه بالتعاون معنا في لبنان، لإسقاط الحكم القائم فيه واقامة حكم جديد يكون حليفاً مخلصاً وصادقاً لحكمه في الشام.

توجهنا في سيارة واحدة يوم أحد ـ الى الفيحاء الكبرى وكلنا امل وثقة ان مهمتنا ستكون سهلة وموفقة ـ وإذا بنا، ونحن في الطريق، نشاهد دراجات نارية وموكباً رسمياً: كان الرئيس رياض الصلح في طريقه للاجتماع بحسني الزعيم! ياللكارثة! ان مهمتنا مستحيلة. فالرئيس الصلح قادر على تحويل قناعات

حسني الزعيم الى قناعات أخرى كما ان وقته سيكون كله مخصصاً للوفد اللبناني...

أرسلنا الامين أديب قدورة، الى اوتيل «اوريانت بالاس»، الذي كان في ذلك الزمان أفخم فنادق دمشق، في مهمة استكشافية. وقد التقى رياض الصلح وبنيهما علاقات فسلم عليه، واستكشف الوجوه التي كانت ترافقه وتستقبله. لنذكر هنا ان الامين قدورة كان تزوج من ابنة أخت الرئيس شكري القوتلي، الذي خلعه حسني الزعيم وزجّه في السجن!.

كان علينا، نحن الوفد القومي، ان نتلافى أي تلاق مع الرسميين اللبنانيين، لأن مهمتنا كان يجب ان تظل في نطاق سرية محكمة. فرحنا نبحث في محيط سوق الحميدية البعيد عن أنظار قاصدي ساحة المرجة ومتفرعاتها لنجد مطعماً وفندقاً. لقد قررنا ان نقابل حسني الزعيم ولو في آخر الليل!....

في الخامسة أو السادسة بعد الظهر، اتصلنا بالقصر الجمهوري هاتفياً. وتحدث الامين أديب الى حسني الزعيم شخصياً. وأخبره اننا في دمشق منذ الصباح، وأننا موفدون من قبل سعاده لمقابلته. فأجاب حسني الزعيم: «لقد أكلت كثيراً عند الغداء مع رياض بك اشعر بأنني منزعج جداً، دعوا المقابلة لموعد آخر..» أسقط في يدنا واصبنا كلنا بردة فعل غضبى. ورحنا نبحث عن فندق. كان الامين عبدالله سعاده يشم رائحة الشراشف والوسائد ليتأكد انها نظيفة! نظيف اليد واللسان والقلب يبحث قبل كل شيء عن النظافة!...

ثم انتقلنا الى مطعم لنتناول طعام العشاء، فكم كانت دهشتنا كبرى عندما التقينا ـ كأننا على موعد ـ مع الاستاذ عبد الرحمن الصلح، ابن الرئيس سامي الصلح، أصدق صديق لحسني الزعيم في لبنان، والمرشح بأن يكون حليفه رقم 1... لم نبح له بالمهمة ولكنه بذكائه الفطري تنبأ بها.... لم ننزعج لأن الرئيس سامي الصلح كان صديقاً وحليفاً. لنا الى آخر نفس من حياته..

عدنا الى بيروت بخفي حنين. ولكن كانت الطريق قد عبدت. رفقاؤنا في الشام وعلى رأسهم الامين معروف صعب كانوا قد تدبروا الامر، كما ان الاجواء كلها كانت مؤاتية. حسني الزعيم يبحث عن انصار في لبنان. وأي حزب يمكن

ان يكون مؤهلاً بنصرته أكثر منا، بخاصة ووراء الانقلاب رفيقنا القديم أكرم حوراني!....

قلت آنفاً ان سعاده كان يبحث بكل الطرق وكل الوسائل ـ الشريفة والجدية طبعاً ـ للحصول على أسلحة للثورة. كانت الثورة حلماً أو خطاً واضحاً في ذهنه. ولكنها الضربة التي أنزلت بالحزب من قبل رياض الصلح وبشارة الخوري وتحالفهما مع الكتائب والنجادة. الثورة اذن صارت واجباً مقدساً.

كيف عرفت ذلك؟؟....

كان الرفيق جوزف حداد من عين عنوب من عائلة قومية اجتماعية مميزة، قد عين مرافقاً للزعيم يلازمه كظله. أوفده الي فاهتدى الى وكري من بيت الامين جبران جريج ـ الذي كان قد دخل السجن منذ بداية الملاحقات ـ وجاءني زائراً مع ابن أخت الامين جبران، الرفيق فؤاد قطريب. قال لي الرفيق جوزف ان الزعيم طلب اليه اكتشاف مقري، والطلب الي ان أكون مستعداً في أي لحظة لتلبيته إذا ما دعاني للالتحاق بمقره....

وأنبأني في الوقت نفسه انه مع الرفيق اسكندر شاوي وآخرين، على صلة بالرفقاء المقاتلين. وان الثورة ستعلن قريباً وان الحماس لها بلغ ذروته في كل المناطق وان الرفقاء في الجمهورية الشامية يلبون سريعاً أوامر الزعيم للالتحاق بالفصائل المقاتلة التي تتأهب لعمليات عسكرية في لبنان! الرفيق جوزف حداد لا يزال حياً يرزق. وهو صادق في ايمانه ومعتقده. أنه شاهد حي على صحة هذا القول. أنا مضطر للاستشهاد به لأن بعض الخبثاء والمريدين بي شراً راح يشيع ان الزعيم استدعاني فعصيت أوامره وأصررت على الاختفاء.... هذا كذب رخيص!....

كيف انتقل الزعيم الى دمشق قادماً من عاليه

قال لي الرفيق جوزف حداد ان الزعيم توارى في دارهم في عاليه بضعة أيام. وانه اضطر للانتقال الى دار الرفيق فؤاد زحلان بسبب انطلاق رصاصة من بندقية أحد الرفقاء خطأ مما أحدث لغطاً في الحي السكني وكاد ان يستحضر الدرك للتحقيق.

وكانت الرسائل بين دمشق وعاليه متواليه. كان مركز الاتصال بيت الامين معروف صعب، رئيس الشعبة السياسية الشامية. أما الاتصال بالضباط والعسكريين ورجال الشرطة القوميين، والمقاتلين فكان يتم بواسطة اسكندر شاوي وجوزف حداد.

ولكن الزعيم كان بحاجة لمقابلة حسني الزعيم الذي كان يلح بالالتقاء به. في بيت فؤاد زحلان رسمت خطة الافلات من الطوق اللبناني.

روى لي الرفيق فؤاد زحلان ونحن في فنزويلا، كيف استطاع تهريب الزعيم من عاليه فقال:

«لبس الزعيم «برنيطة» ووضع على عينيه نظارتين سوداوين، وركب في سيارته الى الجهة الخلفية، بينما كانت أم هشام تجلس الى جانبه. لكي أروي الحقيقة بكاملها، أذكر عن لسان أم هشام وأبي هشام، ان الزعيم كان متخوفاً من الرحلة. كان الانطلاق من عاليه الساعة الثانية بعد الظهر، من أحد أيام حزيران سنة 1949وكانت الاجواء في لبنان ارهابية. الجواسيس مندسون في كل مكان. الاعين البغيضة والمخاصمة تراقب. تحوّل كل خصومنا السياسيين بما فيهم الشيوعيون لأنهم كانوا يصنفوننا فاشيين الى مخبرين، يدلون بالأصابع على كل قومي اجتماعي، قديماً كان أو جديداً، عضواً كان أو مفترضاً أنه عضو لأنه من الانصار. لذلك كانت مخاوف الزعيم مبررة.

كانت الخطة كالتالي:

تقتحم سيارة الرفيق فؤاد زحلان حاجز المصنع اللبناني بسرعة، على ان تكون وراءها سيارة يقودها الامين ادغار عبود، تتقيد بالنظام ويسمح لها أصولاً بالمرور. بعد هذا السماح تنطلق السيارة بسرعة أيضاً. يترجل الزعيم من سيارة الرفيق زحلان المخالفة ويصعد الى السيارة غير المخالفة، ويكون في انتظاره في جديدة يبوس قوميون مجهزون من قبل الدولة بكل الوسائل لاستقباله واصطحابه سالماً مكرماً الى دمشق (زوجة المرحوم فؤاد زحلان تصر على ان زوجها هو الذي أوصل سعاده الى دمشق لا سواه).

نفذت هذه الخطة كما ذكر لي الرفيق زحلان، وترجل الزعيم من سيارته بكل هدوء وركب في السيارة الثانية. أما هو فعاد الى مخفر المصنع ليعتذر عن مخالفته. الرفيق فؤاد خبير في فن المجاملات وملسان، فلم يجد كثيراً من حججه ليبرر مروره على الحاجز دون التوقف لإبراز هويته وأوراق سيارته!.....

انها لخطة محكمة وحكيمة. لقد مكنت سعاده من اختراق حواجز الامن اللبناني وكل الحواجز المخاصمة، ليدخل دمشق في ضيافة القوميين وقائد الانقلاب الشامي حسني الزعيم!.

ليس لدي تفاصيل عن اقامة سعاده في دمشق ولكن بلغني - دون ان أستطيع تأكيد المصدر المبلغ - ان سعاده جمع أركان الحزب وبينهم معروف صعب والياس جرجي قنيزح وعبدالله محسن وعصام محايري (الذي كان منفذاً عاماً لدمشق) لأنه كان يثق به ثقة كبرى... المهم انه جمع الاركان وطرح عليهم موضوع الثورة بعد ان استمع الى اعتراضاتهم وملاحظاتهم كما يلي:

افترض ان أحدكم كان يسير أعزل في مكان منعزل مع أخته أو زوجته. وداهمه رجل مدجج بالسلاح وحاول ان يغتصب هذه الاخت او هذه الزوجة، هل تسلمونه اياها او تقاومون وأنتم تعرفون مصيركم؟ كان الجواب: «نقاوم بدون شك».

فرد سعاده على الجواب كما يلي: «ان اختكم وزوجتكم ليستا أغلى من الحرية في لبنان. لقد افترست الحرية في لبنان، فهل يجوز ان نسكت عن

مفترسيها؟» فكان الجواب: «لا يجوز». وقال لي ناقل هذا الكلام ان رأي الاركان جاء موافقاً بالاجماع. «الى الثورة اذن. الى الاعداد».

وسرى التيار الثوري بعد اعلان حملة الاعداد كالتيار الكهربائي ذي التوتر العالي. كان الرفقاء في الجمهورية الشامية وفي كل مكان في حالة من السخط والاهتياج ضد السلطات اللبنانية لا مثيل له فلما طلب اليهم ان يقوموا بحملة تبرع وتطوع لإمداد الثورة بالمال والرجال، تسابقوا مع الأنصار والمجندين للبذل بسخاء. روي لي ان رفقاء ورفيقات في صافيتا وفي سواها من المناطق القومية المعتدلة والواعية قدموا خواتم الزواج والاساور والعقود الذهبية لتباع وتنفق على الثورة كما باع بعض الرفقاء مواشيهم ليقدموا ثمنها الى الزعيم. المهم ان النفوس كانت ملتهبة، خصوصاً بعد ان تسرب ان حسني الزعيم تلاقى مع سعاده وأيده في ثورته وتعهد بمده بالسلاح - والرجال عند الحاجة - لإنجاحها وعربوناً لهذا التأييد والوفاء أهداه مسدسه وتعهد بتسهيل تحرك المقاتلين وتقديم شاحنات نقل من الجيش الشامي!... بل تعهد بتقديم عناصر من الجيش بثياب قومية للمشاركة في القتال اذا اقتضى الأمر.

كانت زوجة سعاده وبناته قد وصلن الى الشام ونُقلْنَ الى اللاذقية لكي يتسنى له التصرف بكل وقته دون التقيد بالالتزامات العائلية التي كان سعاده يهملها اهمالاً كلياً في سبيل الحزب، بل ان زوجته جوليات المير سعاده التي اسميناها الامينة الاولى في الحزب لأنها منحت رتبة الامانة باستحقاق كبير لتضحياتها في سبيل القضية والزعيم، كانت تقبل كل هذا الاهمال راضية وتشاركه صبره ونضاله ساهرة معه الليالي الطوال لتمكينه من القيام بمسؤولياته خير قيام. كل عظيم وراءه امرأة عظيمة. والواقع ان الامينة الاولى كانت وراء سعاده وأحياناً أمامه سواء في مغتربه القسري في الارجنتين او عند عودتها الى لبنان اثناء تواريه على أثر مذكرة التوقيف التي صدرت بحقه بعد وصوله الى بيروت في 2 آذار 1947.

وقد استفاد سعاده من اتفاقه مع حسني الزعيم، بأن تسّهل له اجتياز الحدود اللبنانية الى بعلبك والهرمل حيث اجتمع الى رؤساء العشائر وفي طليعتهم آل دندش وآل جعفر... ان رؤساء بعض العشائر تعهدوا بالتحرك عند

اعلان ساعة الصفر.. (آل دندش وآل جعفر وسواهم) كان يرافقه في زيارة رؤساء العشائر الامين عبدالله محسن أحد رؤساء الحزب السابقين.

أما خطة الثورة، كما وصلت الي عن طريق بعض المشتركين فيها الذين قابلتهم في السجن سنة 1949 او التقيتهم فيما بعد كالأمين منير الشعار فكانت كما يلي:

1 ـ احتلال قلعة راشيا والسيطرة على المنطقة بقيادة الرفيق زيد الاطرش.

2 ـ احتلال مخفر مشغرة والتحرك منها نحو شتورة لملاقاة العشائر الذين تعهدوا بقطع الطريق على القوات المتواجدة في البقاع.

3 ـ قطع طريق عاليه بيروت بدءاً من سر حمول حيث تتمركز قوة قومية بقيادة جورج عبد المسيح الذي منحه الزعيم رتبة صدر الموازية لنقيب.

4 ـ احتلال مخفر المتين بقيادة الامين الراحل اميل رعد.

5 ـ احتلال مخفر برمانا.

6 ـ احتلال مخفر الغبيرة برج البراجنة.

ليس في هذه الخطة نقاط التقاء مع تلك التي وضع مشروعها العقيد قيصر زهران يمين وتسلمها منه الزعيم بحضوري سنة 1948 او أوائل سنة 1949. ثم بالطبع ليست هذه الخطة بكاملها. ان الذين اشتركوا في العمليات الثورية ـ وأكثرهم أصبح تحت التراب ـ يعرفون أكثر مني التفاصيل والشمول. الا انني أبادر الى القول ان سعاده لم يكن يعتقد ان احتلال بعض المخافر يعني انتصاره على السلطات اللبنانية، لقد كان في تصوره ان مجرد احتلال بعض المخافر وقلعة راشيا سيكون الدافع لحلفائه بأن يتحركوا كما يكون الدافع للقوميين في قوى الامن والجيش ان يتحركوا، كما سيكون الدافع للفئات المعارضة لحكم بشارة الخوري ورياض الصح ان تتحرك. كان سعاده يراهن فعلاً على النقمة العارمة المعتملة في صدور المواطنين اذ تتفجر تلك النقمة عند تباشير انتصار الثورة القومية الاجتماعية، لأن الصحافة اللبنانية كجريدة «البيرق» مثلاً كانت لا تزال تؤرخ اعدادها من تاريخ 25 أيار 1947 تاريخ التزوير ـ الفضيحة في الانتخابات النيابية التي جرت تحت شعار التجديد لبشارة الخوري ـ بغطاء كامل من رياض الصلح.

كان سعاده على حق في هذه المراهنة لو ان الشعب اللبناني كان بالفعل مريداً للتغيير، اذا لم يكن تغيير النظام فعلى الاقل تغيير الحكام الذين زوروا ارادته، والذين كانوا قد حولوا لبنان الى بقرة حلوب او الى مزرعة!. (هذه العبارات كانت تردد يومياً من الفئات المعارضة، فهي ليست اذن من اختراعي).

كيف نفذت هذه الخطة؟؟؟

كان لا بد بادىء ذي بدء من بيان يحدد أسباب الثورة وأهدافها. لقد صدر هذا البيان في 4 تموز سنة 1949. ومن هذا البيان، يتضح بما لا يقبل الجدل ان سعاده لم يكن يقصد تسليم لبنان الى حسني الزعيم ليضمه الى الجمهورية الشامية. لم يكن هدف سعاده ان يحقق ما كان ينادي به بعض المواطنين من ضم لبنان الى سوريا لتحقيق ما كان يسمى بالوحدة السورية. كان الهدف، على عكس هذا الادعاء، تصحيح الاوضاع في لبنان، بتحقيق مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي الاصلاحية وفي طليعتها فصل الدين عن الدولة والغاء الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب، ثم تنظيم الاقتصاد والأوضاع السياسية والاجتماعية والتربوية على أساس وحدة المجتمع اللبناني، على أساس ان لبنان هيئة اجتماعية واحدة، لا طوائف ولا مذاهب متناحرة... ولا امتيازات ولا عصبيات. انه متحد اجتماعي.

بعد اصدار البيان، انطلقت القوات القومية الاجتماعية من دمشق عن طريق دير العشائر وينطا وكان سعاده في مقدمتها. في ينطا ألقى خطاباً قصيراً في المقاتلين وعاد الى الشام ينتظر النتائج وقيل لي ان الامين عصام المحايري كان الى جانبه.

في ساعة الصفر هوجم مخفر المتين، كما هوجم مخفر الغبيرة، كما هوجم مخفر مشغرة. والمؤسف ان تفاصيل الخطة كانت قد وصلت الى الحكومة اللبنانية. القادمون من مشغرة طوقوا واستشهد منهم البطل عساف كرم وألقي القبض على الباقين. وفي سر حمول قتل النقيب شمعون قريب الرئيس كميل شمعون وألقي القبض على عدد من المقاتلين في طليعتهم أديب الجدع ويوسف قائدبيه. كما ألقي القبض على مهاجمي مخفر الغبيرة، كما ألقي القبض على عدد من مهاجمي مخفر المتين. أما القوة المتجهة الى قلعة راشيا فقد اصطدمت

بكمين للدرك قبل وصولها، مما أدى الى فشل خطة الهجوم وانسحاب المهاجمين وعلى رأسهم الرفيق زيد الاطرش. هنا يذكر لي الامين منير الشعار انه كان في فندق من فنادق دمشق فمرت به القافلة المتجهة الى راشيا وساقته معها وهو لم يسبق له ان تدرب او حمل سلاحاً!.

بعض معاوني سعاده كمعروف صعب والياس جرجي وعصام المحايري وعبدالله محسن توجهوا الى عمان ثم عادوا. الجميع كانوا يعملون لإنقاذ حياته ليبقى على رأس الحزب وليعد للثورة القومية الاجتماعية الثانية. قرر التوجه الى الاردن وانطلقت به سيارة الرفيق صبحي فرحات وقطع من المسافة بين دمشق ودرعا 35 كيلومتراً»، الا أنه استوقف الرفيق صبحي وأمره بالرجوع... تردد الرفيق صبحي فأصر سعاده. يذكر عن لسانه انه قال لصبحي: «كيف تريدني ان أنقذ حياتي بعد ان سقط رفقائي شهداء وأسرى... كل الذين قبض عليهم مهددون بالاعدام. أأنقذ حياتي وأترك كل هؤلاء الأبطال يعدمون؟» وعاد الى دمشق.

(يبدو ان هذه الواقعة خاطئة كما يذكر الامين الياس جرجي في مقاله المنشور في مجلة «البناء» بتاريخ 8 تموز 1988. لقد توجه سعاده الى دمشق لا الى عمان. وقد عاد الامين الياس وأكد هذه الواقعة في كتابه: «مآثر من سعاده»).

أما عن موقف الحكم في لبنان وعلى رأسه بشارة الخوري ورياض الصلح، فقد كنت أقرأه في الصحف وبخاصة في «الحياة» و«النهار»... لقد كاد يطير صواب الحكام، ان يتجرأ عليهم انطون سعاده ويعلن الثورة ويلقبهم بالطغاة!... ما تركوا صغيرة ولا كبيرة الا وألصقوها به. جاؤوا بخائن يدعى محمد عركي ومعه رسالة مزورة تدبروا نصوصها ليستخلصوا منها ان سعاده كان على علاقة باليهود بواسطة الرفيق محمد جميل يونس...

بأذني سمعت رياض الصلح يبشر اللبنانيين بواسطة الراديو بأن انطون سعاده وشيك الوقوع في الفخ...

أما عن التنكيل بالقوميين الذين ألقي القبض عليهم في ساحات الشرف،

فحدث ولا حرج. لن أذكر الا ما رواه لي أحد رجال الدرك من اصدقائي عن الشهيد من آل ملاعب الذي ألقي القبض عليه وهو يعاني من نزيف في جراحه. لقد جاؤوا به في شاحنة الى مركز قيادة الدرك، غير البعيدة عن وزارة الدفاع قرب المتحف. أنزلوه وراحوا يدوسون رأسه بمداساتهم الغليظة. كلما رفع رأسه كانوا يكررون الى ان لفظ أنفاسه في شمس تموز المحرقة في ساحة القيادة وعلى مرأى من الدرك والموظفين.

كيف سلم الخائن حسني الزعيم انطون سعاده الى الحكومة اللبنانية واعدامه

هنا احصل على معلوماتي من مصادرها. فالسيد نذير فنصة عديل حسني الزعيم وأقرب المقربين اليه ألّف كتاباً اطلعت بنفسي علي ما ورد فيه. ثم اني قابلت مع الامناء فؤاد أبو عجرم وأديب قدورة والدكتور جورج صليبي، المير فريد شهاب في قصره في حدث بيروت. كان لا يزال مديراً للأمن العام. كما اني استمعت الى الشيخ منير تقي الدين الذي حضر محاكمة سعاده. كما استمعت الى أديب لبنان الكبير أمين نخله والمحامي جوزف الخوري سلامة، فمعلوماتي هنا أكثر دقة وتصلح بالفعل أسانيد تاريخية.

كان رئيس وزارة حسني الزعيم محسن البرازي، وتربطه برياض الصلح رابطة قرابة لجهة زوجته... كما انه كان صديقاً له شخصياً. استخدمت الرابطة والصداقة للضغط عليه ليضغط بدوره على حسني الزعيم. ثم كانت هنالك مفاوضات اقتصادية حول المصالح المشتركة التي كانت قائمة بين لبنان والشام وفيها بنود ومواضيع معلقة، ترفضها الحكومة اللبنانية. تنازلت الحكومة عن رفضها وقبلت بشروط الشام.

ثم تدخلت القوى الدولية الاستعمارية التي كانت تقض مضاجعها حركة انطون سعاده الثورية الوحدوية... تضافرت كل هذه المراكز النافذة، مع بذل بعض الأموال لمحسن البرازي، ولبعض رجال الدين وأثرت ايجابياً على حسني الزعيم للقبول بتسليم حليفه الذي كان قد سلمه مسدسه هدية وعربوناً على الصداقة والوفاء بالوعود والعهود... وقد أقنع حسني الزعيم ان انطون سعاده سيذبحه ليحل مكانه!

ووضعت خطة التسليم. تعهدت الحكومة اللبنانية بتصفية انطون سعاده

جسدياً في طريقه الى لبنان كما تعهدت باستلامه من دمشق بالذات. (سمعت ذلك بأذني من المير فريد شهاب كما سمعه قدورة والآخرون). ويروي في كتابه ان حسني الزعيم طلب من قائد الشرطة ابراهيم الحسيني قتله في دمشق. وقد سمعت مؤخراً من نقيب الصحافة الأمين محمد البعلبكي ان حسني الزعيم هدد رياض الصلح اذا لم يعدم سعاده فوراً فسيحتل لبنان عسكرياً.

وكان سعاده قد طلب موعداً من حسني الزعيم ليعرض عليه ـ كما قيل لي ـ خطة الاستمرار في الثورة ـ بوسائل عدة احداها رفد القوى القومية الاجتماعية بجنود شاميين بثياب قومية اجتماعية. ولقد نصحه معروف صعب وعبدالله محسن بألاّ يذهب للمقابلة. الا انه أصر... وكان قائد الشرطة العسكرية ابراهيم الحسيني يتفقد مقر سعاده ليتأكد من انه لم يغادر وليصطحبه الى القصر الجمهوري بقصد تنفيذ قرار الخيانة.

قام الرفيق صبحي فرحات بنقل سعاده بسيارته الى القصر الجمهوري، فما ان وصل الى باحته حتى ألقي القبض عليه وعلى سيارته معاً وزجّ في السجن. اما الزعيم فقد دخل على حسني الزعيم الذي قال له: «شوف شغلك مع جماعتك». فما كان من سعاده الا ان رمى في وجهه المسدس الذي كان قد أهداه اياه، ومضى لتسليم نفسه الى المير فريد شهاب، مدير الامن العام آنذاك ونور الدين الرفاعي، قائد قوى الأمن الداخلي. في تلك اللحظة سجل حسني الزعيم ما اسميته في احدى مقالاتي انه خائن القرن العشرين، لأن الخيانة التي ارتكبها وهو بطل انقلاب ورئيس دولة ومشير لا سابقة لها في هذا القرن او سواه من قبل رئيس الدولة.

أجلس سعاده بين الرجلين وإلى جانب السائق حرس مسلح.

وبوصولهم الى وادي الحرير في الارض اللبنانية، طلب نور الدين الرفاعي من سعاده ان ينزل من السيارة لقضاء حاجته، وكان قصده ان يطلق النار في ظهره ليصدر بلاغاً فيما بعد انه حاول الفرار فقتل. الا ان المير فريد شهاب أصر علي سعاده بعدم النزول كما أخبرنا فيما بعد. وهكذا بفضله نجا سعاده من الاغتيال وفقا للخطة المرسومة... المتفق عليها بين الشام ولبنان.

اقتيد سعاده الى مركز قيادة الدرك، قرب المتحف. وهناك توافد كل من بشارة الخوري ورياض الصلح والمير مجيد ارسلان الذي كان وزيراً للدفاع، للاطمئنان انه وصل، ولمشاهدته يرسف في القيود والاغلال.

كان مدعي عام التمييز لا يزال يوسف شريل. وكان قاضي التحقيق العسكري زميلي أيام الدراسة في معهد الحقوق الاستاذ أديب عفيش... كلا القاضيين كانا محشوين بالأضاليل ضد سعاده من قبل الحكومة والصحافة والشائعات كما كانا موظفين مقيدين بتعليمات رجال الحكم. صحيح ان القضاء سلطة مستقلة ولكن في القضايا السياسية لا استقلال ولا من يحزنون!.

أنا الذي أعرف سعاده كما أعرف نفسي، لا يمكن ان أتصور انه أنكر واقعة من الوقائع التي جرت معه منذ الاعداد للثورة حتى نهايتها. لو أنه أراد ان يتهرب من مسؤولياته ما كان قصد القصر وهو يعرف أنه سيسلم، ثم أنه كان بإمكانه اكمال طريقه الى الاردن أو الغوطة والسفر الى الارجنتين أو أي بلاد أخرى تحرم تسليم المحكومين السياسيين الا ان الحكومة اللبنانية، في كتابها عن الحزب القومي تقصدت عن سابق تصور وتصميم ان تشوه مواقفه البطولية وان تبرزه وكأنه ينكر ما نسب اليه للتخلص من العقاب. أيمكن لمن عنده ذرة من العقل والضمير ان يصدق مزاعمها المفضوحة!.

أخبرني النقيب المغفور له جان جلخ عن لسان صديقه الحميم يوسف شريل مدعي عام التمييز، ان هذا الاخير بعد انتهاء استجواب سعاده من قبل المحقق الاستاذ أديب عفيش، سأله ما يلي: «يا انطون، أنت رجل ذكي وتعرف مصيرك، هلاّ ذكرت لي الآن حقيقة شعورك؟. فأجابه سعاده دون تردد: «أنا أموت أماً حزبي فباق». فانتفض شريل وراح يشتم ويسب! الاقزام في التاريخ ما عرفوا يوماً قيمة الابطال والبطولة لبعد المسافة بينهم وبينها.

وأحيل سعاده الى المحكمة العسكرية بتهم كل واحدة منها تقضي الى الحكم بالاعدام وقيل لي أنه رأى بأم عينه تابوته موضوعاً في باحة المحكمة الخارجية!... يا للتابوت المصنوع من خشب السحاحير! أقول السحاحير لأني أنا سحبته من رمال مار الياس بطيّنا....

كان بين الضباط الذين اختيروا للإشراف على تدابير الأمن المشدودة رفيقنا الضابط شوقي خيرالله الذي أخبرني انه كان يدرس كيف يمكن ان يصوب رشاشه الى المحكمة وان يخطف الزعيم ويهرب به! ووجه سعاده بالشهود الذين ضعف بعضهم - كما تزعم المحكمة العسكرية - وناقض سعاده في أقواله... الامر الذي يصعب علينا تصديقه اطلاقاً... ان سعاده لم يحد طوال عمره عن كل كلمة قالها... لقد كان لا يهاب الموت! الحياة كلها وقفة عز فقط. هذه الآية كانت سعاده في الحياة!.

وكانت المحاكمة صورية فعلاً. رأس المحكمة المقدم أنور كرم - الذي تحول سنة 1958 الى حليف لنا - ومات في باريس ونحن حوله لأننا كنا قد لجأنا اليها بعد المحاولة الانقلابية الفاشلة في آخر سنة 1961، وكان الى جانبه النقيب رينيه سمراني، والملازم عبدالعزيز الأحدب، والقاضي المدني غابريال باسيلا وكان يجلس في مقعد النيابة يوسف شريل ومفوض الحكومة ميشال تلحمة، هذا الذي نظم قصيدة سنة 1919 ونشرها في مجلة «الجامعة اليسوعية» يقول فيها عن بلدة دير القمر انها لؤلؤة في جيد سوريا!.....

أقول صورية وأنا أعنيها، فقد دعانا الوزير السابق والصحفي الكبير الراحل عبدالله المشنوق الى الغداء في فندق البريستول، فؤاد أبو عجرم وأديب قدورة وأنا، ونحن نتناول طعام الغداء (سنة 1950) أبرز لنا صورة الحكم على انطون سعاده مكتوبة بخط رياض الصلح.... آه لو سجلنا هذا الكلام بصوته!.

يقول يوسف شريل في مطالعته ضد أديب الجدع ويوسف قائدبيه ومنير الشعار والباقين من أبطال الثورة، ان سعاده ألقى مرافعة دامت ساعتين وانه أعطي حق الدفاع عن نفسه كاملاً.

هذا الكلام كاذب، فقد دعا الزعيم الاستاذ النقيب جان تيان للدفاع عنه فرفض، ثم دعا كبير محامي الجزاء في لبنان الاستاذ الوزير السابق والنائب اميل لحود فلبّى طلبه وجاء الى المحكمة، وطلب منها مهلة 24 ساعة فقط للاطلاع على الملف واعداد مرافعته. تذاكرت المحكمة ورفضت هذا الطلب الحق، فما كان من الاستاذ لحود الا ان انسحب احتجاجاً، رغم مناداة الزعيم له: «ياأميل أريدك ان تبقى». كان سعاده على حق في ان يكون الى جانبه

كشاهد على الاقل محام كبير ورجل سياسة معروف كالأستاذ لحود، وكان الأستاذ لحود على حق، لأنه لا يعقل ان يدافع في قضية تاريخية دون ان يكون بين يديه ملفها، حتى إذا رافع ودافع، يعود الى الملف اثباتاً لما يدلي به من حجج (محام بلا ملف الدعوى كجندي بلا سلاح).

قال لي الشيخ منير تقي الدين بأن سعاده ألقى مرافعة قيمة دامت ساعتين فعلاً. فما ترك شاردة ولا واردة في قرارات الاتهام الا وأجاب عليها ودحضها. ولما أراد شربل ان يسخر منه بذكره بيت الشعر التالي:

ان الزرازير لما قام قائمها

توهمت انها صارت شواهينا

أجابه سعاده على الفور:

وفي الزرازير جبن وهي طائرة

وفي البزاة شموخ وهي تحتضر

أخبرني هذه الواقعة مدعي عام بيروت ديمتري الحايك وأكدها لي مؤخراً الاستاذ شفيق السردوك، رئيس مجلس بلدية بيروت.

وبيت الشعر الذي ألقاه سعاده بسرعة خاطره متداول بين بعض رجال الفكر.

اثناء دفاعه عن نفسه، كان النقيب بريدي آمر شرطة الجيش في المحكمة العسكرية - وهو رجل أخلاق ووطنية وصديق حميم من اصدقائي - يبدل الحرس في المحكمة وخارجها كل ساعة او كل ساعتين. كان يخشى ان يتأثر رجال الشرطة العسكرية ببلاغة سعاده وفروسيته فيعلنون العصيان وينقذونه!...

بعد تلك المحاكمة الصورية، التي هي الاغتيال باسم القانون، أصدرت المحكمة حكمها بالإجماع وهو يقضي بإعدام سعاده. قلت ان الزعيم شاهد بأم عينه تابوته في باحة المحكمة العسكرية، كما أدرك، من تصرفات مدعي عام التمييز والمحقق ومن سلوك المحكمة وتصرفاتها ومن مطالعة المدعي العام، انه لا محالة سيعدم رمياً بالرصاص.

ما من أحد الا ويخاف من الموت، أما سعاده فتقبّله دون ان يخشاه، على ما

شهد شهود العيان، وبناء على الواقعات التالية:

1 ـ سيق تحت حراسة مشددة الى سجن الرمل، الذي كان مطوقاً برجال الدرك ورجال الجيش، فما كان منه بعد وصوله الى زنزانته الا ان غطّ في نوم عميق، واضعاً جاكته تحت رأسه.

2 ـ جاءه الملازم أول كمال الزاهد، صديقه منذ سنة 1935، واحد مساعديه لتأليف كتابه نشوء الامم كما هو وارد في صفحاته الاولى، وما ان فتح الباب وأيقظه حتى بادره سعاده: «بعدك هون يا كمال». فأجابه: «بعدني هون، هل من حاجة اقضيها لك؟» فطلب فنجاناً من الشاي. روى لي هذه الواقعة كمال الزاهد ـ رحمات الله عليه ـ والدموع في عينيه لأنه انذهل بمشاهدة رجلاً محكوماً بالاعدام يغط في نوم عميق كأن حكم الاعدام الصادر بحقه لا شيء!!!

3 ـ جيء بالكاهن الارثوذكسي الأب ايليا برباري الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وفقاً للأنظمة المعمول بها، ليناوله القربان المقدس باعتباره من الطائفة الاورثوذكسية حسب تذكرة هويته. مهما حاولنا ان نصف لقاء الكاهن بالزعيم، وكيف سأله أأنت اورثوذكسي؟، فأجابه: «ولدت اورثوذكسياً!». وكيف عرفه وناوله القربان رافقه الى خشبة الاعدام، وكيف طلب مقابلة زوجته وبناته فرفض طلبه، مهما حاولنا فلن نلحق ببلاغة سعيد تقي الدين في مقالته الرائعة «حدثني الكاهن الذي عرفه».

4 ـ ثم جاء القاضي فؤاد بولس (كفرعقا) الكورة منتدبا من قبل مدعي عام بيروت ليسجل وصيته الاخيرة، فأوصى بما يملك لزوجته الامينة الاولى وبناته صفية واليسار وراغدة بالتساوي، وكان في جيبه أربعماية ليرة سورية سلمها الى القاضي لتوزع بينهن بالتساوي أيضاً.

5 ـ لما دقت ساعة التنفيذ، سيق الزعيم الى غرفة آمر السجن، والسلاسل في يديه، فطلب فنجاناً من القهوة ولم يسمح له الضابط بالكلام.

6 ـ سار موكب الاعدام في الساعة الثانية والنصف من سجن الرمل الى محلة الجناح، الرملة البيضاء حالياً. انها ساحة رملية محاطة بصخور عاليه، لو

كنت أملك مالاً لاشتريتها لتبقى شاهداً على تلك الليلة الظلماء والظالمة. لقد أصبحت الآن بنايات شاهقة.

7 ـ ما ان وصل الموكب الى ساحة الاعدام حتى قفز سعاده من بين حراسه وسار ليقف أمام خشبة الاعدام.

8 ـ جاءه أحد الضباط ـ وأرجح أنه النقيب بريدي ـ وطلب اليه ان يركع، فكانت هنالك حصاة تحت ركبته، فطلب ازاحتها فأزاحها الضابط فقال له سعاده: «شكراً». ولما جاء دور عصب عينيه طلب من العاصب ان يبقي عينيه مفتوحتين ليرى الرصاص يخرق صدره كما ذكرت جريدة النهار.

9 ـ وأعطيت اشارة الموت، فانطلقت اثنتي عشرة رصاصة. وخر سعاده أرضاً. جاء النقيب بريدي الذي كان من موكب الاعدام، وأطلق على رأسه رصاصة الرحمة!...

10 ـ أخذ الجثمان الى كنيسة مار الياس بطينا القديمة التي لا تزال قائمة حتى اليوم، بعد ان وضع في التابوت الخشبي، الذي ظل ينزف دماً... وحتى مواراته في الرمال في مدافن مار الياس...

11 ـ بعيني شاهدت عيني الخوري ايليا برباري مدماتين لكثرة ما بكى في ساحة الاعدام وبعد ذهابه الى داره. 15 يوماً لم أذق طعم النوم «قال لي لا أعرف الا البكاء انيناً لي ومنفرجاً... حدثني الكاهن الذي عرّفه تكفي عن الامعان في التعليق!.

12 ـ وحدثني النقيب بريدي، بعد ذاك بثلاثة أشهر وقد شاهدت بعيني أيضاً عينيه المحمرتين كالدم القاني: ان سعاده أوصاه فبقيت الوصية في أذنيه وذاكرته لكنَّه لم يفض بها لأحد، إلا قبل ان وافاه أجله بعد ذلك بمدة وجيزة!.

كيف عرفت بخبر الاعدام
وما كانت ذيوله

كنت لا أزال مختبئاً في منزل السيد فرنسيس صالح في شارع مدام كوري - رأس بيروت - قلت بأني كنت سجيناً في ذلك المنزل - المشغل - أشفقت علي زوجتي في احدى الأمسيات فأرسلت لي مع المحامي الرفيق المرحوم اميل نجم - ابنتي الطفلة حنان وكان عمرها لا يتجاوز العشرة أشهر!... أخذت الصغيرة ورحت أقبلها في شعرها وفي يديها، وفي وجهها وهي تصرخ. كانت الخياطات قد رحلن في نهاية النهار، ولم يكن في المنزل سواي... أما حنان فقد كادت ان تفضحني لكثرة ما صاحت، وما ولولت... نسيت انني «البابا» نسيت تماماً فقلت لإميل: «أعدها الى أحضان أمها قبل أن ترسلني الى أحضان السجن!....».

مرة أخرى، وفي أيامي الأولى في المخبأ، جاءت زوجتي مع اختيها فريدة زوجة الدكتور توفيق فرح وليلى خطيبة مضيفي فرنسيس صالح، وقد رثت الاخوات الثلاث لحالي: قابع بين أربعة جدران لا أنيس لي ولا جليس الا في الليل! طلبن الي ان أرافقهن في نزهة على طريق المطار. ركبنا نحن الاربعة سيارة الخطيب فرنسيس وانطلقنا... كانت فريدة تغني لنا أغنيتها المفضلة: ياربيع الشباب ما أحلاك!... وكنت أنا أفتح صدري لنسمات المساء الحزيراني العليلة بين تلك الرمال... بلغنا حدود طريق المطار الدولي، وقفلنا راجعين بسلام... فجأة ظهرت شاحنة من شرطة الجيش. كنت أنا بين زوجتي وفريدة وكانت ليلى الى جانب خطيبها. قلت لفريدة اكملي الانشاد بصوتك فأكملت الترنيم الاخاذ. اياك ان تخافي، فالخوف يفضحني وأذهب الى السجن... فأكملت بالفعل انشادها بصورة طبيعية. وصلنا الى حاجز الجيش، فأطل أحد رجال الشرطة ليقول لنا: «تتنزهون، ما شاء الله... مروا...» فحررنا وانطلقنا

بسرعة البرق. سمعت زوجتي أحد الشرطيين يقول: «أنه عبدالله قبرصي!» ولكن لم تتحرك الشاحنة وراءنا... قال لي النقيب بريدي عندما استسلمت بواسطته في ايلول 1949: «أتذكر رحلة المطار؟ رجالي عرفوك وتركوك؟ لقد كنت أوصيهم بك خيراً ألست وكيلنا نحن شرطة الجيش بكل دعاوينا؟ الا نبادلك الجميل بالجميل؟...».

كانت أيامي تمر رتيبة: اقرأ الصحف واقرأ كتاب البؤساء لفيكتور هوغو!... وأقرأ الانسان ذلك المجهول لكارليل... وأقرأ ولا أتعب ولا أمل. ولكني كنت قلقاً مضطرباً خصوصاً بعد ان عرفت بأخبار الثورة. كنت كل يوم أنتظر الأخبار...

وكان يوم 7 تموز سنة 1949، وإذ بزوجتي تأتي الي لتقول لي أن صحيفة الهدف لصاحبها صديقي النقيب زهير عسيران نشرت خبراً في ملحق لها مفاده أن حسني الزعيم سلّم انطون سعاده الى السلطات اللبنانية! ولكن الحكومة أمرت بمصادرتها....

قلت لها: «ما رأيك؟» قالت لي: «ان الزعيم علق». فانتهرتها قائلاً: «هل يمكن تصور ذلك وهو في عهدة قائد عسكري اسمه حسني الزعيم؟ ثم ان رياض الصلح يعد الناس منذ ثلاثة أيام بأن سعاده سيقع في الفخ خلال ساعات، فلو ألقي القبض عليه أو سلم لطلب الى الصحف نشر الخبر ولإذاعته الاذاعات، ليثبت رئيس الوزراء انه لا يعد الناس باطلاً! اني لا أصدق ان الزعيم يقع في الفخ؟ انه رجل يعرف كيف يتصرف في الساعات العصبية!...».

أعترف الآن، ان خبر جريدة «الهدف» أقلقني جداً، لأني أعرف العلاقة الحميمة التي تربط رياض الصلح بآل عسيران وخصوصاً بالرئيس عادل عسيران وزهير عسيران! الذي انتخب فيما بعد نقيباً للصحافة.

لم أنم تلك الليلة. ولكن لم يخطر ببالي ان سعاده لو ألقي القبض عليه سيعدم بهذه السرعة. لذلك عندما خرقت هدوء الليل اثنا عشرة رصاصة التي كانت تتوجه الى صدره، لم أرتعش وان أكن تساءلت: «لماذا هذا الرصاص؟».

كانت الساعة السادسة صباحاً وقد أكون غفوت برهة، فإذا بصوت بائع الجرائد يصيح: «اعدام انطون سعاده اليوم».

كان ذلك صباح 8 تموز المشؤوم.

خرجت من الغرفة لأجد الآنسة الخياطة في الصالة وقد استيقظت باكراً. رجوتها ان تشتري كل الصحف التي مع البائع. فنادته عن الشرفة ونزلت اليه واشترت...

كانت تقرأ الصفحات الأولى وهي تتمهل، فوقعت عيناي على صفحة بين يديه عليها صورة انطون سعاده في قفص الاتهام في المحكمة العسكرية. أدركت لتوي ان الرجل حوكم وأعدم... فانهارت أعصابي لأول مرة في حياتي ـ وأعتقد أنها آخر مرة ـ وأصبت بإغماء مفاجىء مرتمياً على سريري. فسارعت الآنسة الى رشّي بالماء الباردة ثم بالكولونيا، ثواني عابرات وافقت... أفقت متهدماً، مزعزع الجوانب، لا أدري أأصدق أو لا أصدق ان سعاده أعدم ومات!.

أيموت سعاده وأنا لا أزال حياً؟؟!!

أيعدم الرجل العظيم ويبقى الذين يدبون على الأرض من بني الانسان الفاحشين التافهين احياء يرزقون؟ أيمكن أن يعدم مجرم سياسي والقانون يحظر ذلك؟....

لا أصدق...

ولكني قرأت فصدقت....

لحظات، وعدت الى رشدي. هكذا أنا دائماً تصرعني الحوادث الرهيبة، ولكن لثوان لا لدقائق. ثم أتمالك نفسي، ثم أعود انساناً سوياً....

الصدمة أطاحت بوعيي... غبت عن الوعي. لأن الصدمة فوق طاقة احتمالي وان تكن الهواجس قد تأكلتني طوال الليل. ها ان الصدمة تختفي، وأعود الى هدوء أعصابي... أعود رجلاً عركته الشدائد والأهوال، أعود الى ساحة النضال....

قبل أن تحضر الخياطات الى المشغل ويسود الهرج والمرج، رجوت الآنسة المضيفة ان تأتني بإبريق ليموناضة وببعض البسكويت، وان تقفل علي الباب حتى صباح الغد. لا أريد ان أقابل أحداً حتى زوجتي. ليذهب فرنسيس ويبلغها... أريد أن أنفرد بذاتي، ان أحيا دقائق ذلك النهار مع انطون سعاده الشهيد!...

شربت كوباً من الليموناضة... وأخذت كومة من الورق الأبيض ورحت أكتب تأبينا للمعلم... كان عنوانه الكبير «مصرع النسر»، شعرت ان في داخلي بركاناً يتفجر ناراً وكبريتًا... شعرت ان الهستيريا تمتلكني، هستيريا الانتقام لدم المعلم الشهيد! آه لو كان معي فرقة قتال؟.... آه لو ان عندي سلاح؟.... لكنت قتلت أي رجل يرتدي لباس الجيش. الجيش قتل معلمي! طبعاً كان هذا التفكير هذيانا! ما دخل الجيش؟ الجيش نفذ حكماً. الحكام ومن وراءهم هم المسؤولون. لا الجيش؟؟؟!!!

كتبت في 24 ساعة مئة وتسعة وعشرين صفحة... لقد احتفظت بهذه المخطوطة الثمينة، لأنها سجلت مشاعري العفوية النابضة بالفاجعة حتى المحاولة الانقلابية سنة 1961. عثر عليها المحققون فاختطفوها وطارت في مستودعات المحكمة العسكرية! ضاعت فمن يجدها. حتى صديقي ميشال أبو شقرا عجز عن العثور عليها (رغم انه كان رئيس قلم المحكمة).

آه لو أجدها، لأنشر في هذه الذكريات بعض مقاطعها... بدأت بسقراط... ثم بالمسيح ثم بغاليلي، ثم بكل قادة الفكر في العالم الذين أعدموا لأنهم ثوار، ثم رجع الذين أعدموهم فاعتنقوا أفكارهم وعقائدهم!.

قلت ان عهد بشارة الخوري ورياض الصلح هو امتداد لعهود التفتيش في القرن الرابع عشر. لم يكن هذا هذيان؟ فقد درست كل النصوص القانونية لضمانة الدفاع عن المتهم، امام القضاء العسكري آنذاك، فهل ألام إذا انتقدته؟

الصدمة لا تبقي للإنسان، وان فولاذي الاعصاب، عقلاً متزناً يحلل الأمور، ويحاكمها. صحيح اني استعدت وعيي ولكن لأفقد توازن عقلي... ملكاتي العاطفية وحدها كانت تكتب بقلم من نار وحبر من دم.

ماذا ننتظر لرجل يعلن الثورة، فيقتل فيها من يقتل، وتدمر منشآت وتحاصر سلطات، ماذا ننتظر لقائد ثورة فشلت ألا الإعدام؟

ماذا حدث لزاباتا في المكسيك؟

ماذا يحدث للنسر عندما ينقض على غابات الوحوش الكاسرة؟

لماذا لم تفلح الوساطات لإبدال الاعدام بالمؤبد؟
لماذا حوكم سعاده خلافاً للأصول الجزائية؟

حدثني صديقي أحد امراء الحرف في لبنان، اذا لم يكن أميره رقم واحد المغفور له أمين نخله قال:

تعرف ياعبدالله علاقتي برياض الصلح وآل الصلح. انهم اصدقائي بل أهلي. قصدت دار رياض الصلح في الناصرة، فرأيت بأم عيني زوجته تركع على قدميه تتوسله: «لا تعدمه ياارياض، لا تقتلوه. ابدلوا الحكم بالمؤبد. أنفوه من البلاد، وأبعدوه ولكن لا تقتلوه».

لم يجب رياض الصلح. لم يقل شيئاً. سعاده يستحق الاعدام فليعدم. هذا كان لسان حاله. ولكن هل كان هذا حقاً!... أيجوز اعدام مرتكبي الجرائم السياسية؟

هنا السؤال. فأين الجواب؟

سنناقش هذاالموضوع لاحقاً.

تحركت في تلك الليلة الليلاء. في ذلك اليوم المشؤوم كل القوى الخيرة في لبنان. وعلى رأسها كمال جنبلاط القائد الشهيد هو أيضاً فيما بعد، جاء الى القصر يطالب بإبدال حكم الاعدام بالمؤبد!... ألم يكن كمال جنبلاط على وشك الدخول في الحزب بعد حوارات طويلة مع سعاده؟ لم يدخل ولكن ألم يتعرف الى الرجل، صاحب العبقريات المنوعة، صاحب الفكر النير والعلم والأخلاق النادرة؟ بلى تعرف. والدليل مجيئه الى القصر الجمهوري في ذلك الجو المتجهم المدلهم ليطالب بإبدال حكم الاعدام بالمؤبد. لم يستجب لطلبه رغم الالحاح المبطن بالتهديد. لم يستجب ولكنه لم يسكت. سننشر لاحقاً استجوابه الشهير

والمثير والمبني على معلومات وحجج دامغة والذي أرسله الى مجلس النواب في 9 ايلول سنة 1949.

ثم تحرك رفيقنا ادمون طوبيا - بيت شباب - والذي قام باتصالات مع الشيخ خليل الخوري، الذي كان قد سلم بوجوب الاتفاق مع الحزب، وبالفعل قامت معه علاقات بواسطة الأمين السابق فريد صباغ (ضهور الشوير) وذكر ان الشيخ خليل تحرك بدوره ولكن دون جدوى!... كل ذلك لا ينسينا موقف غسان تويني البطولي الذي سمى أنطون سعاده «شهيداً» وحكم عليه شهر حبس لهذا الموقف من قبل المحكمة العسكرية.

لقد طلبت الحكومة الى المحكمة العسكرية عدم مراعاة المهل المنصوص عليها في قانون المحاكمات العسكرية والقانون العام لاستعجالها الحكم بالاعدام وتنفيذه وفقاً لتعهدها لحسني الزعيم وخوفاً من ردود فعل القوميين الاجتماعيين في طول البلاد وعرضها، إذا عرفوا بإلقاء القبض على زعيمهم، من ان يثوروا بدورهم ويحطموا كل ما يقف في طريقهم! ولكن لم يكن هنالك بد من عرض حكم الاعدام على لجنة العفو المؤلفة من الاستاذ اميل تيان، رئيساً ومن القضاة جورج السيوفي، زهدي يكن ورضا التامر اعضاء...

فطلب القصر الجمهوري من الرئيس الاول اميل تيان ان يحضر الى القصر فوراً وان يجمع لجنة العفو. فكان جواب الرئيس تيان ان لجنة العفو تجتمع في قصر العدل لا في القصر الجمهوري ورفض الحضور. وكذلك الرئيس جورج السيوفي. الا ان الحكومة لم تعدم وسيلة، فاستحضرت القاضي زهدي يكن والقاضي رضا التامر الى القصر الجمهوري ومعهما مدعي عام التمييز شربل وقاضيا آخر لم أعد أذكر اسمه ولا من هو، وحصلت من هؤلاء على قرار بالموافقة على الاعدام!...

بعد صدور العفو عنا في 18 تشرين الأول 1949 ذهبت الى منزل الرئيس تيان لأشكره على موقفه المشرف، وكان الاستاذ تيان معلمي في معهد الحقوق الفرنسي، وأكن له محبة عميقة واحتراماً أعمق، فأجابني: «تشكرني لأني قمت بواجبي؟ كيف يمكن أن أقبل بالاشتراك في قرار يتخذ في القصر الجمهوري. أهذا قرار أم بصمة على مشيئة الحكومة! نحن نحكم بإرادتنا لا بإرادة السلطة الحاكمة؟».

القرار الذي اتخذ من قبل لجنة العفو لم يكن قانونياً أيضاً، لأنه لم يتخذ في قصر العدل، كما أنه اتخذ بغياب الرئيس بعذر شرعي، الى جانب أنه لم يصدر أصولاً في أوقات الدوام الرسمي!... انها محاكمة شبيهة بالمحاكمة التي جرت للسيد المسيح، اذ كان الحكم قد صدر بصلبه قبل اجراء المحاكمة الصورية من قبل من كان يسميهم الكتبة والفريسيين!.

كل ذلك برره لي مفوض الحكومة لدى المحكمة العسكرية الاستاذ ميشال تلحمه... برره بالقول: «لقد أنقذنا البلاد من الغرق بالدماء. لو عرف القوميون الاجتماعيون وأصدقاؤهم بالمحاكمة والحكم والتنفيذ لتجمهروا واقتحموا السجن أو المحكمة بقصد انقاذه. كم كان سيكلفنا من الضحايا، ومن يدري ماذا يحدث بعد ذلك في البلاد!...

أما ان الجرم السياسي، فقد تجاوزته المحكمة أيضاً كما تجاوزته المحكمة العسكرية برئاسة الرئيس الأول اميل أبو خير مع محاكمة القوميين بالمحاولة الانقلابية آخر سنة 1961على اللواء فؤاد شهاب الذي أكمل التقليد السابق الذي نفذه سلفه الاستاذ اميل تيان سنة 1962 اذ عارض حكم المحكمة بمؤتمر صحفي، مما أدى الى عدم تنفيذ الحكم بالاعدام على قادة الانقلاب الفاشل خصوصاً بعد توصية المحامي والمؤلف الكبير الاستاذ موريس غارسون Maurice Garcon.... في دراسة خطيَّة قدمها للمحكمة وللرئيس شهاب.

أليس من حقنا ومن باب المقارنة فقط ان نسجل للرئيس اللواء فؤاد شهاب حكمته اذ أبدل أحكام الاعدام الصادرة بالأكثرية من المحكمة العسكرية سنة 1962 بالسجن المؤبد على رئيسنا الأسبق الراحل الكبير الدكتور عبدالله سعاده ورفقائه، الذين قاموا بانقلاب ضده شخصياً من جهة وضد نظام الحكم العتيق والبالي في لبنان؟ يجب أن نسجل الحسنات كما نسجل السيئات وإلا لا نكون عادلين.

من الاستجواب الذي قدمه القائد الشهيد كمال جنبلاط الى مجلس النواب في 9ايلول سنة 1949 ـ تبين ان من أسباب عدم ابدال حكم الاعدام بالمؤبد كان تدخل دول أجنبية مع الملوك والرؤساء العرب للضغط على الحكومة اللبنانية بالتنفيذ. ومهما يكن من الأمر، فإن الطابع السياسي للجرائم التي حكم

سعاده على أساسها، كان وحده كافياً للحكم عليه بالاعتقال المؤبد على ما نصت المادة/ 96/ من قانون العقوبات اللبناني الذي كان ولا يزال ساري المفعول... أما المحكمة فعللت حكمها للتخلص من نص هذه المادة بما ورد في المادة/197/ عن أن العقوبة تكون الاعدام إذا كان قصد الجاني في الجرائم السياسية دنيئاً... نعم، قالت المحكمة العسكرية بمن فيها حتى القاضي المدني غبريال باسيلا، ان القصد من الثورة كان دنيئاً... ليتصور القارىء.. ان حزبا أهدافه خلاصة ما وصلت اليه الحضارة في عصرنا الحاضر، من وحدة قومية واجتماعية، وسياسية يقوم بثورة مقاصدها دنيئة! أيكون توحيد الأمة والشعب وإنشاء نظام جديد على أنقاض نظام عتيق بال مقصداً دنيئاً... لله ما أغرب ما يذهب اليه الحكام الطغاة لتبرير طغيانهم!

ماذا بعد الاعدام؟؟

ليس لأن سعاده أبانا الروحي وزعيمنا، نتحدث عنه بإعجاب قد يجد فيه الناس بعض المبالغة. انها في الواقع لمبالغة في كبح النفس عن الاسترسال بالمبالغة... قال اميل البستاني، الرجل الاقتصادي الكبير والنائب الجريء: «لقد مات سعاده كما تموت الالهة!...» قالها بحضور وفد عن حزب العمال البريطاني كان يزور لبنان ورغب بالاجتماع الينا... وقال النقيب بريدي (قائد الشرطة العسكرية اثناء محاكمة سعاده): «لقد مات كما يموت المحاربون القدماء». وأما محمد يوسف حمود وهو أحد تلامذته... فقد نظم قصيدة ملحمية ذكر فيها انه لم يصلّ طالباً أبعاد هذه الكأس عنه.

ان الرأي العام أصيب بصدمة مرعبة. كيف يمكن في لبنان، بلد الانفتاح الحضاري والحرية، ان يعدم رجل كأنطون سعاده كأنما يغتال باسم القانون! حتى أشد خصومنا عقائدياً الأخوة الشيوعيون لم يتمالكوا ان وقفوا الى جانبنا في الاحتجاج على هذه التصفية الجسدية غير المقبولة لا شرعاً ولا أخلاقاً تماماً كما فعلنا ونحن في ابان الخلاف معهم عندما اغتيل الشهيد فرج الله الحلو في أقبية سجن المزة في دمشق وعلى يد السفاح عبد الحميد السراج!.

أما غسان تويني، وهو أيضاً من تلامذة سعاده، وان عارضه في أفكاره وفلسفته منحازاً الى أفكار الدكتور شارل مالك، فقد كتب في جريدة «النهار»،

ثاني يوم الاغتيال مقالاً تحت عنوان: «انطون سعاده المجرم الشهيد»، استحق عليه التوقيف وحكم المحكمة بثلاثة أشهر سجن!». لا ننكرر هذا الموقف لغسان لأنه موقف تاريخي، ولأنه أدى بالنتيجة الى اعادته الى صفوف الحزب وإنتخابه نائباً في مجلس النواب اللبناني.

وللذين يهمهم ان يدرسو الحكم من الوجهة القانونية، على أساس تطبيق قانون العقوبات اللبناني وأصول المحاكمات الجزائية، فليقرأوا مقالة النائب نعيم مغبغب ـ فنّد في مقالة في مجلة «الوطن» كل المخالفات التي ارتكبتها المحكمة العسكرية والنيابة العامة التمييزية في محاكمة سعاده والحكم عليه وتنفيذ الحكم خلال 18 ساعة فقط! الامر الذي لا سابقة له في تاريخ المحاكمات السياسية والذي حملنا على اعتبار المحاكمة مخالفة لكل الأصول والأعراف بمثابة اغتيال باسم القانون كما ذكرنا سابقاً.

لم أطلع وأنا في مخبأي ولا بعد الافلات على تعليقات الصحف، ولكني أظن ان الدول الأجنبية التي كان سعاده ضدها جميعاً لأنها المسؤولة عن تقسيم بلادنا وتخلفنا، والمسؤولة عن غزو مواردنا ومدارسنا وثقافتنا، المسؤولة بالنتيجة عن الأمراض التي تتآكل نفوسنا، لا يمكن الا ان تفرح في دواخلها والعلن لأن تتخلص من خصم لها عنيد ومسلح بحس رسولي أصيل بالعلم والاخلاق وببطولة نادرة في القادة العسكريين أنفسهم!...

ان الناس تحب الأبطال، وان خصوماً، فكيف بسعاده الذي مارس البطولة حتى آخر نبضة من نبضاته، عندما قال لجلاديه دعوا عيني مفتوحتين لأرى الرصاص يخرق صدري، وكما قال قبل لفظ أنفاسه بلحظاته لمن ساعده على انتزاع الحصاة من تحت ركبته: «شكراً...» هذه «الشكرا» التي دخلت التاريخ من أبوابه العريضة ليست ثمرة نفس عادية... انها التعبير عن نفسية الأبطال، عن نفسية أمة بطلة، صنعت تاريخ الانسان ببطولاتها والفتوحات... وصارت الى ما صارت اليه بما مر عليها من عدوان بربري، انتهى الى العدوان البربري الاسرائيلي الذي لا يزال منذ الاربعينات يعيث فساداً في فلسطين زارعاً مستوطناته، سالباً المواطنين أراضيهم وموارد رزقهم وحرياتهم والكرامات!.

ها ان ألد أعدائنا في لبنان وخارج لبنان، يعترفون معنا بصواب أفكار

سعاده ومعتقده القومي الاجتماعي: «ان دكتوراً في الحقوق ومناضلاً وطنياً، يؤمن بالقومية العربية خلدون نويهض، هو اليوم أستاذ في جامعة كراكس في فنزوالا، وقف يوماً سنة 1967 في منزلي في فنزوالا أمام صورة سعاده وقال مخاطباً اياه:

«أيها الزعيم مضى من عمري سبعة عشر عاماً وأنا أخاصمك وانتقدك. انني الآن أستغفرك. انني الآن استغفرك. لقد ثبت لي انك أنت وحدك عملت «على تطوير الامة السورية والعالم العربي باتجاه الحضارة. أما سواك «فيشدنا الى الوراء».

ولنقل هنا، وبمناسبة الاستشهاد، هل يمكن لأحد من رجال الفكر والعقائد الاجتماعية ان يخاصم سعاده ويحاربه...

العروبوين، ألم يعطهم الدليل على أنه عروبي، عندما علم ان الأمة السورية أمة عربية، وعندما قال نحن لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها، وعندما ذكر في خطابه التاريخي، خطاب العودة في 2 آذار 1947: «نحن صدر العالم العربي وسيفه وترسه». وعندما قال: «عندما تكون المسألة بين العرب واعدائهم، فنحن نحن العرب!».

واللبنانيون، هل يمكن ان يخاصموه، هو القائل: «لا أقبل ان يكون في لبنان من هو أصدق لبنانية مني!».

هذا الرجل العظيم، لو أصغى لتعاليمه ومبادئه المواطنون في الهلال الخصيب والعالم العربي، لما كانت اسرائيل، التي تنتهك أعراضنا وتغتصب أرضنا وتذلنا على سمع العالم وبصره. لو أصغى المواطنون لمبادئه وتعاليمه واعتنقوها أو طبقوها لما كانت الحروب الطائفية في لبنان، تخمد ثم تشتعل كأنما هي نار تحت الرماد، ومثلي على ذلك فتنة سنة 1958 والحروب الأهلية التي اندلعت سنة 1975.

لو أصغى المواطنون الى مبادئه وتعاليمه وطبقوها، ما كان وجه العالم العربي كله حتى الآن وجهاً لا يتلائم وموارده الطبيعية وإمكاناته المادية والبشرية. ان تعاليم سعاده ومبادءه، وحدها ترفع هذا العالم العربي، من تخلفه وتمزقه، الى قمة التقدم والقوة والمنعة، والحرية والسيادة!

ان سعادة ما أسس حزباً وعقيدة على الكلام، بل على العلم ودليلي كتابه «نشوء الأمم» الذي كاد ان يكون الكتاب الوحيد عند صدوره والذي يعالج فيه نشوء الأمم وتطورها. لقد ترجم هذا الكتاب في الارجنتين وقيل لي انه يُدرّس في جامعة من جامعاتها.

ها هم اليوم يقولون بوحدة المغرب العربي الكبير.... ألم يقلها سعاده منذ الاربعينات!... كما يكررون قوله بوحدة وادي النيل (السودان ومصر) ووحدة الخليج العربي.

ها ان المفكرين والمصلحين يتبنون مبدأه الاصلاحي الكبير بفصل الدين عن الدولة، لأنهم يعتبرونه الطريق الأوحد لإبراز هذا العالم العربي بوجه حضاري عوضاً عن ابرازه بوجه طائفي مذهبي!.

ولكن عزاءي الأكبر ان سعاده استشهد أما حزبه فباق وينمو يوماً بعد يوم.

حزبه باق، تغزوه أحياناً الانقسامات والمشاكل والمتاعب والافشال، ولكنه يظل حزب الحقيقة.

والحقيقة لا بد ان تنتصر بل انها تظل حقيقة، ولو فشلت لأنها حقيقة الحياة والحياة أقوى من الفشل ـ أقوى من الموت ـ وفي سياقها لا بد من الانتصار!...

ان سعاده علمنا، اننا اذا لم نقدر نحن في جيلنا الحاضر، ان ننتصر، فإن أجيالاً لم تولد بعد، ستتخذ مبادءنا وتعاليمنا دستور ايمان لها وتنتصر بها وتنصرها!.

ها هو التاريخ أمامنا ووراءنا: الحقيقة دائماً غلاّبة، غلابة ولو وقفت في وجهها قوى الأرض قاطبة. ولتكون الحقيقة غلابة، ليس من الضرورة ان تتسلم الأحكام، في بقعة أو بقاع من الارض، بل ان تحيا في صميم المجتمع، ان يبشر بها المجتمع ويعمل لانتصارها. ليس عمر الأمم ليقاس بالسنين. عمر الامم قد يكون بمئات وآلاف السنين وكذلك عمر الحقيقة وحتمية انتصارها!...

عزاؤنا الأكبر كما علمنا سعاده ان قضيتنا القومية الاجتماعية المقدسة، اذا لم نستطع نحن تحقيقها، فالأجيال التي لم تولد بعد تستطيع.

أجل تستطيع لأن القضية التي رأسمالها دماء طاهرة كدماء سعاده ورفقاءه الميامين وتعاليم ومبادىء صالحة كتعاليمه ومبادئه، لا يمكن ان تذل، ولا يمكن أن تقهر....

انها لمنتصرة حالياً بصمودنا... انها لمنتصرة بما قدمنا من دماء وتضحيات، بما قدمنا من شهداء، بما خضنا من معارك فكرية وإنسانية أثبتنا فيها كلها قدرتنا على العطاء. نحن مؤمنون ان المستقبل لا يمكن ان يكون الا للحقائق التي بها نؤمن ولها نعمل....

ماذا بعد الاستشهاد؟

خطر لي في البدء، ان مخبأي بعد الاستشهاد لم يعد أميناً. رحت أخشى ان يلقى القبض علي وأنا ممزق محطم وقد أعدم الرجل الذي كنت أحب حتى العبادة فأهون وأضعف. فقررت الانتقال. بعد تجربتي مع الخال العزيز جرجس الشيخاني والرفيق والصديق جورج سركيس، أصبحت حذراً في اختيار ملاجئي، فخطرت لي خاطرة، كانت هي باب الفرج. ان انتقل الى منزل رفيق عمري وقريبي جبران جريج الذي كان ألقي القبض عليه صدفة... والذي كان يعاني من الحبس والآلام النفسية في سجن الرمل مع باقي المسؤولين الحزبيين، على أثر مصرع المعلم... روى لي بعد ان عدنا أحراراً، انه بعد فشل الثورة، كان متجهاً الى داره فالتقى سيارة فيها درك ورجال أمن، وكان هذا اللقاء في شارع مدام كوري، قريباً من منزله، فسأله رجال الأمن هل يعرف بيت جبران جريج، فدلهم عليه، وتسلل في الشوارع الفرعية وعاد أدراجه الى الاشرفية حيث عثر عليه أخيراً وأودع السجن..

كان الأمين جبران مولعاً منذ نعومة أظافره بالأدب والأدباء، فهو الذي جمعني لأول مرة بالياس أبي شبكة وميخائيل نعيمة في سنة 1933، لقد انتخب رئيساً للحزب في شقه الشرعي سنة 1987، لأن الحزب مع الأسف انشق على نفسه. ما كنت أتمنى له هذه الرئاسة في هذه الحال المؤسفة والمؤلمة معاً... نحن الصحابة يجب ان نبقى رموزاً لوحدة الحزب ونسعى لتحقيقها... وقد حققناها فالحزب اليوم موحد متماسك مقاوم.

المهم اني انتقلت الى بيت جبران، وارتحت من الخياطات والعيش طوال النهار منفرداً ووحيداً.

ما مضى علي يومان حتى كنت قد بدأت أتضايق. السجن أحياناً أرأف بالسجين الفار من وجه المظالم!.

جاءتني زوجتي، بعد ان استقر بي المقام تقترح علي ان تذهب مع الأولاد الى دير سيدة صيدنايا حيث نقلت الأمينة الأولى زوجة انطون سعاده وبناتها. كانت تلك أمنيتي لأن الأمينة الأولى كانت تعرف كم أنا موضع ثقة عند المعلم وكم أكون الآن حزيناً بعد غيابه بالجسد وكم أنا قلق عليها وعلى بناتها!.

كان معي 25 ل س. أعطيتها لجورجيت، فوق نفقات الرحلة، لتعطيها للأمينة الأولى كمساعدة رمزية في تلك الساعات العصبية التي كانت تمر بها على أثر الكارثة. أعرف كم هي مؤمنة. وكم هي مضحية، حتى ليجوز لنا تسميتها بالشهيدة الحية لكثرة ما تحملت من أهوال وآلام في تلك المرحلة من حياتها. تركت جورجيت ولدي ضياء في عهدتي، وكان عمره أربع سنوات، وسافرت... كان اصدقاؤنا الأقربون في الشام عائلة الأمين معروف صعب وكانت تعرف عنوانهم... سافرت وعادت تطمئنني الى صحة الأمينة وبناتها وتروي لي الكثير عن دموعها وأوجاعها. الا ان الايمان، ما أعظم الايمان، ليظل قادراً على مد الانسان بقوة هو نفسه لا يتصور انه يجدها في اطواء نفسه!.

نجحت تجربتي في بيت السجين جبران جريج، فلماذا لا تنجح في بيتي. هل يمكن ان يتصورني رجال الأمن مجنوناً لأختبىء فيه؟ لقد داهموه على مدى ثلاثة أشهر فما وجدوني... فلن يداهمونه بعد ذلك اذا لم تأتهم وشاية. سأتلافى كل أسباب الظهور وكل ما يلجأ اليه الجواسيس من حيل ووسائل... سأختبىء جيداً.

وفي ليلة ظلماء، نقلت الى منزلي دون ان يشعر بي أحد. وقبعت في غرفة نومي لا أخرج منها الا والأمان يلف الدار والجوار!

طبعاً كابوس مصرع سعاده لم ينجل عن صدري الجريح... كنت أكتب وأكتب. كتبت مقالة عنوانها حسني الزعيم أكبر خائن في القرن العشرين، المحت اليها سابقاً في هذه الذكريات. ثم كتبت رسائل الى الخارج، الى كل

أصدقائي من الرفقاء عبر الحدود، من المكسيك الى اميركانيا... لا أذكر من الذين تجرأوا على زيارتي في تلك المحنة الرهيبة الا الأمين عمر أبو زلام من حلب. عمر أبو لازم اسم في الحزب بارز، فعدا انه حلبي المنشأ، ومحام فهيم وعليم، يتمتع بجرأة نادرة. انه المستشهد الدائم. يقتحم المصاعب والمخاطر، وحتى ساعة كتابة هذه السطور لا يزال المقحام سالماً. جاءني الى بيتي الذي تحول الى مخبأ وطرح علي عدة خطط لا أذكر منها الآن شيئاً.

لكنني أذكر تلك الزيارة وأقدرها. ولقد كانت سبباً أساسياً في تعاوننا فيما بعد في كل الميادين، الفكرية والسياسية والادارية...

بتاريخ 14آب سنة 1949 ولما يمضي على استشهاد المعلم الا شهراً وأسبوعاً حملت الينا انباء دمشق على الأثير خبر الانقلاب الذي قام به اللواء الحناوي على حسني الزعيم ومقتل هذا الاخير ورئيس وزرائه محسن البرازي... ألم يقرأ قارىء هذه العبارة: «طار فرحاً...». أجل طرت فرحاً. نسيت الدم الذي كان لا يزال فائراً في مقابر مار الياس بطينا، نسيت الهزيمة، نسيت كل شيء، لينحصر فرحي في هذا الانتقام الرهيب والعادل لأنطون سعاده... انه تنفيذ حكم الشعب بالمجرمين!.

إذن خائن القرن العشرين اختفى، لقي حتفه. دفع ثمن جريمته المستفظعة... جاء البطل فضل الله أبو منصور بسترته التي خرقها الرصاص الى الامينة الاولى ثم نقلها من دير سيدة صيدنايا الى منزل استؤجر لها في دمشق في حي الازبكية المتفرع عن شارع بغداد.

كان مصرع الخائنين حسني الزعيم ومحسن البرازي انتصاراً لسعادة وانتصاراً للحزب، وانتصاراً للشرف العسكري الذي أهين ولطخ بالعار، ثم انتصاراً للحق... كان حق انطون سعاده على حسني الزعيم ان يحميه في قصره لا ان يسلمه الى جلاديه!...

ارتفعت معنوياتنا فجأة... كدت أنزل الى الشارع اؤلب الجماهير ضد بشارة الخوري ورياض الصلح. ولكن أين لي ان أفعل وأنا المختفي في منزلي تحت اسم «عمر»... كان صغاري ينادونني «العمو» عوضاً عن «أبي أو بابا»!....

المهم، ان اسم أديب الشيشكلي بدأ باللمعان. والشيشكلي أديب كان قد أقسم يمين الانتماء الى الحزب لما كان سرياً سنة 1935. أما أخوه صلاح فكان عضواً عاملاً في العلن وبقي عضواً الى آخر أيامه!.

والأهم ان الأمينة الأولى وبناتها أصبحن في مأمن من المتشفين والناقمين والحاقدين.

والأهم من الأهم ان آمالاً تفتحت براعمها عن احتمال تسلم أديب الشيشكلي الحكم، حيث يصبح لنا في الشام، أرضاً صلبة نقف عليها مبشرين عاملين، لا نخشى سيوف ديموكليس Democlès كما لا نخشى غدرات الزمان. حل الشرف العسكري محل اللاشرف، وحل الوفاء محل الخيانة والغدر...

الحزب السوري القومي الاجتماعي أصبح بإمكانه ان يناضل ويكافح ويعمل دون خشية ولا وجل.

فجأة، خطرت على بالي خاطرة ثانية. لماذا لا ألجأ الى الكورة، الى كورتي الخضراء، الى القويطع الذي يفصلها عن بلاد البترون؟ لماذا لا أعود الى أرض المحبة والكرم والأمان، الأرض التي احتضنتني أماً رؤوفاً سنوات طويلة؟ لماذا لا أعود الى بتعبوره، وكفرحاتا، وكفتون واجد عبرين وكلباتا وبدنايل وكفريا وراس نحاش؟ لماذا لا أعود الى أهلي الطيبين في دده ومنطقة القلع وأميون وكوسبا وبشمزين وبطرام وبترومين والنخلة وقلحات الذين أحيا بينهم فكأني أحيا في الجنة؟.

طرحت الفكرة على زوجتي، فما مانعت، شريطة ان نتخذ الحيطة ونضع خطة محكمة تقودنا الى السلامة!.

وعدنا الى فرنسيس صالح الذي حملنا في داره أيام الخطر والمحاذير... وغدرات الزمان والإنسان.

وضعنا الخطة وعرضناها على الرجل الطيب، فما تردد في القبول.

كنا نقيم في شارع متفرع عن شارع الحمراء، في ملك جوزف الهندي، في الطابق الأول، مقابل كنيسة الاباء الكبوشيين في الجهة الشمالية. ولدي صباح وبعض اصدقائه يرصدون الشارع الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حيث

يكون الناس في القيلولة والحركة بطيئة. انزل بسرعة البرق لابساً عوينات سوداء وطربوشاً وجريدة «النهار» بيدي، افتحها فور صعودي الى السيارة وأخفي وجهي بين صفحاتها العريضة!.

ونفذت الخطة بدقة هندسية.

الرفيقة ليلى بربر الى جانب خطيبها فرنسيس، أنا وزوجتي والأولاد في الجهة الخلفية... كان ذلك في أواخر آب سنة 1949 أو أوائل أيلول.

انطلقت بنا السيارة، دون ان نلفت نظر أحد وراح فرنسيس ينهب الارض، عن طريق المرفأ، وأنا أضع جريدة «النهار»، بصفحتيها العريضتين أمام وجهي فلا يراه أحد. الى ان بلغنا نفق شكا البترون، في المنطقة المعروفة بالشقعة التي تقبع في قمتها كنيسة سيدة النورية العجائبية. برزت فجأة أمام أعيننا دورية درك على مدخل النفق. لم يضبط فرنسيس أعصابه وانطلق غير ابه بإشارة التوقف التي أشارت بها الدورية.... قلت له استمر فخاف وأوقف السيارة وتراجع. ظننت لأول وهلة أننا علقنا في الفخ فإذا بالدركيين يؤنبان فرنسيس ويسألان الى أين أنتم ذاهبون فيجيبهم الى الارز، ويفتح صندوق السيارة الخلفي فإذا هو مليء بالأغذية والمشروبات والفواكه. صدق الدركيان، بينما كنت أهم بالنزول لتفتيشي، فإذا بهما يأمران بأن نكمل السير دون الاطلاع على هوياتنا... هكذا ننجو كل مرة بما يشبه الأعجوبة!.

لم يحدث شيء يذكر في الأيام القليلة، التي قضيناها في بتعبورة سوى ان الأحكام التي كانت قد صدرت بحق القادة القوميين من المحكمة العسكرية لم تكن قاسية إلا بحق جبران جريج الذي كان موقفه صلباً ومتحدياً... الباقون حكموا بالسجن سنة أو سنتين مع وقف التنفيذ ما عدا انعام رعد وفؤاد أبو عجرم، الذين حكما سنة سجن مع التنفيذ!.

صممت على العودة وتسليم نفسي للقضاء، بواسطة صديقي النقيب حبيب بريدي. الا أنني قبل ذلك قررت ان أقابل جورج عبد المسيح في مخبأه بين العبادية وبيت مري.

عندما عدت الى بيروت كان استجواب القائد الشهيد كمال جنبلاط

للحكومة اللبنانية بواسطة مجلس النواب قد نشر في الصحف، فهز الرأي العام من جديد وأعاد الى الناس روح النقمة والغضب على الحكام وبصورة خاصة في صفوف المعارضة لعهد الخوري....

لا يمكن لأحد ان يتصور القيمة المعنوية والسياسية لاستجواب كمال جنبلاط الا من ينتقل بخياله الى تلك المرحلة. لقد شعر الناس أنه لا يزال في لبنان رجل لا يهاب الموت، يقول كلمته في وجه الطغاة ولو كلفته دمه. لقد انتصر كمال جنبلاط للحرية كما انتصر لكرامة الانسان وللعدالة والقانون في الوقت الذي كان يعلن فيه ان الحركة السورية القومية الاجتماعية كانت أعظم حركة في تاريخ الشرق الادنى في العصر الحديث، الى حد ان راح بعض القوميين يتصورون بأن كمال جنبلاط قد يدخل الحزب ويحل محل انطون سعاده في زعامته! طبعاً لم يخطر لي أنا شخصياً هذا الخاطر ولا لباقي القياديين، لأن الحلول محل سعاده له شروط منصوص عليها في الدستور، فالمجلس الأعلى هو الذي يمنح رتبة الأمانة وهو الذي ينتخب رئيس الحزب!

ارتفعت معنوياتي على أثر قراءة الاستجواب فكتبت رسالة الى كمال جنبلاط، أرسلتها على عنوان منزله قرب المتحف، أعيدت الي على عنوان مكتب خال زوجتي المحامي فهيم خوري وهو صندوق البريد رقم/ 899/ الذي لا يمكن ان أنساه.

وكان أيضاً من أسباب رفع معنويات القوميين الاجتماعيين، وثقتهم بأنفسهم وبحزبهم - رغم الهزيمة وغياب المعلم - ما كان يكتبه الأمين محمد يوسف حمود أحد كبار ادباء النهضة نثراً وشعراً في جريدة «كل شيء» ثم ما كان يكتبه محمد البعلبكي نقيب الصحافة حالياً بعد ان كان أصبح عضواً سرياً على ما أذكر، منتقلاً من حزب النداء القومي، الى الحزب السوري القومي الاجتماعي، بعد مناقشات موسعة وحادة ومعقدة مع الزعيم مباشرة. وأحياناً بحضور الشيخ عبدالله العلايلي، كبير الأدباء اللبنانيين الشباب. ومن الظلم للأستاذ غسان تويني الا نعيد ذكر الأثر البالغ الأهمية لمقالته: «انطون سعاده المجرم الشهيد» تلك المقالة التي سببت له ثلاثة أشهر بالسجن!. لقد كانت شهادة من أهل البيت. صحيح ان غسان سلك فيما بعد طريق الحزب وأعيدت

له حقوق العضوية سنة 1951، نظراً لهذا الموقف الشجاع والمؤثر وانتخب نائباً عن الحزب في بيروت والشوف ومن بعد ان تخلى عنا، الا ان غسان رجل فكر، وعندما يدخل في رحابه لا يرى نفسه الا قومياً اجتماعياً رغم ما تسببه له هذه الحالة من أزمات في علاقاته مع محيطه! ان عقيدة غسان ـ بنظري على الأقل ـ لم تتغير ولكن من ضمن تكوينه الأصلي في خضم السياسة اللبنانية، لا ننسى أنه ابن جبران تويني، الوزير الوطني الذي كان يقاوم الانتداب والذي أصبح فيما بعد وزيراً.....

ان الذي يحاكم غسان تويني ـ وهو الذي أوصل دار النهار الى ذروة عزها ـ دون الرجوع الى مقام والده في السياسة اللبنانية، ودون الرجوع الى اللعبة السياسية الفريدة على الأرضية اللبنانية، يظلمه كثيراً. انه من ألمع الصحفيين اللبنانيين واجرأهم وأبلغهم وإذا كان تخلى عن الحزب، فأنا أراهن أنه كرجل فكر وموقف ومعرفة لا يمكن أن يتخلى عن عقيدته رغم اعتقاده انها تدخل في اطار «اليوتوبيا» Utopie لجهة امكانية تحقيقها... ولقد كان هو نائب للحزب وبرئاستي للشعبة السياسية اللبنانية، ثم برئاسة فؤاد أبي عجرم، صاحب موقف. لقد كان يقترح علينا بواسطة الاقنية الحزبية مثلاً سنة 1951، كما كان يفعل قبله صلاح لبكي، ان نحصر جهودنا في لبنان لتحقيق المبادىء الاصلاحية، والانطلاق منه لتحقيق المبادىء القومية الاجتماعية.

ما لنا ولكل هذا ونحن نكتب عن الحزب. أعرف أنه شرود. ولكن غسان تويني وجريدة النهار ـ التي اعتبرها حزباً قائماً بذاته بوجود غسان والمرحوم ميشال أبو جودة فيها ـ لا يمكن المرور بهما في كتاب مثل هذا الكتاب دون بعض التفاصيل ودون بعض الخروج على المألوف!.

إذن عدت الى بيروت، بعد ان طردت اليأس وأشباهه، وبعد ان خرجت من غمرة الحزن والأسى والتمزق، لأبحث في مصير الحزب. كان القادة بأكثريتهم في السجن. لم يكن فالتا الا جورج عبد المسيح بطل معركة سرحمول والذي كانت تلاحقه السلطات اللبنانية بشراسة، لأنه برأيها قاتل النقيب يوسف شمعون. رحت أسأل متحرياً عن مكان وجوده. فإذا بالحظ يؤاتيني إذ جاء يسأل عني الرفيق القديم يوسف شخطورة... قلت له اني سأذهب معه الى بيت

مري شريطة ايصالي الى مخبأ عبد المسيح! قال علي ان أسأله أولاً. قلت نذهب معاً وأنا واثق من قبوله.

وهكذا كان.

خرجنا رغم معارضة زوجتي العنيفة، في الظلام الدامس. يوسف شخطورة من رجالنا الاذكياء المجربين. ما كان يلبي في الساعات الحرجة الا هو، تماماً كما هي حالنا مع الرفيق جورج عنتر في فنزوالا كلاهما من رجال الساعات الحرجة.

كانت الرحلة موفقة، فلم نتعثر ولم يعترضنا معترض. وصلنا الى بيت مري وحصلنا على بركة أم بطرس وأبو بطرس والدي الرفيقين يوسف وبولس. والتقينا في الليلة نفسها بالرفيق نجيب جمال الدين الذي كنت استأجر عنده يوم كنت اصطاف في بيت مري! كان هذا الرفيق مع الرفيق أمين النجار هما اللذان يتعهدان جورج عبد المسيح تغذية واتصالات بالإضافة الى الرفيق شخطورة. عرضنا الأمر على الرفيق الأول فاستمهلنا لصباح الغد...

وجاء في الصباح ليبلغنا أنه اتفق مع جورج عبد المسيح على موعد للقاء ليل ذلك اليوم بين العبادية وبيت مري.

لنقلها بصراحة: كانت أنظارنا جميعاً، كقادة وكأعضاء وحتى الكثيرين من المواطنين، متجهة الى من كانت تسميه الصحافة اللبنانية (وحيد الاذن) أي جورج عبد المسيح، ليكون رئيساً للحزب، باعتباره العضو الاول، والرفيق الأول والقادر، رغم اني شخصياً كنت من أكثر المقربين اليه، والذين درسوه في العمق، وكنت قد كتبت رأيي فيه في مذكراتي، اذ قلت انه يبلغ أغوار الفيلسوف وآفاق الشاعر، وبين هذا وذاك هو جردي أرعن.

رغم كل ذلك، كنت أؤيد ذلك الاتجاه لمعرفتي ان أحداً منا نحن رجال الصحابة تلامذة سعاده وأعوانه الأول ما كان قادراً أحد منا ان يتسلم صلاحيات القيادة، لأننا كلنا كنا منصرفين لأعمالنا الخاصة... فمنا المحامي ومنا الطبيب ومنا الصيدلي ومنا المهندس. عبد المسيح وحده كان يمكن ان يتفرغ للعمل القيادي، ولأنه الأكثر خبرة واطلاعاً على مبادىء وتعاليم الحزب

وإدارته وقادته واعضائه. انه من أوائل أبطالنا ولم يكن متخصصاً في مهنة ما. كان يمكن ان يكون أستاذاً أو متعهداً في التزام ما لا أكثر ولا أقل.

وضعت جدول أعمال لما أبحثه مع جورج. كيف يمكن ان ننقذه من الطوق الذي هو في خياشيمه. ثم ماذا يمكن ان نعمل لسد الفراغ الذي تركه غياب الزعيم بالجسد. ثم ما رأيه بموقف كمال جنبلاط الذي كان عبد المسيح، كما أعرف جيداً، غير راض عنه بل شكاكاً في نواياه وأهدافه. هل ان موقف كمال جنبلاط التاريخي الجريء الجديد يساعد على تغيير موقف عبد المسيح منه ايجاباً؟ ثم هل ينصحني بالاستسلام والخضوع للمحاكمة ليكون مصيري كمصير باقي القادة الذين حوكموا وحكموا أحكاماً خفيفة؟ ماذا يمكن ان تكون اراؤه في وضعنا الجديد بعد غياب الزعيم؟

انتظرنا الى ان أصبحت الساعة العاشرة ليلاً. كان علينا ان نجتاز أحراجاً قطعت أشجارها حديثاً. وان نتسلق صخوراً وان نتعثر ونقع وننهض. لم يكن الليل مضوياً بقمر وضاح الجبين!... كان القمر في ضمير الليل. كنا في ظلام دامس.

وانطلقنا على بركات الله ـ كما يقولون عندنا في القرى ـ وللتاريخ أذكر اني في حياة التواري التي قطعتها سنوات طويلة،. لم الاق ما لاقيت من متاعب في تلك الليلة الليلاء. ولكن كان كل شيء هيناً علي لملاقاة عبد المسيح الذي كان رفيقي في أيام الشدة ومن أعز اصدقائي في الحزب، هذا الى جانب انه حارب بطلاً في سر حمول، ونفذ أوامر سعاده بحذافيرها مستهيناً بالموت، رغم تقوّل بعض القيادة ان تصرفه في سرحمول لم يكن بطوليا.

ووصلنا أخيراً سالمين الى المخبأ دون ان نشعل عود ثقاب لنتلافى قوات الأمن والجواسيس التي كانت تطوق المنطقة. عانقته عناقاً بعد ان هنأته بالخلاص من قبضة الطغاة. وكانت المفاجأة بعد ان بدأ جورج عبد المسيح بالتذمر من تصرف الزعيم والرفيقة فايزة انتيبا معه.

كيف كان يجوز ـ يقول لي جورج ـ ان تقام حفلة فؤاد لطف الله، التي أقيمت في بيت سعاده.... (فؤاد لطف الله كان رفيقاً ثرياً من سان باولو ـ

البرازيل ـ عاد حديثاً وهو صديق شخصي للزعيم عدا انه من أطيب رفقاء سان باولو. وقد ارتأى الزعيم اقامة حفلة عشاء على شرفه دون ان يدعي اليها جورج عبد المسيح، فيما كنت أنا وباقي القادة حوله).

ثم، انتقل من التذمر الى التخوف: «الا يمكن ان تكلفني الأمينة الأولى ومجلس العمد عندما يجتمع بقتل رياض الصلح وبشارة الخوري انتقاماً للزعيم؟ ثم كيف يمكن ان أنجو من هذا المكان وأتوجه الى دمشق، حيث يحميني أديب الشيشكلي كما يحمي عائلة سعاده؟... كيف يمكنني الافلات؟».

ذهلني، أنا القادم من بين الاشواك وأرومات السنديان الجارحة والصخور والحفر، لأتزود من عبد المسيح بالقوة والشجاعة ان يكون انصرف ذهنه الى تلك الأمور؟ ان يعتب على الزعيم؟ ونحن محترقون لوعة على فراقه. انه لم يدعه الى العشاء مع الرفيق فؤاد لطف الله فيما دعا القادة الآخرين؟.

ثم رحت استطرد لأوجه الحديث في وجهات مفيدة: «ما رأيك باستجواب كمال جنبلاط؟» قال: «انه يعمل لمصلحته، ويريد ان يربح الحزب لسياسته!».

قلت: «لكنه يعرض نفسه للاغتيال، كما اغتيل والده من قبله بهذا الموقف التاريخي الشجاع؟». أجاب: «ان الأيام ستثبت لك صحة رأيي». قلت: لقد وجهت له رسالة شكر». قال: «لا بأس ولكنك ستندم عليها».

كان هذا الحديث بحضور يوسف شخطورة كما أظن. لا أذكر اذا كان تركنا منفردين.

هنا رأيت ان أطرح مسألة تهريبه الى الشام فقلت له: «لا أرى موجباً لتسليم نفسي الى المحاكمة قبل ان تصبح أنت في دمشق ليطمئن قلبي». فقال: «كيف العمل».

هنا دعونا الرفيق يوسف شخطورة للاشتراك في البحث وأكملنا: «كنت قد عرفت ان الزعيم انتقل الى الشام تهريباً، فيمكن اذن ان نهربك اليها، بنفس الطريقة. الرفيق يوسف يتحرى وينظم وينفذ. انه أقدرنا على استنباط الوسائل خصوصاً بقيادتك وحسن تدبيرك».

فتعهد عندئذ، الرفيق يوسف بتدبير الخطة وتنفيذها.

أذكـر في تلك اللحظة، كـمـا رواها لـي يوسف، انه كـان مـصـمـمـاً ان يقـود سـيارته بنفسه استكشافاً للطريق. ثم ان يضع جورج عبد المسيح في شاحنه. وان يتخذ احتياطات للنفاذ من المصنع الى الحدود السورية.

قلت اذن لجـورج: «أنا عـائد الليلة الى بيـروت، او غـدا باكـراً، ولن أسلم نفـسي للمـحـاكمـة الا بعـد ان تكون أنت أصبحت في دمشق في حمى النظام الجديد الذي نشأ بعد الانقلاب على الخائن حسني الزعيم!».

... في بيروت، أشرت على بعض الذين اتصلوا بي ممن تولوا ادارة الحزب في حالة الفراغ التي نشأت بعد استشهاد سعاده، بأن يترجموا استجواب القائد الشهيد كمال جنبلاط الى اللغة الفرنسية وان يتوسلوا كل الوسائل لنشره في جرائد اوروبا وأميركانيا....

ورحت أنتظر بفارغ الصبر، خبر نجاة عبد المسيح الذي تعهد كما أذكر بأن يقطع الطريق من ضهر البيدر عبر حمانا مشياً على الاقدام كعادته في سالف الزمن... أجل كان يقطع الجبال وحيداً ولو كانت تقتضيه الساعات الطوال والمشقات المضنية. ورحت أنتظر.

بعد ثمانية وأربعين ساعة فقط، جاءني يوسف شخطورة، عيناه بلون الدماء القانية، يتثاقل في مشيته، جائعاً، منهكاً... لقد وصل عبد المسيح بالسلامة! 48 ساعة يوسف شخطورة لم تغمض عيناه ولا امتلأ بطنه.

رحت أقبله وأشكره. كانت تلك مأثرة. عبد المسيح على الأقل، يتعهد الأمينة الاولى وبناتها، ثم يعرف كيف يتصل بفروع الحزب في الوطن وعبر الحدود. كان هو ونعمه تابت وجبران جريج ومأمون اياس أقدرنا في العمل الاداري، لأنهم تسلموا بغياب الزعيم وبوجوده أضخم المسؤوليات في طول البلاد وعرضها من آخر حدود العلويين الى آخر حدود الجزيرة وجبل العرب....

عندئذ، وقد اطمأن قلبي، قررت المفاوضة والاستسلام. كانت زوجتي هي وسيلتي الوحيدة للاتصال بالخارج... وكان عليها ان تقابل النقيب بريدي للاتفاق معه على موعد عملية الاستسلام!.

النقيب حبيب بريدي ـ من زحلة ـ رجل عسكري ولكنه انسان كبير. نقل

الي الكاهن الذي عـرّف الزعـيم انه هـو الذي أطلق على رأســه رصـاصـة الرحـمـة... كان ذلك من أسبـاب قـراري ان أستـسلم بواسطته، لعله سـمع من الزعـيم وصيـة او كلمة لأتلقـفـها وأنقلها في الوقت المناسب الى المسؤولين في الحزب.

وذهبت جورجيت الى المحكمة العسكرية حيث كان يسكن وقابلته وزوجته وولده وعـادت الي بسـرعـة تقـول: «انه يستـقبلك يوم الأحـد، ويسلمك صبـاح الاثنين وتكون جلسـة محاكمتك في أقرب وقت، لقد قال لي انه أوصى الشرطة بك، حتى إذا صادفوك ـ كما جرى على طريق المطار ـ لا يتعرضون لك بسوء». فهمت عندئذ ما كنت أخمنه تخميناً.

كنت أعـرف لـوازم السـجن، فلم أنس واحـدة منهـا الا الفـراش، فـقـد كنت واثقاً ان الملازم كمـال الزاهد سينقلني فور معـرفته بوجودي الى المستشفى... وقـد شاءت جـورجيت ان أسلم نفـسي في مـوكب عـائلي فجـمعت الأولاد كلهم ليكونوا في وداعي.

كان لقائي مع النقيب مؤثراً. لقد عـانقني بشوق ولهفة وعيناه محـمـرتان، كـمـا عـينـا يوسف شـخطورة العـائد من رحلته مع عـبـد المسيح... قـال لي وهو يعـانقني: «أنظر لا أزال أبكي انطون سـعـاده وأتلوع عليـه... أجل أنا أطلقت رصـاصـة الرحـمـة على ذلك البطل العظيم. سـامـحـه الله لماذا قـام بتلك الثورة الفاشلة؟ لماذا ارتكب تلك الخطيئة المميتة؟».

وأمـضـينـا طوال ذلك اليـوم والليل نتـحـدث عن سـعـاده. لم يـتـرك النقـيب حبيب بريدي وسيلة من وسـائل التكريم الا وقدمها لي... لقد أوصاني سعاده ـ قال لي ـ وصية سأسعى للذهاب الى دمشق فأبلغها الى أرملته. قلت: «اكتبها في رسالة مقفلة وسلمها الى زوجتي». قال لي: «الوصية مقدسة لا يمكن ان أفضي بها الا الى زوجته وحدها....» ومات حبيب بريدي بسكتة قلبية دون ان يبلغ الأمينة الأولى مضمون الوصية!...

سلمت يوم الاثنين باكراً الى النيـابة العـامة. كـان رئيس القلم فـيـهـا، أخي وصديقي ميشال أبو شقرا، الذي مات أيضاً بسكتة قلبية كما قيل لي حزناً على

ولده الضابط الذي استشهد في معركة سنة 1973 مع الجيش عندما تصدى للعدو الاسرائيلي.

المحكمة العسكرية ـ ومكانها حيث هي الآن في شارع فؤاد الأول مقابل سباق الخيل ـ كانت محكمتي والقضاء. لا يمر اسبوع دون ان أرافع وأدافع أمام قوسها الرحيب. الكتاب والحرس والشرطة والموظفون كانوا يحتفون بي كأصدقاء....

في لحظات كان ميشال أبو شقرا قد أنهى المعاملات القانونية، وكنت أودع النقيب وعائلتي لأتوجه الى سجن الرمل... لا أذكر اذا كان النقيب محمد جواد لا يزال هنالك؟

النقيب محمد جواد رغم كل مآخذنا عليه كان يتظاهر لنا بالمحبة والأقدام ولكنها كانت مظاهر. في سريرته كان يكرهنا كرهاً شديداً... لا أنسى أنه نظم لي سنة 1935 عندما كنت ضيفه مع سعاده في سجن الرمل اثر انكشاف أمر الحزب قصيدة يرثى بها لحالي اني سجنت ليلة عرسي! كما لا أنسى كيف جاء يبلغ القوميين السجناء سنة 1949 بإعدام سعاده ساخراً وكيف تصدّى له الأمين أديب قدورة يريد صفعه!.

المهم لم يكن صديقي الملازم كمال الزاهد في السجن ذلك النهار، فأدخلت الى البناية رقم /3/، ودخلت من جديد الى عالم المغضوب عليهم من الله. من حسن حظي كان أحدهم يعرفني. يكفي ان تكون محامياً ليتحلّق حولك السجناء، فيعرض كل واحد أمامك دعواه لتحكم فيها.... هذا الذي يعرفني قدم لي فرشته النظيفة وتدبر أمره مع سجين آخر حتى السجناء القتلة أو السلابين فيهم شهامة وإنسانية...

في الصباح الباكر كان الملازم كمال الزاهد على باب غرفتي: «الا تزال الأوجاع في معدتك». قال لي... فهمت انه يريد ذريعة لنقلي الى المستشفى فأجبت بالإيجاب. قال تدبر حوائجك سأرسل من ينقلك فوراً.... ولم تمض دقائق الا وكنت مع الامناء والرفقاء... في المستشفى كان هنالك فؤاد أبو عجرم وعبدالله سعاده وإنعام رعد وأديب قدورة وجميل ذبيان من ضباط الدرك

القوميين... وكان هنالك محمد شقير من ضحايا الحرب العبثية القذرة التي بدأت سنة 1975 .

حياتنا في المستشفى كانت حياة عائلية. كلنا في غرفة واحدة ننام على أسرة وتأتينا الأطعمة من الخارج... وكانت القهوة وأحياناً المشروب يهرب الينا عبر قناني الأدوية من صيدلية قدورة!.

لم نكن نشعر أننا في السجن. وكانت الأخبار تأتينا من الخارج بأن الفرج قريب.

بعض الذين كانوا في المستشفى شاهدوا سعاده ليلة اعدامه.

محمد شقير القومي العربي قال لي: «لم يعد بيننا وبينكم خلافات جوهرية انها خلافات فقهية». محمد شقير كان في حزب النداء القومي ولا أدري سبباً لسوقه الى السجن وهو الذي كان من أقرب المقربين لرياض الصلح.

جرت المراهنة التي مر ذكرها بيني وبين الأمين انعام رعد أحد نوابغ حزبنا، والذي صعد الى كرسي الرئاسة بمقدرته وعلمه وصموده ونشاطاته في تدبر أمره مع الأمناء القدامى والجدد.

وعينت جلسة محاكمتي على ما أعتقد في 23 ايلول سنة 1949...

كان الباقون قد حوكموا... وحكموا... في شهر آب المنصرم، وكان قد حوكم قبلي مباشرة الامينان أسد الاشقر ومصطفى عبد الساتر.

وكان من يحاكمون أمام المحكمة العسكرية يحشرون في غرفة موازية للمحكمة، قرب مراكز شرطة الجيش. وجودي فيها ذكرني بأيام السجن القاسية. كانت الروائح الكريهة تملأ أنوفنا وكان ضيق المكان خانقاً... وكنا في أيلول والحر لا يزال يفعل فعله، عرقاً صبيباً وعبئاً ثقيلاً.

ونودي علي.

فإذا بي أمام المحكمة عينها التي حاكمت سعاده يرأسها صديقي المقدم أنور كرم (توفي في باريس سنة 1963).

كان المحامون الذين تطوعوا للمرافعة عني كثيرين. آسف اني لا أذكر اسماءهم كلهم... كان على رأسهم خال زوجتي فهيم خوري الذي كان قد انتخب

عضواً في مجلس النقابة، وكان حسني أبو ظهر والأديب الشاعر ميشال عقل الذي أصبح فيما بعد نقيباً للمحامين، والأستاذ الدكتور ادمون نعيم الذي أصبح حاكم المصرف المركزي والمرشح لرئاسة الجمهورية اللبنانية وسواهم وسواهم.

وقد حضرت المحاكمة زوجتي وأولادي الصغار ضياء وحنان وعاطف وضحى. أما صباح فكان في المدرسة وكان خالها الدكتور نسيم الخوري العائد من بوسطن ـ ماس بعد غياب أربعين عاماً حاضراً ليعرف مصيري بعد ان كنت أكرمته عند وصوله قبل حوادث الجميزة!

وبدأت المحاكمة.

كان في كرسي النيابة العامة مفوض الحكومة الاستاذ ميشال تلحمه.

وكان صديقي القاضي الاستاذ محمود نعمان قد تغيب قصداً أو غيب لمعرفة المحكمة بالصداقة التي تربطنا... تغيب بعد ان أوصى غبريال باسيلا بي قائلاً: «يجب انقاذ عبدالله قبرصي بأي ثمن!» تلك هي الصداقة تعرف حقيقتها في أوقات الشدة لا في أوقات الرخاء. في أوقات الرخاء كل الناس اصدقاؤك. أما في أيام الشدة فقلة هي التي تبقى في الغربال.

لا أذكر باقي القضاة ولكني أقدر انهم أنفسهم الذين حاكموا سعاده لأن الدورة التي عينوا لها لا تنتهي الا بانصرام العام أي في آخر سنة 1949(الأحدب ـ السمراني ـ دون ريب).

كنت في قفص الاتهام، أنتظر ما يطرح علي من اسئلة بفارغ الصبر. ولكني مصمماً ان أهاجم اذا هوجمت أو هوجم حزبي. كان ذلك أقل ما يطلب مني، أنا من رفقاء سعاده الأول، بعد ان علمنا سعاده بموته كما علمنا أبان حياته، ان نكون شجعاناً في مواقف العز... ألم يقل: «الحياة كلها وقفة عز فقط».

وكان السؤال الأول، بعد ان أخذت هويتي، يطرح علي كما يلي:

«لقد عرفناك في هذه المحكمة محامياً بارعاً، والمفروض انك تهدي الناس سواء السبيل لأنك مسموع الكلمة، فكيف تسمح لنفسك بالتبشير بالأمة السورية وأنت لبناني وفي لبنان السيد المستقل؟».

(استميح القارىء عذراً إذا ذكرت بين هذين القوسين، اني بعد أربعين سنة

على المحاكمة لا أذكر بالضبط الكلمات التي ذكرت مني او من الرئيس كرم. ان ما أذكره هو ما لا يزال عالقاً بالذاكرة من خلاصات)... قلت في جوابي:

«حضرة الرئيس.....

أنا رجل عقيدة مبنية على العلم الاجتماعي وأصول نشوء الأمم. اني مؤمن بوجود أمة سورية لا أمة لبنانية. وأنا لبناني بهويتي ولكن سوري بعقيدتي، علماً بأن لبنان ليس وحده جزءاً من الأمة السورية بل العراق هو أيضاً جزء، وسوريا هي جزء آخر وكذلك فلسطين ولبنان وحتى الكويت وقبرص. وأنا مؤمن ان عقيدتي لا تؤذي لبنان، لأن المقصود بلبنان ليس اسمه وليس جمال بحره وجمال جباله وطيب مناخه، بل الانسان في لبنان. ان عقيدتي السورية القومية الاجتماعية هي لصالح اللبنانيين وكل الكيانات الأخرى، لأنها باتحادها، والاشتراك في الحياة الواحدة، تصبح قوة كبرى في هذا العالم العربي، وتزدهر مواردها وحياتها الاقتصادية، وتتسع آفاق تطورها في سلم الحضارة، كما تتسع أمام المواطن اللبناني مجالات العمل لحياة عزيزة كريمة، فلا يضطر للهجرة الى بلاد الله الواسعة كما هي الحال الآن والتخلي عن وطنه».

ودخلنا في نقاش هام مع الرئيس كرم.

ثم طرح علي سؤالاً آخر:

«ما رأيك بالحكم الذي صدر على انطون سعاده بالاعدام؟».

فقلت:

«حضرة الرئيس....

أنا رجل قانون. لا يمكنني أن أحكم على صواب أو خطأ الحكم الذي أصدرتموه، قبل ان أطلع على الملف وأدرس ما فيه لأرى إذا كنتم أحسنتم تطبيق القانون أم أخطأتم. قبل ذلك لا يمكنك ان تنتظر مني جواباً...».

فاقتنع الرئيس وانتقل الى سؤال آخر:

«ما رأيك بموقف الجيش اللبناني في قمع الثورة؟».

قلت:

«ان الجيش اللبناني أثبت انه جيش متماسك. لقد قام بواجبه خير قيام. فالجيش وجد لحفظ الأمن وسلامة البلاد... ولكن المهم ان ثورة سعاده لم تكن للتخريب والتدمير وتسليم لبنان الى الشام، بل كانت ثورة اصلاحية من أجل التقدم والتطور. وفي كل ثورة تقع الضحايا، سواء من بين الثوار او من بين رجال الأمن المؤتمنين على النظام!...».

ماذا تطلب:

«اطلب العدل....».

هنا وقف الخال المحامي فهيم الخوري ليدافع عني... فبدأ مرافعته بالاشادة بي كمحام، ثم انتقل الى توسل المحكمة للتخفيف عني، نظراً لأني أب عائلة مؤلفة من خمسة أطفال وأنا معيلهم الوحيد.

ضربت بيدي على خشب قفص الاتهام وصحت بملء حنجرتي:

«اني أرفض هذا الدفاع ـ أنا لا أطلب رحمة بل عدلاً ـ ....».

فاصفر الخال فهيم ولكنه لم ينسحب، عندها تناول الكلام الدكتور ادمون نعيم ومن بعده الاستاذ حسني أبو ظهر.

ثم كرر الرئيس الطلب موجهاً الي الكلام:

«أستمعت الى مرافعة زملائك، فماذا تطلب».

قلت:

«اطلب العدالة».

فكان بالفعل الاستاذ حسني أبو ظهر والدكتور ادمون نعيم قد عرضا ما نسب الي من اتهامات عرضاً موضوعياً. فلم أعترض.

واختلت المحكمة للمذاكرة...

ثم بقينا نحن المتهمين محشورين في غرفة الانتظار الى ان ناداني المباشر وأبلغنا كاتب المحكمة خلاصة الأحكام.

كان الخال فهيم قد وعد من قبل رياض الصلح بأني سأحكم مع وقف التنفيذ إذا وقفت موقفاً مرنا كما جرى لبعض القادة قبلي. فإذا بالحكم سنة مع التنفيذ...

سررت أنا بموقفي، لأنه موقف عز....

ولكن الخال فهيم وجورجيت حزنا حزناً شديداً، أذكر ان الخال الدكتور نسيم دس في جيبي 25 ل.س. قبل ان ينقلني الدرك الى سجن الرمل، لأعود الى رفقائي المحكومين مثلي سنة سجن مع التنفيذ!.

لا أختم قبل ان أذكر ماذا فعل صديقي الاستاذ محمود نعمان الذي توفاه الله منذ مدة والذي كان رئيساً لمحكمة استئناف لبنان الجنوبي.... لقد حضر في اليوم التالي الى المحكمة وقابل القاضي غبريال سابيلا، وبصق بوجهه قائلاً: «أهكذا تعامل عبدالله قبرصي؟».

ما أهون السجن وأنت مع رفقائك، في مكان نظيف.

ثم ما أهون السجن إذا لم يطل...

ثم ما أهون السجن، إذا كان حراسك مهذبين، وإذا كانت كرامتك كإنسان محفوظة.

ثم ما أهون السجن علينا بعد ان قدم سعاده دمه... ما هو السجن وكل متاعبه وشقائه أمام ان تعطي دمك للأمة!...

وعاد الخال فهيم، الذي كان يهتم بي اهتماماً خاصاً لأننا كنا نعمل في مكتب واحد، ولأنه خال جورجيت التي رباها هو وشقيقه ابراهيم خير تربية... عاد الي يحمل طلب عفو كان قد وعده رياض الصلح بإصداره اذا أنا وقعته.

فعلاً كان الطلب موجهاً الى رئيس الجمهورية ومختوماً بالعبارة التالية:

«اني اتوسل من فخامتكم بإصدار عفو خاص عني».

رحمة الله عليك يا خال فهيم كم احتملت مني وعني.... قرأت هذا الاستدعاء من وراء الاسلاك، ورحت أمزقه نتفاً نتفاً وارميها أرضاً قائلاً: «أنا يا خالي فهيم لا أتوسل لمخلوق مثلي وان يكن رئيساً للبلاد، أنا أتوسل لله العلي القدير وحده!.... ومنه التمس العفو لا من سواه. من سواه أطلب لا التمس!».

فزعل الخال فهيم وعاد أدراجه... عذبته فعلاً... ولكن بيني وبين رضى الخال الحبيب ورضى ضميري وعنفواني فضلت الضمير والعنفوان.

غريب أمري بعض الأحيان. لا أحب ان أشعر بمركب النقص تجاه زملائي في قيادة الحزب. لقد أقمت حفلة لرفقائي وأصدقائي في عمان سنة 1962 حيث كنا قد لجأنا بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ابتهاجاً بالحكم عليَّ بالاعدام. لو حكمت بالسجن المؤبد لما أقمت الحفلة ولقبعت حزيناً في داري. صحيح اني كنت معارضاً للانقلاب في آخر مراحله ولكني كنت من الدافعين اليه عندما قررناه. غيرت رأيي فيما بعد، ولكني كنت في أساسه. وهكذا في محاكمات 1949 . ولقد كنت في القيادة، ولم يكن من الحق والعدل ان يكون الحكم علي أخف من الحكم على باقي الزملاء!.

المهم ان ظروف البلاد السياسية كانت مؤاتية للبحث في العفو عنا نحن المحكومين بسنة سجن. كان العفو يبحث جدياً. تسلم قضيتنا النائب بهيج تقي الدين. وقد بذل بالفعل جهوداً جبارة للحصول عليه. في 18 تشرين الأول صدر عفو عام عفى بموجبه كل المحكومين بسنة حبس وما دونها... فإذا بنا نحن المحكومين بسنة، نخرج الى رحاب الحرية. أذكر اني كتبت عند خروجي مقالة تلقيت عنها ثناء حتى من الشيخ عبدالله العلايلي أحد امراء الكلمة في لبنان والعالم العربي. كان عنوانها «أنا عائد من السجن». كتبتها في جريدة «كل شيء» التي كانت بفضل محررها محمد بعلبكي وصاحبها سعيد سربيه الجريدة المفتوحة الصدر لنا.

ولكن أكثر ما أذكر كيف تجمع أولادي عند باب سجن الرمل مع زوجتي الحبيبة وشقيقتها ليلى وفرنسيس صالح ينتظرون انهاء معاملاتي... وخروجي من الباب الحديدي الغليظ... لا يستطيع الانسان ولو كان شاعراً مثلي ان يجد الكلمات للتعبير عن مشاعره ووصف مشاعر حبيبته وأطفاله وهم يستقبلون العائد من وراء الأسواء الذي كانوا ينتظرون له مصير انطون سعاده بالذات في عهد المظالم! تسابقوا الي كالعصافير تزقزق طالبة من أمها ان تنقل الى أفواهها ما تحمله هي في منقرها من حبوب....!.

لا تزال زقزقاتهم في أذني بعد مرور أكثر من أربعين عاماً على الواقعة... صباح كان قد أصبح مراهقاً وضحى كذلك، أما عاطف وضياء فطفلان.... وحنان رضيعة!.

كانت فرحتي وفرحة الأهل والرفقاء والزملاء والاصدقاء كثيرة اني خرجت سالماً معافى... كانت المخاطر كبيرة فإذا بالفرحة كبيرة، ولكن الفرحة، ككل فرحة من بعدها، كانت خليطة بالغصّات. هل يمكننا أن نفرح فرحاً حقيقياً بعد مصرع المعلم.

عدنا الى حياتنا المهنية الرتيبة كالمعتاد. كانت الحكومة قد أصدرت قانوناً باعتبار العمل في الأحزاب المحلولة جناية الحد الأدنى للعقوبة فيها ثلاثة أعوام أشغال شاقة! ومع ذلك، فإننا أقدمنا على الاستمرار. لم تعد فقط قناعتنا ان عقيدتنا هي طريق الخلاص صرنا كلنا نشعر ان في رقابنا مسؤولية دماء سعاده والشهداء الأبرار!.

وكما ذكرت في الجزئين السابقين من هذه الذكريات، كانت العائق لانطلاقي الكلي في العمل الحزبي، وفي الاضطلاع بمسؤولياتي القيادية اضطلاعاً حسناً، كانت العائق زوجتي الحبيبة وعائلتي الصغيرة التي لا معيل لها سواي... اذن لولا كانت لدي الامكانات المادية المالية، لما اضطرت زوجتي الى ان تكون العائق، ان تكون المانع أحياناً من العمل الحزبي. من أين نأكل، من أين نلبس؟ كيف نعلم الأولاد؟ كانت ذرائعها المحقة دائماً هذه الذرائع؟.... وكنت أنقلها الى سعاده فيتأفف ويقرعني! ذلك الواقع المر كان دائماً سبباً لخلافاتي مع زوجتي ومع سعاده. أعز مخلوقين على قلبي في حياتي!... تاريخك في الحزب كان يقول لي المعلم هو الاهمال. فليتأمل القارىء كم كنت أجاهد، هنا وهنالك، وفي رحاب قصر العدل وبين جدران مكتبي لأحفظ ماء الوجه، لأظل قادراً ان أرضي الشخصين اللذين كنت أحب حتى العبادة!. انطون سعاده وجورجيت أيكون هذا الجهاد اهمالاً؟.

ها ان سعاده غاب عنا بالجسد. هل غاب حقاً!....

كانت الرصاصات التي خرقت صدره تخرق صدري كل يوم...

كلما طلب الي ان أتحمل مسؤولية ما، ان أنفذ أمراً ما، كان صوت سعاده في أذني..

كان دوي الرصاص يخرق صدره يدوي في وجداني. ألا يتطلب هذا الواقع

ان أتلبس دائماً وأبداً نفسية الجبابرة؟ لقد تلبست ليظل ضميري مرتاحاً، ان تاريخي ليس تاريخ الاهمال، بل تاريخ الكفاح ضد الاهمال... متى كان الكفاح الدؤوب الفاعل في قصر العدل، في السياسة، في التبشير، وفي كل الحقول الفكرية والأدبية، متى كان مثل هذا الكفاح اهمالاً...؟

كنت مرة أخطب في احدى أحب القرى اللبنانية على قلبي ـ كفرنبرخ ـ الشوف، بلدة آل أبي غانم وآل حاطوم والشعراء المناضلين، فجاءني أحد قدامى الرفقاء يقول: «يجب ان تخصص الجزء الأكبر من وقتك لتطوف المناطق القومية خطيباً...» فأجبته: «يارفيقي لم يعد بي حاجة للخطابة في الرفقاء. حضوري وشعري الابيض كجبل صنين ـ كما وصفني شاعرنا الكبير نزير عظمه في احدى رسائله ـ كاف وحده خطيباً بليغاً انه صوتي الجليل. الا يكفي اني في ساحة النضال خمسين عاماً ليخطب شعري الابيض عني؟».

اكتب هذا المقطع لألفت القارىء الى صعوبة المرحلة التي أمامنا.... الخوف البالغ حدود الرعب كان يلف كل الذين شاركوا في القضاء على سعاده جسدياً. كانت روحه تملأ غرف نومهم، سياراتهم، السبل التي يسلكونها. كانوا يعرفون ان حكم الاعدام الذي أصدروه بحقه أصدره القوميون الاجتماعيون بحقهم. القوميون لم يكونوا يحتاجون الى أمر أو الى قرار للانتقام لسعاده. كانوا قد أصدروا أحكامهم، ويترقبون كل في مكانه، متى تحين فرصه التنفيذ...

ثم لا ننسى القانون الذي يعاقبنا بالأشغال الشاقة اذا نحن تحركنا كحزب، بعد ان حلته الحكومة! لقد أصبحنا حزباً محظوراً حزب تابو! الويل لنا قادة وأعضاء إذا نحن وقعنا تحت طائلة القانون!

رغم كل هذا الكابوس الرابض فوق صدورنا والرؤوس كان علينا ان نعمل، ان نتحرك، ان نكون أمام القوميين مشاعل هداية لا مشاعل مطفأة!.

جاءني، بعد خروجنا من السجن وبالضبط في أواخر تشرين الاول سنة 1949، الرفيق فؤاد الشاوي يبلغني ان جورج عبد المسيح والأمينة الأولى ينتظراننا في دمشق، وضرب لي موعداً محدداً لا أذكره بالضبط....

تنادينا، نحن أمناء سعاده، واتفقنا على الذهاب يوم سبت على الأرجح

ليكون أمامنا يومان للعمل، وانطلقنا. فؤاد أبو عجرم ـ كامل أبو كامل ـ أديب قدورة ـ حسن الطويل حمادة ـ نجلا معتوق حداد ـ أنيس فاخوري ـ عبدالله سعاده ـ مصطفى المقدم ـ وعبدالله قبرصي... لنلتقي مع الأمينة الأولى وجورج عبد المسيح، معروف صعب والياس جرجي وعجاج المهتار...

كنت أحمل في جيبي اقتراحاً بأن نركع أمام صورة سعادة وان نقسم يمين الصمود في الحزب ولو اقتضانا صمودنا الموت!.... قال لي الامناء، لماذا الركوع، نقسم وقوفاً، فوقفنا وأقسمنا!.

كان لقاؤنا في منزل الأمينة الأولى حيث كان قد سكن عبد المسيح. ماذا حدث عن ذلك اللقاء؟ الأمينة الأولى، في ثياب الحداد، تستقبلنا بابتسامتها الملائكية، في جبينها طهارة القديّسات، وفي روحها فولاذية التحدي..... ما شعرنا اننا في لقاء مأتمي، بل شعرنا اننا في لقاء مسؤولية. اننا مسؤولون عن الرسالة، عن القضية... فلا لزوم للتأسي ولا للتلوع، اللزوم هو للعهد على المتابعة بنفسية الرسل. نحن أعوان سعاده الأول، نحن الرعيل الأول، علينا ان نرعى كل القوميين، وان نرصّ صفوفنا وصفوفهم... وان نتحمل مسؤولياتنا كاملة بعد ان كنا نلقيها على أكتاف سعاده وحده....

وكان علينا ان نخرج من مأزق دستوري. فالنص الدستوري واضح وصريح: على المجلس الأعلى أن يجتمع خلال خمسة عشرة يوماً من تاريخ حدوث مانع طبيعي أو قانوني يمنع الزعيم من ممارسة صلاحياته... وكان المجلس الأعلى محلولاً بقرار من سعاده نفسه. فما العمل؟ إذا قصدنا أن نجتمع فكيف؟ وان ننتخب فكيف؟ وان نمارس فكيف؟

كنت رجل القانون الأوحد بين امناء سعاده. وكان علي ان أخترع المخرج.

لجأت الى الأسباب الموجبة التي وضعها سعاده بنفسه للقانون الدستوري عدد /7/ الذي أنشأ بموجبه الأمانة والتي تنص على أن أعضاء المجلس الأعلى ينتقون من بين الأمناء. قلت بما أن المجلس الأعلى منحل، فليكن كل الأمناء مجلساً أعلى. لماذا؟.

ان التعاقد في الحزب هو الأساس الذي بني عليه الدستور، انه حل محل

الانتخاب. التعاقد تم بين الزعيم المؤسس صاحب الدعوة، وبين المقبلين عليها. المقبلون عليها صاروا هم الأعضاء، والمؤسس الزعيم صاحب الصلاحيات المطلقة الذي تم التعاقد معه على أن يكون قائداً للحزب مدى الحياة!.

لقد كان من المنطق السليم، وقد استشهد صاحب الدعوة، أحد طرفي العقد، ان يختار الذين تعاقدوا معه قائدهم الجديد، أو المجلس الأعلى الذي كان قد حله، وفقاً لنص المادة /11/ من الدستور. لو أن المجلس الأعلى لم يكن منحلاً، لما كان هنالك فراغ ولما كان هنالك مشكلة.

كان يجب إيجاد هذا المجلس الأعلى. لم يكن بالإمكان دعوة القوميين لانتخابه، لأنه لم يكن قد وضع قانون لهذه الغاية ولأن التنفيذ كان مستحيلاً بسبب الملاحقات المنتظرة في عهد الاستبداد.

كانت فتواي، وقد رحب بها الامناء أجمعون، هي اعتبار كافة الامناء مجلساً أعلى، فاجتمعنا، ورحنا نناقش مشروعاً هو مشروع القانون الدستوري عدد /8/ الذي كان وضعه عبد المسيح وفصله على أساس كونه هو الرئيس الذي سننتخبه!... فتصادمنا وتناقشنا. كان موقفي وقد تبناه الجميع، ما عدا عبد المسيح طبعاً، أنه لا يجوز ان نسلم بطغيان السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية. يجب أن يقوم بينهما توازن عادل ودقيق... يجب أن يكون التشريع الدستوري حافظاً لمسؤولية السلطة التشريعية التي هي في الأنظمة الديموقراطية السلطة رقم /2/ بعد رئاسة الجمهورية...

أما السلطة التنفيذية الممثلة بمجلس الوزراء ورئيس الوزراء فهي السلطة رقم /3/ لتكون السلطة القضائية رقم /4/ ....

اختلفنا عند طرح مشروع عبد المسيح... ولكننا سلمنا بوجوب وضع نصوص ذات طبيعة قانونية وعلمية لكي لا تتسبب بمصادمات لا طائل تحتها في مقبلات الأيام.

يذكر عبدالله سعاده في مذكراته (أوراق قومية)... عن تصادمه مع عبد المسيح وحسم الخلاف بينهما من قبل الأمينة الأولى خلال مناقشات مشروع عبد المسيح.

بقينا نتجادل ـ وبلغ جدالنا حدود المحاكمة أحياناً ـ الى أن توافقنا على جميع البنود ما عدا بند منح رتبة الأمانة، التي كان يصرّ عبد المسيح الا تمنح الا بناء على اقتراح رئيس الحزب، المفترض أن يكون هو لا غيره، فحسمنا الخلاف بأن يكون لكل من اعضاء المجلس الأعلى حق الاقتراح، فلما طبع الدستور، طبع على أساس رأي عبد المسيح الذي كان هو المشرف على طبعه. انه لم يتورع عن التزوير.

والصدام بين المجلس الأعلى وعبد المسيح بدأ من هذه النقطة بالذات! لا يجوز لي وعبد المسيح على حافة القبر ان أسجل مثل هذه الأمور إلا أن الأمانة التاريخية تفرض علي فرضاً هذا الموقف خصوصاً وإني أعلنته لمؤتمر سنة 1969، المعروف بمؤتمر ملكارت. أسجل هذا الموقف بالرغم مني فعلاً.....

وصدر القانون الدستوري عدد /8/ الذي نظم الصلاحيات التشريعية والتنفيذية، وطريقة انتخاب رئيس الحزب وأعضاء ورئيس المجلس الأعلى بتاريخ 16 تشرين الثاني سنة 1951 علماً بأني شبه متأكد ان تاريخ صدوره يجب أن يكون في 16تشرين الثاني سنة 1950 لأنه لا يعقل أن يستمر الحزب بدون تنظيم للسلطات القيادية حتى العام 1951 لأننا كنا قد انتخبنا اعضاء المجلس الأعلى ورئيسه ورئيس الحزب قبل ذلك التاريخ بسنة على الأقل، اللهم إلا إذا كنا اعتبرنا امناء سعاده كلهم مجلساً أعلى ظل يقود الحزب بدون قانون تنظيمي للصلاحيات حتى 16 تشرين الثاني 1951.....!!

على أساس القانون الدستوري الثاني ثمَّ انتخاب اعضاء المجلس الأعلى ورئيسه. فانتخبنا اعضاء للمجلس: الأمينة الأولى ـ جورج عبد المسيح ـ أنيس فاخوري ـ الياس جرجي ـ فؤاد أبي عجرم ـ أديب قدورة ـ حسن الطويل حمادة ـ معروف صعب ـ وعبدالله قبرصي.... أي تسع اعضاء، يخرج منهم كل عام ثلثهم وننتخب مكانهم... وانتخبنا جورج عبد المسيح رئيساً للحزب وفؤاد أبي عجرم رئيسًا للمجلس الأعلى والياس جرجي ناموساً...

وصدرت التعاميم بكل هذه الخطوات التنظيمية ليطمئن القوميون الاجتماعيون بأن حزبهم قادر على تجاوز المحن بغياب المعلم وقادر على سد الفراغ بما أمكن من قدراته وخبراته وتجاربه....

اعـتـراض واحد ورد الى المجلس الأعلى من مـحـام قـومي اجـتـمـاعي كـان اسمه قد بدأ يلمع في اللاذقية هو الأمين عيسى سلامة. كان اعتراضه منطبقاً تماماً على الرأي الذي أدليت به أمام الامناء في أول لقاء معهم في دمشق. لقد عادت السلطات الى القوميين الاجتماعيين بموجب وضعنا الدستوري التعاقدي، هم أصحاب الحق بانتخاب قيادتهم ـ لم يهمل اعتراض الأمين عيسى ـ الموجود حالياً في الارجنتين ـ بل أجيب بما يتفق مع الطرح الذي طرحته واتخذ أساساً للخروج من المأزق الدستوري...

ومن الناحية الواقعية غير ملائم لإجراء الانتخابات ـ لا أعرف إذا اقتنع الأمين عيسى بهذا الرأي أم لا ـ إلا أنه أصبح يقبل النظام، كما قبل القوميون الاجتماعيون بالحل دون اعتراض من أحد ـ ما عدا الأمين سلامة ـ لم يعترض ولم يعص أو يتمرد. لقد أصبح القانون الدستوري عدد /8/، وكنا نسميه المرسوم الدستوري عدد /8/، دستوراً نافذ المفعول لا بقرار من المجلس الأعلى المنتخب على الصورة التي بسطناها فوق، بل بإرادة القوميين الاجتماعيين العامة المستنتجة ضمناً من سكوتهم وإقبالهم الطوعي على التنفيذ مما يعني أنه كان تعبيراً عن ارادتهم فعلاً...

كيف نبشت رفات سعاده من تحت الرمال

هنالك تواريخ لا تبرح ذاكرتي. تذهب معي الى القبر لأنها هامة. وقد ذكرت بعضها في سياق هذه الذكريات. كما أن بعضها يضيع بين كثرتها وثانويتها. من هذه التواريخ المحفورة في أعماق صدري وذاكرتي، تاريخ نبشي رفات سعاده العظيم من قبره في رمال مقابر مار الياس بطينا في بيروت الغربية. كان ذلك في 11 كانون الثاني سنة 1950. لم أقم بهذا العمل اعتباطاً وتفرداً. كلفت من قبل الأمينة الأولى والرئيس عبد المسيح مباشرة. فاستدعيت لهذه الغاية كشهود كلا من الأمينة حالياً هيام نصرالله قبل زواجها ورئيسنا الأمين عبدالله محسن، وأخيها الرفيق رجا والرفيقين يوسف شخطورة الذي ورد اسمه سابقاً والرفيق ادمون توتنجي. في العاشرة صباحاً من ذلك اليوم، كان علينا أن نقوم بهذه المهمة.

لم ننبش الرفات عبثاً. كنا بنينا قبراً مؤقتاً في نفس المحلة ـ مقابر مار الياس ـ واستحضرنا تابوتاً مرصصاً لكي لا تتسرب اليه الرطوبة.

كانت الساعة رهيبة. أبونا الروحي وزعيمنا البطل الشهيد تحت الرمال... هل يقوم من قبره كما قام المسيح ليلقي علينا تحيته وابتسامته؟.

لله، كيف يتساوى العظماء مع كل بني البشر. نبشنا فإذا الزعيم عظام ورميم!.

أنا لم أبك ـ صدقني ياقارئي ـ منذ 16 أيلول 1930 ـ يوم وفاة جدي يعقوب عبود الزاخم، والد أميّ، لم تنزل لي دمعة على أبي الروحي انطون سعاده والخالين ابراهيم وفهيم الخوري، وجدتي نسطة الشيخاني... وأخيراً زوجتي وشريكة حياتي... لقد نشفت دموعي في 16 أيلول سنة 1930 ولا تزال....

مـا ان بلغنا الـرفـات، حـتى كـانت هيـام والبـاقـون يذرفـون الدمـوع الغـزيرة مختنقين. أنا وحدي وقفت كالجلمود.

كدت ان أختنق ولكنني لم أبك. بكى عني الحاضرون بكاءاً مراً.

بيدين مرتجفتين انتزعت سن الزعيم الذهبية، قصصت كمشة من شعره لا أزال أحـتـفظ ببـعـضـهـا الى الآن، أخـذت الحـبلة التي كـانت بيـده، وقـطـعـة من جاكاتته، وخشبة من أخشاب تابوته... أخذتها كلها ووضـعـتـها في صندوقة صغيرة مع شهادة هذا نصها كما أتذكرها:

«أنا المـوقع، الأمين عـبدالله قـبـرصي، من أمناء الحـزب السـوري القـومي الاجتماعي حالياً، عميداً للإذاعة سنة1934 ـ 1935 ، زعيماً للحزب بالوكالة سنة 1935، رئيسـاً لمـجلس العـمـد سنة 1936، نامـوسـاً لمـجلس العـمـد سنة 1937، رئيسـاً لمـجلس وكـلاء العـمـد سنة 1938 - 1939، عـضـو في المـجلس الأعلى حـتى تاريخ نيسـان 1947، أشـهـد اني في السـاعـة العـاشـرة من صبـاح 11 - 1 - 1950، نبشت بحضور الرفيقة هيام نصرالله والرفقاء يوسف شخطورة ورجـا نصرالله وادمون توتنجي، قبر الزعيم في رمال مقابر مار الياس بطينا ـ بيـروت/ انتزعت ضـرسـه الذهبي وخصلة من شعـره وقطعة من ثوبه، والقـيد الذي كان مقيداً به عند اعدامه، كما انتزعت خشباً من تابوته، وإنني أودع هذه الصندوقة كل هـذه الآثار من رفاته لأرسلها الى زوجته الأمينة الأولى جوليات المير سعاده المقيمة في دمشق حالياً.

اثباتاً لكل ذلك وقعت هذه الشهادة.

1950 - 1 - 11

الأمين

عبدالله قبرصي

ثم أودعنا الرفـاة في التـابوت الجـديد ووضـعـنـاه في القـبـر الـذي بنيناه بانتظار أن ننقله الى قبر يليق به في ضهور الشوير عندما تصبح ظروف لبنان السـيـاسـيـة مـلائمـة. ولا بد لي من ان أذكـر مع الأسف ان الخـلافـات التي استفحلت بين السلطات الشرعية والأمين عبد المسيح أوصلتنا الى حد أنه في

ليلة ليلاء نبش القبر وأخذ الرفات وهي لا تزال في عهدته حتى كتابة هذه السطور.

قيل لي وأنا في دمشق، ان الرفيق ميشال الديك، عندما عرضت عليه هذه الرفات في دار الأمينة الأولى، ركع وأقسم بشرفه وحقيقته ومعتقده أنه سيقف ما تبقى من عمره للانتقام لدم سعاده. وقد فعل كما سنروي ذلك لاحقاً.

انتخاب الأمين عصام المحايري نائباً عن دمشق في مجلس النواب الشامي

أولى الانتصارات التي خاضها الحزب مستفيداً من دم سعاده الغالي كانت انتخابات الأمين عصام المحايري نائباً عن دمشق سنة 1951.

بعد سقوط حسني الزعيم، ولمعان نجم أديب الشيشكلي، أصبحت الصحافة حرة فإذا هنالك شبه اجماع على استنكار تسليم انطون سعاده الذي اعتبر انتهاكاً للتقاليد العربية في حماية الضيف وبخاصة إذا كان قائداً قومياً متفوقاً في علمه وأخلاقه ووطنيته، هذا عدا عن نفوذ الحزب في الجمهورية الشامية في تلك المرحلة من منطقة العلويين مروراً بالمدن الكبرى وصولاً الى جبل العرب والجزيرة العليا. ان تيار الحزب كان كبيراً إذا لم نقل هادراً...

وكانت الانتخابات على الأبواب، فما فتح باب الترشيح حتى أقدم الأمين المحايري، بقرار من الحزب، على ترشيح نفسه. أنا متأكد انه سيكتب يوماً مذكراته لأن الدور الذي لعبه مرشحاً أو نائباً دور تاريخي لا يسجل في تلك المرحلة الهامة من مراحلها والتي يصفها الرئيس خالد العظم في مذكراته وصفاً شاملاً رغم تعتيمه على دور الحزب ونفوذه، لأنه كان يعتبر عصام المحايري منافساً شخصياً له، لأنه حصل على عدد من الأصوات تفوق عدد أصواته. ولقد قيل لي ذلك، دون ان أتمكن وأنا أكتب هذه الذكريات في عمان ـ المملكة الاردنية الهاشمية ـ ان اتثبت من صحته بمراجعة الأرقام.

ان فوز الأمين عصام المحايري، أطلق موجة من الاعتزاز عند القوميين تجاوزت كل الحدود، بل ان فوزه وضع الحزب على قائمة الأحزاب الفاعلة على الساحة الشامية إذا لم يكن أفعلها بذلك الوقت. ولقد كنا نتابع في القيادة نشاطات الأمين عصام ونزوده بتوجيهاتنا، على ان عبد المسيح كان الرئيس وهو

الأقرب منا اليه والأدرى بمسيرة السياسات الشامية وتعقيداتها .... وتداخلاتها .

هذا الى جانب اصدارنا جريدة «البناء» التي كان الأمين عصام يكتب مع عبد المسيح افتتاحياتها، الى ان استدعي رفيقنا القديم الصحافي اللامع جبران حايك (صاحب ورئيس تحرير جريدة لسان الحال التي كانت تصدر في بيروت فيما بعد) الذي أصبح له دور فاعل ليرأس تحريرها .

في تلك الاثناء كان قد بدأ يلمع نجم اسم أدونيس رغم صغر سنه، يلمع كشاعر وأديب قومي واجتماعي. وكان يشترك في العمل الثقافي اشتراكاً فعالاً، أكثر مردوده علنيا كان بين الطلبة. ولا بد من ان نذكر ان كتاب «قالت الأرض» الذي طبع في تلك الحقبة أصبح من الكتب التي يتداولها القوميون ويحفظونها آيات بينات.

كما كان قد بدأ يلمع نجم الدكتور سامي الخوري، فهو الذي تسلم لفترة طويلة عمدة الثقافة، فيما كان عصام المحايري عميداً للإذاعة وعبدالله محسن عميداً للتدريب، والياس جرجي عميداً للداخلية، إذ اشتهر منذ عمله مع سعاده بحسن التنظيم وحسن الادارة، والوعي الصحيح للعقيدة والتعصب لها والتبشير بها . ولقد كان هو والأمين عبدالله محسن أقربهما من سعاده، مع الأمين السابق هشام شرابي وجورج عطية رغم حداثة سنهما، من المتابعين للعمل الحزبي تحت اشراف سعاده نفسه، لتفرغهم الكامل لمعاونته.... فالياس جرجي كان ناموسه وعميداً للداخلية، كما كان عبدالله محسن عميداً للمالية، وهشام وجورج ناموسيه يتبعانه كظله .

ان جريدة «البناء» من جهة وعصام المحايري نائباً عن الحزب من جهة أخرى، كانا ركنين بل دعامتين للحزب في مسيرته بعد استشهاد المعلم، ناهيك بالحماية والرعاية اللتين كان يوفرهما للحزب العقيد أديب ا لشيشكلي بعد الانقلاب على حسني الزعيم.

انني أتحدث بالعموميات، لأني لم أكن في دمشق أتابع خطوة خطوة التطورات السياسية ورغم التقارير التي كانت ترفع الى المجلس الأعلى من قبل رئيس الحزب التي لا أحفظ صوراً عنها، ولكني أعتقد ان ما أذكره أساسي وتاريخي.

من هذه النقاط البارزة في ذاكرتي:

أولاً: رسالة الأمين عصام المحايري الى أديب الشيشكلي حول عروبة الحزب.

ثانياً: كتاب بيان أديب الشيشكلي عند انقلابه الناجح وأملنا في استلام الحكم.

ثالثاً: مرافقة عصام المحايري لأديب الشيشكلي الى حلب وحضوره المهرجان الكبير الذي أقيم له.

رابعاً: أحداث جبل العرب.

خامساً: انقلاب أديب الشيشكلي على الحزب بل على كل الأحزاب عندما حلها جميعاً وأسس حزباً لحسابه!....

سادساً: الانتخابات النيابية بعد حل مجلس النواب.

سابعاً: المدارس القومية الاجتماعية.

كانت الأحزاب العاملة على الساحة ـ والتي حلها العقيد أديب الشيشكلي جميعها ـ بما فيها حزبنا بعد ان انتقل من رئاسة الأركان الى رئاسة الدولة، الحزب الوطني الذي كان يقوده فعلاً الرئيس السابق شكري القوتلي وصبري العسلي، وحزب الشعب الذي كان يقوده رشدي الكيخيا وناظم القدسي، وحزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان يقوده ميشال عفلق وأكرم الحوراني وصلاح البيطار، والحزب الشيوعي الذي كان يقوده خالد بكداش. كان من الطبيعي ان تعارض هذه الأحزاب مجتمعة حكم أديب الشيشكلي وسياسته وكان من الطبيعي والصراع بين العراق ومصر على أشده في الشام ان يتجه أديب الشيشكلي اتجاهاً يحميه من قوتها ونفوذها. فاختار بغداد حليفاً. كما كان قد اختار كميل شمعون في لبنان حليفاً. والمأزق الذي وقع فيه حزبنا كان بالفعل مأزقاً. كيف يمكن ان يظل موالياً للشيشكلي وقد حله هو أيضاً. كان المخرج ان يسمح الشيشكلي للحزب بالعمل دون ترخيص رسمي.

لم يكن بمقدورنا ان نعارض، وجورج عبد المسيح رئيسنا محكوم بالإعدام غيابياً في لبنان والأمينة الأولى وبناتها في دمشق. بل لم يكن بمقدورنا أن

نعارض أديب الشيشكلي الذي كان كان قد عرض علينا، كما يقول العارفون المقيمون في الشام، ان نتسلم الأحكام فيها لدرجة ان وردنا يوماً خبر من دمشق، نحن اعضاء المجلس الأعلى، ان نعد حقائبنا فقد ندعى في أية لحظة لاستلام مراكز حكومية بعد اعطائنا الجنسية السورية. وليس هذا مزاحاً، فإنه من الثابت ان البلاغ رقم واحد الذي أذاعه الشيشكلي على أثر انقلابه كان مكتوباً بقلم عميد اذاعة سابق هو الرفيق وديع الاشقر من كفرقاهل (الكورة).

وبما ان موقفنا من العروبة لم يكن واضحاً للرأي العام في الجمهورية الشامية، فقد وجه الأمين عصام المحايري رسالة الى أديب الشيشكلي يشرح هذا الموقف بالتفصيل. وقد نشرت هذه الرسالة في كراس ووزعت على نطاق واسع.

ولقد أثبت المحايري - ومرجعه الأول سعاده - عروبة الحزب بالبينة والبرهان. انها العروبة العلمية أو العروبة الواقعية.

وكان من مظاهر تعاوننا مع الشيشكلي ان اصطحب معه في أول زيارة رسمية قام بها الى حلب الأمين عصام المحايري وقد ظهر معه على منصة الشرف، كان الموقف يتطلب مرونة وبراعة وحسن تخلص.

ومن الأدلة التي ذكرتها في كتابي «نحن ولبنان»، على الدور السياسي الذي كنا نلعبه في الشام، والذي كان ينعكس علينا ايجابياً في لبنان، خاصة بعد نجاح نائبنا غسان تويني في معركة الشوف الانتخابية، ان النائب اللبناني اميل البستاني (الذي فقده لبنان في حادث طيارة أودي بحياته سنة 1963) والذي كان قد دعا وفداً من حزب العمل البريطاني برئاسة المستر براون، لزيارة لبنان والشام، قصد مع هذا الوفد منزل الأمين عصام المحايري لزيارته والاستماع الى رأيه. في تلك المناسبة طرح النائب البستاني سؤالاً على الأمين عصام المحايري هو التالي:

«إذا هاجم الشيشكلي لبنان بقصد ضمه الى سوريا، ماذا يكون موقفكم؟».

فأجابه المحايري (وجوابه منشور في كتابي «نحن ولبنان»):

«إذا هاجم الشيشكلي لبنان، فالسوريون القوميون في الشام يطعنونه في

الظهر/ أما السوريون القوميون في لبنان فيطعنونه صدراً».

هذا للدلالة والتأكيد على أننا متمسكون باستقلال لبنان وسيادته نطاق ضمان للفكر الحر وللقيم السورية القومية الاجتماعية الجديدة، ومتمسكون بالقاعدة التي وضعها سعاده لموقفنا من الكيان القائلة بأن استقلال لبنان رهن بإرادة الشعب اللبناني. الشعب اللبناني يقرر الوحدة متى نضجت شروطها لا السلاح، أياً كان هذا السلاح!.

ان الشيشكلي ارتكب بنظرنا ثلاثة اخطاء مميتة كانت هي الأسباب المباشرة لسقوطه:

(1) حل الأحزاب وتشكيل حزب لحسابه هو حزب التحرير كما أذكر.

(2) معركة الجبل.

(3) تزوير الانتخابات.

عندما هاجم الشيشكلي جبل العرب - والأسباب أنه كان يعارض سياسته بقيادة القائد الوطني الخالد سلطان باشا الاطرش - عقد المجلس الأعلى جلسة استثنائية، وبحث الموقف مقدراً خطورته وخطره. كان الجبل سنداً ضخم الشأن لحزبنا، في كل الظروف العصبية التي مر بها، وقد ذكرنا آنفاً دور الرفيق زيد الأطرش في ثورة سعاده في لبنان دون ان ننسى رفيقنا المتوفي حديثاً غالب الاطرش وجهاد الأطرش وسواهم من فرسان الجبل الاشم، لذلك هالنا أن يقوم العقيد الشيشكلي من موقع رئيس الدولة على اقتحام هذا الجبل العربي القومي... لم يكن بمقدورنا آنذاك ان نخاطب أديباً مباشرة، فقد كانت الهوة بيننا وبينه تتسع تصاعدياً، فلجأنا الى جورج عبد المسيح ليتوجه الى الجبل ويقابل قائد القوات المهاجمة رفيقنا صلاح، شقيق أديب ويقنعه بالتراجع، بعد ان يقنع شقيقه بخطأه في فتح تلك المعركة. الا ان عبد المسيح لم يفلح في مهمته رغم انه تشدد وتوعد في مطالبته بالتراجع عن الجبل.

ثم جاءت انتخابات سنة 1953،... كنا قد رشحنا رفقاء قوميين اجتماعيين عن /27/ دائرة انتخابية لأن قوتنا الشعبية كانت قد تعاظمت بصورة بارزة. إلا ان التزوير وقع لصالح مرشحي العهد الشيشكلي وشملنا التزوير نحن أيضاً

الذين كنا متهمين من كل البشر بأننا حلفاؤه. نعم كنا حلفاءه عندما قام بانقلابه الناجح، ثم خاصمنا وخاصمناه.

إنني أزعم ان حل الأحزاب واستعداءها، ثم معركة الجبل بدون مبرر، ثم تزوير الانتخابات، فضلاً عن السياسة الخارجية كانت هي العوامل المؤثرة في سقوط عهده وهربه الى باريس ومن ثم الى البرازيل حيث قتله درزي من آل أبو غزالة!

كان نجم مصر قد بدأ يلمع في العالم العربي بشخص جمال عبد الناصر الذي كان معادياً للعراق على خط مستقيم.

لم يكن أحد يصدق أننا عارضنا الشيشكلي حيث أخطأ، وحالفناه حيث أصاب، لأن الجميع كانوا يعتقدون أنه حليفنا والصديق والرفيق. فتحملنا عواقب أوزاره وأخطائه، دون ان نستفيد من زعامته ورئاسته الا أننا كنا في الشام أحراراً لا نخشى على أنفسنا من الغدر. كما جرى لنا أيام حسني الزعيم.... وإذا صحت الرواية من أنه عرض علينا استلام الحكم فتكون ادارة الحزب هي المسؤولة لا هو شخصياً. ولكني استبعد حصول هذا العرض.

ما كان أحد غيرنا - وعبد المسيح في الدرجة الأولى - يواجهه بأخطائه أكثر منا. تروى بهذا الموضوع عن عبد المسيح روايات تشبه الأساطير. فمنهم من لا يزال يقول ان عبد المسيح كان يستدعيه وهو قائد الأركان الى مكتبه ويطلب اليه الانتظار مع المنتظرين ساعة أو أكثر!... فتأمل!

ولأننا واجهناه وعارضناه لم نستفد من عهده الفوائد المرتجاة. إلا أننا على الصعيد السلبي لم نصدّق كمعارضين له، رغم ن رفيقنا الشهيد غسان جديد حرّك وحداته العسكرية في حمص لمقاومته ساعة شنت عليه حملة انقلابية شعبية وعسكرية صارخة!.... وكانت سبب سقوطه.

انه لمن الطبيعي ان خصومنا كانوا يريدون بنا شراً. كانوا يريدون القضاء علينا وخاصة البعثيون والشيوعيون والاشتراكيون الذين هم اليوم حلفاونا واخوتنا لذلك رفضوا اشتراك الوفد الذي كنا أرسلناه الى مؤتمرهم في حمص، عندما كان الشيشكلي يتخلى عن الحكم ويهرب. هذا الوفد الذي كان مؤلفاً من الأمينين عصام المحايري وعبدالله محسن على ما أذكر.

المدارس القومية الاجتماعية

من حسنات عبد المسيح في الشام وإبداعه أنه استطاع اكتشاف الطاقات القومية الاجتماعية في الثقافة والادارة، وان يحييها .... بكل دقة ومثابرة. ومن أهم ابداعاته تأسيسه المدارس القومية الاجتماعية. يقول الأمين الدكتور سامي الخوري ان الحزب أنشأ ثلاثاً وعشرين مدرسة قومية. ما أذكره أنا هو مدرسة مرمريتا ومدرسة السودا ومدرسة صافيتا. المهم ان المدارس كانت منارة اشعاع وبؤر اذاعة. ثم... تعد الجيل الطالع وتوجهه قومياً اجتماعياً. تلك المدارس كانت بالفعل مراكز تربية وتوجيه ودعاية، قيمتها على الصعيد الحزبي لا تثمن.

أما في لبنان

لنترك أديب الشيشكلي متخلياً عن الحكم ولاجئاً الى فرنسا، ولنعد الى لبنان.... كنا قد بدأنا نتنفس في لبنان بعدما عين الأمين حسن الطويل حماده (بعقلين) وهو من فرساننا الأشاوس، جرأة ونضالاً ومواقف، مفوضاً عاماً للبنان. وكانت المعارضة لعهد بشارة الخوري قد بدأت تتخذ أشكالاً حادة بعد تأليف الجبهة الاشتراكية برئاسة كمال جنبلاط وكنا ممثلين بفسان تويني الذي كان قد أصبح نائبنا في المجلس النيابي ومن حميد فرنجية وكميل شمعون وإميل البستاني والمعارضين لعهد بشارة الخوري بوجه الاجمال.

لقد كان لتوسع نفوذ أديب الشيشكلي عسكرياً وشعبياً بعد الانقلاب على حسني الزعيم والحناوي انعكاساته الايجابية على نفوذنا في لبنان. لقد أصبح بإمكاننا التحرك ببعض الراحة كما أصبح لنا خط انكفاء وعمق استراتيجي في حال تصادمنا من جديد مع السلطات اللبنانية التي كانت لا تزال تتربص بنا شراً وتخشى انتقامنا لدم شهدائنا وفي طليعتهم معلمنا وقائدنا انطون سعاده كما أصبح عدد المفكرين يفهمنا أكثر ويقبل على دراسة كتبنا والتحاور معنا.

سعيد تقي الدين في الحزب

كان سعيد تقي الدين منذ عودته الى لبنان سنة 1946 - 1947 كما أذكر قبلة أنظار الناس، يتسابقون للحصول على مقابلات صحفية معه، وعلى نشر انتاجه الأدبي. كان صديقاه محيي الدين النصولي وعبدالله مشنوق قد جعلا من جريدتهما بيروت ـ المساء وسيلة دعاية له.

وسعيد تقي الدين ليس ابن البارحة، برز أديباً مبدعاً وهو على مقاعد الدراسة يوم أصدر مسرحيته «لولا المحامي» التي لا تزال تمثل على خشبة المسارح حتى يومنا هذا.... ثم لم يصمت في مغتربه ولم ينم فكانت أخباره تصل الى الصحافة اللبنانية وكانت مقالاته تنشر في صور الصحف والمجلات لأنه بالفعل مدرسة جديدة في الأدب. من مراجعه مجموعة مؤلفاته التي أصدرتها دار النهار يمكن استنتاج الدور الذي لعبه والشعبية التي اكتسبها فهو طوراً في الشمال وطوراً في البقاع وحيناً في دمشق وأحياناً على منابر الأندية الأدبية.

في كل مكان أفكاره تقدمية اصلاحية تبلغ مناخات الثورية في بعض مواقعها. أنا شخصياً كنت من المعجبين به كل الاعجاب. كنت أتمنى فرصة لأتعرف اليه وإذا برفيق لنا من شملان هو منير شبلي يعرض علي اجتماعاً بسعيد. لم أرحب بالفكرة فقط بل هللت لها. ها قد سنحت لي الفرصة لألتقي هذا الأديب الكبير المبدع! كان علي ان استأذن المجلس الأعلى فاستأذنت. فاجتمعنا في داره أنا والرفيق الوسيط. وكنت أحمل كتب الحزب المتيسرة لأني عرفت منه، ان سعيداً جاد في التعرف الينا في العمق بل جاد في البحث عن امكانية انتمائه. قد يكون سعيد في دواخله مستكبراً معتزاً بنفسه وأدبه

ومعتداً.... أما في استقباله لي ولرفيقي فقد كان في منتهى التواضع والبساطة. إذا التقيت سعيداً، بالهالة التي كانت تطوق هامته، وبعينيه الخارقتين وجبهته العالية وضخامة جسمه، لم يكن بإمكانك الا ان تتهيب، فتهيبت.

كتب سعيد عن هذا اللقاء وعن دخوله الحزب أسطراً مقتضبة ولكنها صحيحة.

طلب الي ان أشرح له عقيدة الحزب وغايته، فشرحتها كما هي واردة في المبادىء والمحاضرات العشر ودستور الحزب كنظام وكتنظيم.

وأردفت: «ان من كان في وزن سعيد تقي الدين، يقرأ أكثر مما يسمع، اني أدعوك لقراءة الكتب التي أحملها وبعد الانتهاء منها، تضرب لي موعداً، وأرجو ان يكون قريباً، لنتناقش ونتحاور حولها!».

قال لي: «إني أعرف الحزب من زمان، وأنا معجب بالزعيم وقد التقيته مرة أو مرتين. أنا الآن مصمم على أن أدرس وان أقتنع إذا وجدت مجالاً للاقتناع».

قلت: «ما هي المهلة التي يمكنك خلالها أن تدرس؟».

قال: «اعطني ثلاثة أيام، على كل أنا أتصل بك». بعد ان أعطيته رقم هاتفي؛

تأكدت ان الرجل مصمم كما تأكدت انه لا يحدثني كمرشح للدخول بقدر ما يحدثني كواع للقضية القومية ومدرك للقواعد التي تشكل ركائزها... سعيد تقي الدين لا يمكن الا أن يكون صادقاً وبخاصة بعد الاستشهاد البطولي الذي تم على رمال بيروت وكان بطله انطون سعاده بالذات، هذا الاستشهاد الذي هز ضمير العالم. إلا يهز هذا الاستشهاد ضمير سعيد تقي الدين، الرجل الوطني والأديب المبدع المتفوق وأديب الحرية والعلمنة؟.

والتقينا ثانية، فإذا به يفاجئني: «لماذا لم تتصلوا بي من قبل اليوم؟ قرأت مبادئكم فلم أر فيها جديداً علي. كنت أعرفها ومؤمناً بها. لماذا تأخرتم؟».

فوجئت بهذا المنطق. سعيد تقي الدين مؤمن بالقضية القومية، وهو صديق لشارل مالك وسعيد فريحة ومحي الدين النصولي وعبدالله المشنوق المؤمنين بالقومية العربية؟.

قلت: «أليس لك سؤال تستوضح به عن بعض النقاط؟ عن بعض الاشكالات؟ عن بعض التساؤلات؟

قال: «لي سؤالات ثلاثة»:

1 ـ ما هو موقفكم من لبنان؟

2 ـ ما هو موقفكم من العروبة؟

3 ـ هل تفرضون علي أن أكتب ما لا أقتنع به، أو في وقت لا جلد ولا همة لي على الكتابة؟.

هنا حاولت اغراءه. هل هذا الكلام اغراء؟ القارىء يقدر:

1 ـ إن أدبك معروف في العالم العربي كله، وبخاصة في لبنان. الناس تقرأ أدبك بلذة وإعجاب. وهل هذا يكفي للأديب؟ إذا جئت الى الحزب يصبح أدبك أدب حياة. لا توضع مقالاتك وكتبك على الرفوف. القوميون الاجتماعيون يحيون معتقداتهم ويعملون على تحقيقها. انهم يخلدونك أعمالاً وتطبيقاً، لا نظريات وأفكاراً فقط.

أعترف هنا ان الحافز الذي دفع سعيد الى الالتقاء بي والتطلع جدياً للدخول الى الحزب، كان كما يعترف هو، رسالة من شاعرنا المناضل الصامد عجاج المهتار... الرسالة التي ذكرها في أحد كتبه.

كما يخطر ببالي، ان الحزب بعد صعود أديب الشيشكلي الى سدة الأحكام لم يعد أحلاماً وتمنيات، صار حاكماً ـ ولو بالسمعة ـ في كيان قائد ورائد من كيانات الأمة هو سوريا ـ الشام.

2 ـ أما لبنان فنحن نحافظ على استقلاله وكامل سيادته ما دامت هذه ارادة اللبنانيين. لن نحقق ضم لبنان الى الشام أو ضم الشام الى لبنان بالعنف والسلاح. ان الأمر متروك لإرادة الشعب اللبناني، وإرادة الشعب في الشام.

3 ـ أما العروبة، فإن حزبنا يتمسك ببرهان عليها قاطع بما قاله سعاده عند رجوعه من مغتربه القسري: «نحن صدر العالم العربي وسيفه وترسه!» ماذا تطلب منا العروبة أكثر من أن نكون سيوفها وتروسها؟.

أما الكتابة، فهي متروكة لك. بعد اعتناقك العقيدة عن ايمان وقناعة، أنت

الأديب الكبير، هل يمكن أن تكتب إلا في إطار هذه القناعة ومن وحيها؟ أليس الأدب الحق تعبيراً عن الذات لا عن ذات الآخرين؟.

انك ستصبح تلقائياً ملتزماً بقناعاتك. ان الاناء لا ينضح إلا بما فيه. أنت الأديب هل يمكن أن يخرج من قلمك الا ما يلائم قضية الحزب ومبادئه ونظامه وسياسته. بعد ان تحتل فيه مكانك المرموق؟

قال: «هل تتدخلون في حياتي الخاصة؟».

قلت: «حياتك الخاصة ملك لك.... نحن لا نهتم بخصوصياتك. نحن نهتم بقناعاتك القومية الاجتماعية وبمسيرتك على المسرح العام...».

قال: «لقد اقتنعت. ولكن سأكون عضواً سرياً لمدة».

قلت: «لك ما تريد».

فرحت ابشر رئيس المجلس الأعلى الأمين أبو عجرم بهذا الانجاز الكبير. سعيد تقي الدين، الشيخ سعيد، عضو في الحزب، تلك كانت شبيهة بالمعجزات!.

وفي يوم من أيام مطالع ربيع سنة 1951 كنا مجتمعين كمجلس أعلى في بيت الأمين أبو عجرم لأن أكثر أعضاء المجلس كانوا يقيمون في بيروت، وكنت قد بشرتهم بأن سعيد سيدخل الحزب عضواً سرياً في بادىء الأمر، الى أن نتفق وإياه على طريقه اخراج انتمائه. ونحن في الاجتماع فاجأنا بقامته المديدة وجسمه المترهل وعينيه النسريتين... استأذننا للسماح له بحضور الجلسة، فأوقفنا مداولاتنا وأدخلناه فإذا معه بيان الانتماء!....

كنت أنا وحسن الطويل حماده عرابيه. بصم وأقسم بعد ان تلى علينا بيانه ووافقنا عليه بالإجماع.

أقسم اني ما انتبهت لنص البيان بل لخاتمته. في الخاتمة كلمة اللارجوع. سعيد إذن يلتزم مدى الحياة. وأرسل البيان الى الصحف فإذا به غمز من قناة كمال جنبلاط... تأثرت لهذا التسرع. عندما أدخلت سعيداً، اعتقدت ان الشوف صار كتلة واحدة. سعيد يمثل الفريق المعارض للدار الجنبلاطية وهو الآن في خطنا، وباستطاعته بحجته القوية ونفوذه الأدبي أن يجد صيغة لتوحيد الجهود

وإنهاء المعارضة، رغم تعقيدات السياسة اللبنانية تحالفات وعائلات وحزبيات محلية ورغم انقسام الدروز التاريخي الى قيسي ويمني وأخيراً الى جنبلاطي ويزبكي.

ما تأخر جواب كمال جنبلاط. فساعات بعد اذاعة بيان سعيد، انعقدت جلسة الجبهة الاشتراكية وغسان تويني فيها، فما ان استقر به المقام حتى نادى الرفيق غسان يقول: «دخلتو سعيد تقي الدين بالحزب؟ ماذا تنتظرون منه؟ ان الديون التي كانت لكمال جنبلاط بأعناقنا كقوميين كانت باهظة. لم يكن من الجائز السماح لسعيد بإذاعة فقرات البيان التي فيها الغمز واللمز... كان ذلك خطأ فادحاً.

ومن سوء حظنا، كان قد وقع أيضاً خطأ ـ على الأقل من وجهة نظري ـ قبل ذلك بقليل، فقد كان شغر مركز نائب عن قضاء عاليه، فرشح الأستاذ كمال جنبلاط أحد محازبيه السيد ايلي مكرزل، شقيق النائب السابق اميل مكرزل. وكانت قد انعقدت بيني وبين الأستاذ كمال صداقة حميمة، فإذا به يحضر الى مكتبي اذ كنت رئيساً للشعبة السياسية اللبنانية، ويعرض علي أن نؤيد ترشيح ايلي مكرزل.

فقلت له: «ان السيد ايلي مكرزل مرشح الحزب التقدمي الاشتراكي، وبيننا وبينكم منافسة على النفوذ هنالك، هل لك بأن تصرح انَّه مرشَّح الحزبين، إذا قبل حزبنا بهذا الحل؟ فأجابني على الفور أقبل، ووقع لي على بياض ورقة أضع فيها النص الذي أريد، يطبعه هو على حسابه ويوزعه السيد اميل البستاني بطيارته!.

بعد ان وقع على بياض كان معه مرافق لا أذكر اسمه مع الأسف، أسر في أذنيه وهما أمام المصعد في بناية بيضون شارع بشارة الخوري حيث كان مكتبي، شيئاً ما. فعادا؟. قال لي الأستاذ كمال: «أفضل الا أترك توقيعي على بياض، لنتفاهم على النص وأكتبه بخط يدي». فتفاهمنا على النص، ودونه بخط يده. فأخذت الورقة وقلت: «إذا وافق حزبي نجتمع لطباعتها وإذا لم يوافق أردها اليك. انها أمانة معي».

ودعوت اعضاء الشعبة السياسية اللبنانية. كان بينهم حسن الطويل وكامل أبو كامل وغسان تويني. لم يكن سعيد قد دخل بعد. وكان الرئيس فؤاد أبو عجرم كرئيس للمجلس الأعلى عضواً طبيعياً فيها. اجتمعنا في مكتب جريدة «صدى لبنان»، لمحمد البعلبكي الذي كان أصبح رفيقنا منذ مدة!.

وتداولنا، أنا وغسان دافعنا عن الاتفاق، الامناء فؤاد أبو عجرم وحسن وكامل رفضوا... تجادلنا بأصوات عالية. كنت متحمساً لعدة أسباب. أنوي ان تلتحم القوى القومية بالقوى التقدمية الاشتراكية، فتصبح قوة تقض مضاجع الرجعيين والخصوم أيا كانوا... صوتنا، ثلاثة ضد اثنين فسقط المشروع...

رحت أبحث عن الأستاذ كمال لأرد له الوثيقة، طلب الاعضاء ان تبقى في سجلاتنا فرفضت رفضاً قاطعاً. لقد تعهدت بردها وسأفعل. هتفت بالمنزل فلم أجده! أحدهم قال لي إنه شاهد سيارته أمام باب العجمي. فقصدته وسلمته الورقة وأنا مغتم فعلاً، فاغتمَّ هو أيضاً وقال: «أخطأتم.. هذه الواقعة ما منعت ان نتعاون فيما بعد لإنجاح غسان تويني نائباً عن الشوف... ولكنها كانت نقطة سوداء على بياض علاقتنا مع الحزب التقدمي الاشتراكي، حزب كمال جنبلاط لأنه هو مؤسسه وروحه وجسده!.

لا أنهي هذا الفصل قبل ان أذكر الاجتماعات المتوالية التي عقدتها مع الاستاذ جنبلاط في منزل غسان تويني كل يوم اثنين من الأسبوع الساعة الثالثة بعد الظهر. كان دقيقاً في مواعيده كما كنت دقيقاً.

أعترف هنا اني لست بطول باعه في الفلسفة والسياسة، إلا أنني متشبع حتى العظم بعقيدتنا السورية القومية الاجتماعية. لقد حاولت أن أقنعه بالاقلاع عن المضي في تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي وبالمجيء الى الحزب القومي، وبالحوار والعمل الايجابي يمكن لحزبنا أن يستوعب حزبه، فيكون بغنى عن تأسيس حزب جديد. لم أفلح. ما اتفقنا عليه كان ان القومية مرحلة طويلة في حياة الأمم. ذ عن نقول نهائية، علماً ان لا شيء نهائي في الوجود لأن المطلق نسبي كما علمنا سعاده نفسه ولأنه عندما سئل عن وحدة المجتمعات البشرية أجاب: «من يدري. (راجع نشوء الأمم...)».

لا أنكر إني بإدخالي سعيداً الى الحزب وبعلاقتي الوثيقة بكمال جنبلاط، كنت أتصور إننا سنشكل فرقة عمل ثورية تقرر مستقبل لبنان على صعيد الاصلاح السياسي. الا أن بيان سعيد الذي لم أدرسه قبل نشره بل سمعته في نشوة انتصاري بإدخاله، كان الشرارة الأولى لإشعال الخلافات بيننا وبين الرجل الذي تحمل من أجلنا أقسى الانتقادات، وطرد من جلسة لمجلس النواب، وعومل معاملة العدو من قبل رياض الصلح... كانت تلك ضربة شديدة بل قاضية لمشروعي المشار اليه سابقاً....!.

وكان مقتل رياض الصلح خاتمة لمطاف، كان سبب الطلاق بيننا وبين حليفنا الطبيعي في لبنان والعالم العربي... وبدأ التراشق بالمدفعية الثقيلة من الكلام الثقيل. لمع في تلك المعركة الكلامية كتابة قلم انعام رعد وغسان تويني وعبدالله قبرصي وكامل المقدم وسواهم على صفحات جريدة «كل شيء» ومجلة «الأحد» لصاحبها النقيب المغدور رياض طه. أما كمال جنبلاط فقد كانت لديه جريدة «الانباء» وكانت تحت تصرفه كل صحف بيروت...!.

أقول حليفنا الطبيعي، لأن مبادءنا تفترق في بعض خطوطها الكبرى وتلتقي في بعضها الآخر. ولأن النضال المشترك للإصلاح كان يقتضي ذلك التحالف جبراً.

أقول حليفنا الطبيعي، لأننا بعد طول نزاع على غير طائل، بخاصة سنة 1958 عدنا لنجتمع في اللقاء الوطني الذي تحول الى حركة وطنية أو جبهة الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية... من كان غير كمال جنبلاط قادراً ان يجمع الأضداد تحت سقف بيته؟ لم يجمعنا فقط، بل جعل من الظروف الراهنة والاتفاق على البرنامج الاصلاحي السياسي المرحلي في آب 1975 بقيادته ونفوذه وقدرته التوفيقية، جبهة متراصة مع الشيوعيين والناصريين والاشتراكيين والبعثيين والوطنيين بصورة عامة كالدكتور عصام نعمان والمهندس محمد قباني والحاج عزت حرب والنائب البير منصور لخوض المعارك في الخنادق الواحدة جبلاً وساحلاً، شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً...

من كان غير كمال جنبلاط قادراً أن يجترح تلك الاعجوبة، ان يخلق تلك

الجبهة التي لا تزال جذورها راسخة حية فاعلة، في الأرض وعلى سطح الأرض حتى كتابة هذه الصفحات...

(أعترف الآن سنة 1991 ان الجبهة تحولت من جبهة متراصة الى علاقات ودّ وتفاهم لا أكثر ولا أقل، بعد ان انتهت الحرب وبدأت مسيرة السلام).

لقد فكر يوماً أن يجمعنا بالكتائب، خصومنا التاريخيين، فالتقينا بالشيخ بيار الجميل والشيخ موريس الجميل رفيقنا القديم، وكان يمثل حزبنا فؤاد أبو عجرم وأسد الأشقر وأنا... ولم نجد قواسم مشتركة وافترقنا على خلاف...! لو تجسد الله في انسان وحاول اقناع بيار الجميل ان لبنان جزء من سوريا لما أفلح.

عودة غسان تويني

أظل مضطراً للاعتذار عن عدم مراعاتي للتسلسل الزمني. ان طبيعة مشروعي يعطيني فسحة وسيعة للتنقل بين الماضي والحاضر... من يدري إذا كنت سأظل حياً لأكتب ذكرياتي عن الحركة الوطنية اللبنانية في سنوات عزها؟.

غسان تويني عاد الى الصفوف النظامية قبل دخول سعيد تقي الدين... كانت دماء سعاده هي العامل الأكبر في اعادته، ومقالته عن سعاده «المجرم الشهيد» هي البرهان على صدق عودته! (وتحمل من أجلها ثلاثة أشهر سجن....).

لقد أقسم اليمين بحضور قادة الحزب وغيابي لأني كنت منتدباً لمهمة أخرى خارج بيروت. واعتذرت عن غيابي لأن غسان اقسم اليمين في منزلي.

سبق وتحدثت عن غسان... عودته كانت لنا رسمالاً. لولاه ما لقينا شخصاً نرشحه للنيابة مقبولاً عند كميل شمعون وكمال جنبلاط قطبي الدائرة في الشوف، كانا وافقا علي شخصياً، لكني اعتذرت واقترحت غسان ووافق الحزب.

عندما بحث هذا الترشيح في جلسة في منزل كمال جنبلاط (القائد الشهيد الذي أذكره دون القاب لأن اسمه أهم من أي لقب) مع الرئيس الراحل شمعون وكان البحث يدور على المبادىء التي سنتعاون على تحقيقها وعلى الرخصة التي ستعطى من جديد للحزب بعد ان حل من قبل المحكمة العسكرية سنة 1949، في ذلك الاجتماع الثلاثي تلا علينا الرئيس كميل شمعون رسالة واردة اليه من أحد أنصاره المقيم في واشنطن.... كانت تلك الرسالة تشير الى ان الكتائب تتلقى سلاحاً وأموالاً من مصادر مشبوهة وان ضباطاً أجانب

يدربون اعضاءها تدريباً عسكرياً...!

ذلك الاجتماع، جرى على وجه التقريب في صيف 1951.... على ما أذكر. كان للرئيس شمعون مكتب قرب البرلمان تجاه محلات ريفولي لصاحبها اميل الحلبي.

كنت عنيفاً مع الرئيس، وكمال جنبلاط شاهد. كان كميل شمعون مصراً على اعطائنا رخصة عمل علنية كتلك التي أعطانا اياها سنة 1944 أيام رئاسة نعمه ثابت. وكنت مصراً على احترام عقيدتنا لأنها تقول بالقومية السورية ولكن ضمن الكيان اللبناني الذي تعترف بسيادته واستقلاله. كان الرئيس شمعون عصبي المزاج وكنت في عز شبابي عصبياً. تصايحنا. ثم راح يهدىء من روعي، هو السياسي المحنك، وطلب الي ان أرافقه الى مكتبه الذي كان غير بعيد عن مكتبي الكائن مقابل الجامع العمري في بناية ميشال العبد رافقته وبعد شربنا الليمونادا قال لي: «لنتفاهم بهدوء. ما من أحد ياعبدالله يفهم السياسة اللبنانية أكثر مني. إني أعرف المدن والأحياء والقرى والدساكر. إني الخبير الأول في لبنان وقد افتح مكتباً للاستشارات الانتخابية!.... لا يمكننا أن نعطيكم رخصة باسم الحزب السوري القومي الاجتماعي... المسيحيون ترعبهم كلمة سوريا. ليكن اسم الحزب القومي الاجتماعي. قلت: «هذا معقول، وسأعرضه على رفقائي في القيادة العليا».

واستعرضنا اسماء الدروز في الحزب وأسماء الاورثوذكس. ما كان يمكن أن يحوز على رضى اللائحة الانتخابية الا غسان تويني لأنه صديق الجميع، ولأنه مرن وقدير بل لأنه بتربيته العائلية والفكرية برلماني متفوق!.

أنا شخصيا، كنت دائماً من مؤيدي غسان... منذ مطالع شبابه آمن بالحزب ورفده بالكثير من الاسماء الفعالة في الجامعة الاميركية والأشرفية... ثم أنه ابن جبران تويني وجريدة النهار، جبران تويني من قادة الرأي العام في لبنان والنهار من صانعي هذا الرأي العام، ومن هداته!... غسان تويني حزب قائم بذاته، أسميت هذا الحزب يوماً حزب النهاريين.

لذلك، فرحت داخلياً ان يكون هذا التصميم على ترشيح غسان... كما فرحت بقبول شمعون باسم الحزب القومي الاجتماعي. كنت أعرف - رغم ان

مار مارون سوري وبطل سوريا كما يرتلون - ان الموارنة لا يرضون بكلمة سوري تدون رسمياً في سجلات وزارة الداخلية. كان علينا ان ننتظر فروسية كمال جنبلاط يقنع الناس بإعطائنا رخصة باسم الحزب كاملاً سنة 1971.

واجتمعنا في الحزب وتداولنا. ثم اجتمعنا في الشام وتداولنا. فكان إجماع على ترشيخ غسان!....

وكان ذروة ما أعطينا في معركة اسقاط بشارة الخوري في ايلول 1952 اشتركنا بقوة صارخة في مهرجان دير القمر في ذلك الصيف الساخن. الذي كان الرصاصة القاتلة لعهد بشارة الخوري.

كان أركان الجبهة الاشتراكية جميعاً: كمال جنبلاط - حميد فرنجية - كميل شمعون - اميل البستاني - اما غسان فقد تصدر معنا قيادة التظاهرة القومية في قلب دير القمر، كما أشرنا في هذه المذكرات.

كانت الحشود تملأ الساحات والشرفات والزواريب من مداخل دير القمر الى مخارجها... تجمعت القوى السياسية اللبنانية رموزاً ووفوداً في ذلك المهرجان الكبير. كان الرئيس بشارة الخوري على شرفات قصر بيت الدين يراقب بالمنظار. الذين كانوا بقربه قالوا عن لسانه: «انها بداية النهاية»! عقدة الذنب عن إعدام انطون سعاده بدأت تفعل فعلها الحاسم.

أما القوميون فقد كان ينظمهم مفوض عام لبنان الأمين حسن الطويل حماده. الاستنفار شمل جميع انحاء لبنان. أنا نفسي كنت قد حضرت ليلة المهرجان الى كفرنبرخ. فلما أزفت الساعة المضروبة التقينا بناء على تعليمات الأمين حسن في مداخل الساحة، كان في الصف الأمامي الرئيس فؤاد أبو عجرم، كامل أبو كامل، حسن الطويل حمادة، غسان تويني، عبدالله قبرصي، الأمير زيد الأطرش. وزحفنا والناس يزغردون من حولنا وعلى الشرفات والسطوح لمسيرتنا النظامية ويصفقون الى أن بلغنا الساحة الكبرى حيث كان أركان الجبهة الاشتراكية على شرفة في منازل الساحة، وبدأت الهتافات السورية القومية الاجتماعية لأول مرة في العرين اللبناني الذي تحول الى عرين قومي اجتماعي في تلك اللحظات التاريخية (تذكرت فوراً قصيدة المرحوم ميشال تلحمه مفوض الحكومة لدى المحكمة العسكرية المنشورة في المجلة

الكاثوليكية سنة 1919 التي يقول فيها عن دير القمر إنها لؤلؤة في جيد سوريا) كانت دير القمر في ذلك المهرجان لؤلؤة فعلاً.

وكانت الخطب، وكان الدوي الذي أحدثه المهرجان في صفوف الشعب، من أطراف لبنان الى أطرافه، وكان انضمام الرئيس سامي الصلح الى الصفوف وكان إضراب بيروت ولبنان الشامل الكامل وكان سقوط بشارة الخوري وعهده.

المعركة لم تبدأ وتنتهي في مهرجان دير القمر، كانت قد بدأت منذ تزوير الانتخابات في 25 أيار 1947 كما ذكرت في الجزء الثاني من «عبدالله قبرصي يتذكر». في سنة 1950 - 1951 شن كمال جنبلاط حملته الصحفية الشهيرة على بشارة الخوري ورياض الصلح في مقالة عنيفة أذكر ان عنوانها كان «جاء بهم الأجنبي فليذهب بهم الشعب». كان الفساد قد استشرى والنقمة الشعبية بلغت ذروة الخط البياني تصاعداً. حرك الحق العام عن طريق مدعي عام التمييز الدعوى ضد الصحف بما فيها جريدة «النهار» بتهمة القدح والذم برئيس البلاد وحكومته.

وكنت والنقيب فؤاد رزق وكيلين عن «النهار»، في قاعة المحاكمة أخذني كمال جنبلاط على حدة وقال لي: «تعالوا نعلن الثورة، أنا عندي ألفا بندقية، ماذا يمكنكم ان تقدموا...؟» كنا في ذلك الزمن العصيب نلملم جراحنا. لم نكن على استعداد لخوض مغامرة جديدة!

ودافعنا ـ النقيب فؤاد رزق وأنا ـ عن جريدة «انلهار» وتجمع عدد كبير من المحامين الناقمين على العهد دفاعاً عن باقي الصحف لأن أكثرها كان قد صار موضوع ادعاء من قبل الحق العام.

وصدرت الأحكام، برئاسة المغفور له القاضي الكبير زهدي يكن... كانت أحكاماً رمزية. القضاء نفسه مهماً ضغط عليه لا يمكن أن يكون غريباً عن الشعب!!!!....

القضاء شارك بهذه الأحكام الخفيفة في اسقاط عهد بشارة الخوري ورياض الصلح.

مصرع رياض الصلح

في كل ما سبق، ذكرنا رياض الصلح ضمن اطار أسود. صورناه على أنه مشترك في مصرع زعيمنا انطون سعاده. لم نقيمه تاريخاً وعملاً وطنياً ودؤوباً منذ مطالع شبابه. قبل ظهور انطون سعاده كان مثلنا الأعلى في العمل الوطني الاستقلالي رجلان في لبنان: رياض الصلح وعبد الحميد كرامي.

كنا نتابع ونحن على مقاعد الدراسة نضال هذين الرجلين الكبيرين في سبيل التحرير والوحدة. ومهما تكن درجات العداء الذي نشب بيننا وبين رياض الصلح، فإن الغضب والنقمة لا يجوز أن تعمينا عن فضائله، كما انه من صناع الاستقلال اللبناني والميثاق الوطني مع الرئيس بشارة الخوري. وهما يتحملان مع مساعديهما مسؤولية هذا الميثاق الطائفي - الذي سمي خطأ بالوطني - والذي لا يزال يدافع عنه بعض المقتنعين بصوابيته كالأديب والمفكر منح الصلح وأستاذنا الدكتور ادمون رباط مع طرح تعديلات عليه تتناسب وروح العصر والتطور والتجربة العملية. انها الواقعية التي منها ينطلقان.

كان يجب أن يكون رياض الصلح أول المتعاونين مع انطون سعاده الوحدوي مثله، رغم قوله بالعروبة الواقعية لا بالقومية العربية. التقيا في صوفر لأول مرة - ويمكن لآخر مرة - وتفاهما ان الغاء الطائفية يجب أن يتم في لبنان ولو كلفه عشرة الاف ضحية لأن الطائفية تهدد لبنان في مصيره....!

إلا أن رياضاً ما أكمل الطريق، مع الأسف الشديد!.

لقد اختار الكتائب. إنني وأنا أكتب هذه الذكريات لا يجوز لي إلا ان أنصف الرجل. ما كان بإمكان غير رياض الصلح أن يخلع عن الكتائب فرنسيّتها لتقاتل في سبيل لبنان ذي وجه عربي! ثم ما كان لغيره أن يواجه مخاوف

المسيحيين المتشبثين بفرنسا أماً حنوناً، بتدابير تطمئنهم واقعياً على ان رحيل فرنسا لا يعني رحيلهم، بل سيوفر لهم الاستقرار ويبقى طابع لبنان العام مسيحياً ببقاء رئاسة الجمهورية والكثير من الامتيازات لهم دون سواهم من الطوائف. لقد صنفوا مواطنين درجة أولى برضى وقبول رياض الصلح الذي قبل لهم بالامتيازات.

ثم ان دور رياض الصلح كان أساسياً في علاقات التحالف بين وطنيي لبنان والكتلة الوطنية في الشام. لقد كان تحمله مع عبد الحميد كرامي ملاحقات الفرنسيين واضطهادهم المستمر بأن للبنانيين دوراً وطنياً في قيادتهم ولو كان ذلك الدور مقتصراً على رياض الصلح متزعماً سنة بيروت وصيدا وعبد الحميد كرامي متزعماً سنة الشمال!.

قال لي يوسف الخوري سلامة وقد كان وكيلاً لرياض الصلح في دعاويه العقارية في لبنان الجنوبي ان رياضاً قال أمامه:

«لقد ارتكبت ثلاثة أخطاء في حياتي:

1 ـ جددت لبشارة الخوري.

2 ـ قتلت انطون سعاده.

3 ـ فسخت الوحدة الاقتصادية بين لبنان والشام.

ولقد تكرر ذكر هذه الاخطاء الثلاثة في مذكرات خالد العظم، حيث يشير في إحدى صفحاته عن رياض الصلح اقراره بهذه الخطايا....

لم يكن هنالك قوة تستطيع أن تحمي رياض الصلح من سخط القوميين... ومن انتقامهم العادل لأن الشعب في لبنان والشام وفي العالم العربي كان قد دان رياض الصلح على ارتكابه هذه الجريمة.

كان ميشال الديك يترصده من على السطوح المحيطة بمنزله ـ في محلة الناصرة ـ فلم يستطع استحكامه. فعاد الى الشام مصمماً على اغتنام فرصة آخرى مؤاتية.

وتبعت هذه المحاولات محاولة توفيق حمدان ـ عين عنوب ـ وكان توفيق من القوميين المتحمسين وهو لما يبلغ العشرين من عمره فأقدم بالتعاون مع بعض

الناقمين، وراح يترصد رياض الصلح الى ان كان مدعواً الى العشاء في منزل لآل غلاييني يقع وراء فندق في فردان (البريستول). لم يستطع توفيق أصابة هدفه، فألقي القبض عليه وحوكم وكان جزاءه الاعدام لو لم يتدارك الأمر رياض الصلح ويصدر عنه عفواً بإسقاط حقوقه الشخصية فحكم بالسجن المؤبد.

هذه المحاولة الفاشلة، عوضاً عن ان تريحه أزعجته أكثر. فازدادت هواجسه.

كان مرة مدعواً على نهر القاسمية في الجنوب، وقد أو لم له الاصدقاء وليمة كبرى دعي اليها المطران بولس الخوري خال زوجتي وشقيق صديقه الراحل المحامي فهيم الخوري. فما كانت تمر دقائق حتى كان رياض بك ينادي المطران بولس: «ياسيدنا وصي صهرك عبدالله في!...» تضايق المطران في آخر الأمر، فقال مرة اخرى ان: «الحزب بدو يقتلني وعبدالله فيه يخلصني!».

الى أن استدعاني يوماً، المحامي الكبير بهيج تقي الدين. كان لا يزال مقيماً في دارته القديمة في ساقية الجنزير،. وقد طرح علي بدون مقدمات: «لماذا تريدون رأس رياض الصلح، ليس وحده المسؤول عن اعدام سعاده. ثم ان هذا الاعدام لم يؤذ الحزب، بل أفاده لقد صار الحزب عالمياً، بمعنى ان الصحف الكبرى في العالم تتداول اسمه وقضيته وتتابع أخباره. لقد دفعكم رياض الصلح الى واجهة الأحداث وأصبحتم حزباً يحسب له حساب في الملمات. فلماذا تلاحقونه بقصد قتله؟».

قلت لبهيج، وكان زميلي وصديقي منذ أيام الدراسة وهو الى ذلك شقيق رفيقنا الكبير سعيد: «ان سعاده لم يعلن الثورة ويستشهد إلا من أجل القضية القومية التي يجسدها الحزب. نحن لسنا عشيرة لنثأر لدم انطون سعاده. أعظم ثأر لدمه هو انتصار قضيته. ماذا يقدم الرئيس رياض لخدمة هذه القضية، لخدمة هذا الحزب تكفيراً عن خطأه؟».

ثم أردفت: «نحن نذهب الى دمشق تسللاً. نحن أكثرية المجلس الأعلى المقيمون في بيروت، مستعدون للتفاوض. في الشام ليس أحد مستعداً لمثل هذا التفاوض. كلهم يريدون رأس رياض. قل له أن يسهل لنا المرور الى الشام،

لعلنا نستطيع ان نقنع زملاءنا أو أن نتخذ قراراً بالتفاوض». كنت مخلصاً وصادقاً في هذا العرض ولكني لم أكن مؤمناً بنجاحه!...

وعدني بهيج خيراً...

وكان مدعي عام بيروت المعاون الأستاذ رشيد الصلح، والذي تسلم رئاسة الوزراء في لبنان في سنة 1974 - 1975، وعام 1992 وكان نائباً عن بيروت، فاستدعاني بعد مقابلتي لبهيج وطرح علي الموضوع نفسه، فأجبته الجواب الذي أبلغته للأستاذ بهيج.

لم يكن بإمكاننا التحرك الى دمشق بسهولة، كما لم يكن بإمكاننا الاجتماع واتخاذ قرار ما بالموضوع فبقي معلقاً، علماً ـ كما قلت سابقاً ـ ان دم رياض الصلح كان مهدوراً عند كل القوميين من مشارق الأرض الى مغاربها. انه قاتل زعيمهم!.

قام الزعيم بثورة وفشل. فهو كان يعرف اما انه في الحكم او في القبر أو في السجن. أن رياض الصلح ارتكب خطيئة مميتة. هل كان من الممكن ان نعفو عنه.

هل كان لي الجرأة باتخاذ هذا الموقف عندما يطرح الموضوع للبحث في القيادة العليا للحزب؟.

ارجّح ان نعم... الا ان الأمر لم يطرح في القيادة العليا مطلقاً. لقد سبق اغتياله في عمان ـ كل بحث في الموضوع.

كنت اصطاف ذلك العام في عاليه قرب عين الرمانة... وكنت مدعواً ـ أو داعياً ـ سعيد تقي الدين للغداء في مطعم الغلاييني على الروشة في راس بيروت يوم 16تموز 1951 ونحن نتناول طعامنا والشراب مر بنا مدير الأمن العام فريد شهاب صديق الطرفين فقال لسعيد: «عبدالله قبرصي خطر... انتبه لئلا يدخلك في الحزب». فأجاب سعيد: «لقد دخلت».

فذهل المير فريد وهز رأسه تبرماً وانصرف.

سعيد أوصلني ذلك النهار الى عاليه... فارتحت بعد الظهر، وجلست حوالي الرابعة أشرب قهوتي وإذا بابني البكر صباح يأتي راكضاً لاهثاً إلي

ويخبرني: «قتل رياض الصلح في عمان».

قلت له: «كيف قتل؟».أجاب: «أظن في حادث طائرة».

قلت: «نحن لا نفرح في أحزان الناس، رحمه الله». فغاب صباح خمس دقائق وعاد راكضاً لاهثاً: «بابا، بابا، قتله القوميون».

تصور أيها القارىء، ان قاتل زعيمي قتل، فماذا يكون موقفي؟ بالشعور بالعفوية البسيطة التي لا تحتاج للفلسفة ولا للتحليل، كنت ساعتئذ ككل قومي اجتماعي في مشارق الأرض ومغاربها، فرحاً ان العدالة أخذت مجراها. ان القاتل قتل. حملت صباحاً ورحنا كلانا نبكي. تلك هي غريزة الانتقام المتأصلة في دم الإنسان، وتلك هي شريعة العدالة المتأصلة في ضمير كل رجل قانون متى كان منصفاً...

في تلك اللحظات لم أعد رجل دولة. لقد كنت إنساناً...! من لحم ودم. ابن محيطي وضيعتي وتربيتي. لا يزال الثأر شريعة وبطولة!.

وجاء القوميون الى منزلي زرافات ووحداناً. انهم يريدون حمايتي. لقد انتقلت الهواجس الينا. الهواجس كر وفر. انها دائماً ضد القاتل ولو محقاً... القاضي الذي يحكم مجرماً بالاعدام، لا بد ان يخشى بينه وبين نفسه انتقام ذويه مهما كان حكمه عادلاً....!

بدأنا بجلسة شراب في مقهى البالاديوم في عاليه. كان رجال رياض الصلح يؤمون ذلك المقهى بكثرة... جلسنا وعددنا يناهز الستين، وأكثر هم بسلاحه، نشرب نخب ميشال الديك ومحمد صلاح، اللذين خططا للانتقام ونفذاه في عمان... فلما سمع رجال رياض وأدركوا صحة الخبر، حزموا أمرهم وانصرفوا وعلى وجوههم الاغتمام الممزوج بالحيرة والشك!.

وانتقلت الى خيمة في كروم آل كتانة في ضهور عاليه كان يحرسها قومي اجتماعي من فرساننا الميامين يدعى أسد سيف الدين. أرسل يطلب نجدة وسلاحاً، فلم تمض ساعتان حتى كان الكرم مطوقاً بالمسلحين، ونصب في وسط الكرم FM وهو متريالوز يطلق 25 طلقة في الثانية... كما قيل لي.

عرض علي المسلحون أن يهاجموا قصر الرئيس بشارة الخوري الذي كان

على مقربة من الكرم، فعارضت بشدة. وجمعت المسلحين وأنبأتهم اني أنا القائد وان أحداً منهم غير مخول بإطلاق رصاصة واحدة الا بأمر مني. كان علي أن أضبط المشاعر بل الغرائز لكي لا ينفجر الغضب ونقع في مطبات الحماسة غير المنضبطة وغير الواعية!.

في تلك الليلة أرسلت في طلب الرفيق فؤاد زحلان، رجل الملمات آنذاك في الحزب وفي عاليه بالذات وقلت له اني أصادره مع سيارته طوال ذلك الليل. فحضر ونفذ كعادته، وهو تاجر أصلاً ولكنه بعد دخوله الحزب كان رجل الساعات العصيبة.

كان الرئيس السابق للجمهورية اللبنانية الاستاذ شارل الحلو وزيراً للعدل في ذلك الحين وكان رئيس الوزراء عبدالله اليافي. شارل حلو كان رفيقي أيام الدراسة في معهد الحقوق الفرنسي وكان من المتفوقين. رفقة المدرسة ولو كانت جامعية تربط ابناء الصف الواحد بروابط متينة. فكانت بيننا تلك الروابط.

قررت ان أفاجئه في مقر اصطيافه في عاليه حيث كنت قد زرته سابقاً. فرحت أطرق بابه حوالي منتصف الليل. لم أجده. انتحيت مع فؤاد زحلان زاوية منحرفة عن الطريق العام ورحت أنتظر الى أن وصلت سيارته أمام الدار وراح يصعد الدرج بخفة وسرعة ووراءه شرطي. تم دخوله الى منزله وإقفاله الباب وراءه بسرعة البرق. أما أنا فسرت وحدي على مهل ورحت أصعد الدرج متأنياً لئلا يتبادر الى ذهن أحداني «حرامي» أو قاصد شراً. فإذا بالشرطي يعود فيراني فينتهرني: «إلى أين؟». قلت: «أنا المحامي عبدالله قبرصي أريد مقابلة الوزير». قال: «تقابله في مكتبه وبناءاً على موعد أما في هذه الساعة من الليل، فلن تدخل!». قلت بصوت عال منفعلاً: «أنت تحرسه من أعدائه، هل تحرسه من اصدقائه أيضاً. انه رفيقي في المدرسة وأنا أحضر في مثل هذه الساعة لشأن خطير يتعلق بأمن الدولة».

سمع الأستاذ شارل ففتح الباب يسأل: «من القادم؟» فصحت: «عبدالله قبرصي...»أسرع الى استقبالي ناهراً الشرطي المعاند. ودخلنا.

قال لي الاستاذ شارل: «ان اشاء الله انك قادم لتختفي في منزل وزير العدل؟». قلت: «لا بل قادم لا طالبه بالعدل. ان رياض الصلح قتل في عمان. ليس لأحد منا في لبنان علاقة بالأمر. فوجئنا كما فوجئتم بمصرعه. خذوا علماً ان كل قومي اجتماعي شارب حالياً حليب السباع. يده على زناده. إذا تحرشتم بالقوميين أو تحرش أحد من جماعة رياض الصلح، فسنحرق الاخضر واليابس. شغل الدولة في عمان، إذا ثبت علينا شيء سنتحمل تبعاتنا كالمعتاد بلا خوف ولا وجل». قال لي: «اطمئن سنوفد الرئيس زهدي يكن ليتابع التحقيق في عمان. اياكم ان تحركوا ساكناً. الحكومة تترصدكم».

وانصرفت في تلك الساعة مغادراً قاصداً دار الوزير بشير الاعور في قرنايل. هو أيضاً من ابناء صفنا في معهد الحقوق الفرنسي في بيروت الذي يتعهده الاباء اليسوعيين. قال لي فؤاد زحلان: «فإذا وجدناه نائماً؟». قلت: «نوقظه. نحن اخوان لا صديقان». كان الاستاذ بشير في تلك الوزارة وزيراً للصحة والاسعاف العام.

من حسن حظي وجدت البيت منوراً. في الحديقة صوت ساهرين. صح ظني كان هنالك والده وأصدقاء. سألت عنه فقيل لي انه في مناسبة اجتماعية لن يلبث أن يعود. فانتظرت وإذا به قادم مع قرينته. ذهل لما رآني في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

قال: «خير ان شاء الله. قلت: «لقد مررت الآن بالوزير شارل حلو وعرضت عليه حاجتي». وكررت ما قلت له. فأجابني الاستاذ بشير على الفور. «هدء روعك، لن ينالكم منا أذى، احذروا من ردود فعل جماعة رياض بك. أما الحكومة فتنتظر نتيجة التحقيقات في عمان. إذ اتخذنا بعض التدابير، لا تقلقوا لأننا نريد استيعاب موجة الغضب في البسطة وسواها».

اطمأننت وانصرفت شاكراً.

يوم الصلاة على جثمان الرئيس رياض الصلح في الجامع العمري الكبير كان قريبي جبران جريج يسير في مأتمه. كانا قد تصادقا في قلعة راشيا وتعاونا على ما جاء في كتابه أيام الاستقلال في راشيا: أما أنا فكنت على

شرفة مكتبي اقف متهيباً احتراماً للموت. ولقد شاهدت الرئيس بشارة الخوري ينزل من سيارته محاطاً بسوار من الدرك، ليدخل الجامع ويؤبن رياض الصلح تأبيناً بليغاً، بعد ان كان يكيد له بواسطة شقيقه السلطان سليم! سمعت بأذني هذه العبارة: رَحِمْتَ وَلَمْ تُرْحَمْ!... كان يشير الى اسقاط الحقوق الشخصية عن توفيق حمدان الذي حاول قتله ولم يفلح.

داهمت السلطة بيوت قادة الحزب في بيروت والجبل بحثاً عن السلاح أو عن دليل مادي يمكن ان يتخذ أساساً للملاحقة، فلم تعثر على شيء. كان القاضي الذي انتدب لتفتيش منزلي في بيروت الدكتور فؤاد الصغير من مشغرة. يقول في مذكراته اني توسلت له، لكني طيلة حياتي لم أتوسل لأحد مهما حلّ بنا من صعاب.

كان من العواقب الأولى لمصرع رياض الصلح ان اتسعت شقة الخلاف بيننا وبين كمال جنبلاط. فالرجل بعد ان دخل سعيد تقي الدين الحزب بالطريقة التي دخل فيها أزور عنا لا سيما بعد مقتل رياض الصلح ؟؟ لقد حمل علينا حملة شعواء. كمال جنبلاط دائماً مع الضحية.

انتدبت للاجتماع به في بيت النائب بيار اده، شقيق صديقنا العميد ريمون. كانت قد توثقت بيننا وبين آل اده عرى الصداقة بعد ان انتصرنا للسيد بيار ضد الشيخ بيار الجميل في معركة المتن. كانت المعركة ساخنة جداً وكان دورنا فيها حاسماً لمصلحة آل اده.

اجتمعت مع الاستاذ كمال جنبلاط. شرحت له ما تم بشأن ادخال سعيد تقي الدين، مبرراً ما ورد من عبارة نابية بحقه في بيان سعيد وقلت له ان هدفنا كان ان تتوحد القوى الوطنية في الجبل لتصبح أكثر فعالية وأكثر نفوذاً. فلم يقتنع. لقد كنت أقصد، في اطلاقي ذلك القول، ان أجمع ما بين كمال جنبلاط وسعيد تقي الدين، الذي كان يخاصمه، فأجمع الشوفين تحت راية واحدة.

قلت له: «ان القضاء إذا توسع في التحقيق بمقتل رياض الصلح، قد يجد ما يأخذه عليك محرضاً، فاستجوابك التاريخي في مجلس النواب، ومجابهتك

له في جلسة علنية، كان تحدياً وتحريضاً بالوقت نفسه. فإذا انتقم القوميون لدم سعاده كإنما استجابوا لتحريضك!». قال: «أنا ضد الاغتيال ضد التآمر على حياة الانسان. اني أعرف قاتل أبي، فإذا مرّ فجأة أمامي قد أشعر بنزوة للانتقام منه ولكني لم أخطط يوماً لمثل هذا الانتقام ولن أخطط».

قلت: «لكن بعض القوميين وبعض الناس يقولون في سرهم إذا لم يقولوها في العلن ان كمال جنبلاط يستغل دم القادة السياسيين، فيحمل على مقتل انطون سعاده ليربح محازبيه وينتصر لدم رياض الصلح ليربح أنصاره». قال لي الأستاذ كمال: «ليقل الناس ما يشاؤون، أنا لا أتصرف إلا بوحي وجداني».

الايجابية الوحيدة في مصرع رياض الصلح التي جناها الحزب، كانت أنه أصبح مرهوباً أكثر. لقد قويت شكيمته وشكيمة القوميين. والنتيجة المباشرة لهذه الرهبة ان أقبل رسل الشيخ بشارة الخوري وفي طليعتهم الحاج حسين العويني يطالبون بعدم التعرض له... الحاج حسين العويني ما أساء الينا يوماً. كان صديقاً لنا ودوداً ما رد لنا طلباً يمكن ان ينفذه.

كيف قتل رياض الصلح ومن قتله؟؟؟؟

قمت بنفسي بتحقيقات في عمان عندما لجأنا اليها سنة 1962 على أثر محاولتنا الانقلابية الفاشلة. رحت الى الطريق التي سلكها الشهيدان ميشال الديك ومحمد صلاح والرفيق اسبيرو وديع، شاهدت الموقع الذي «غرقت» فيه السيارة التي كان يقودها اسبيرو هارباً باتجاه جبل العرب... أما نتيجة تحقيقاتي فكانت التالية:

- في الصفحات السابقات أتيت على ذكر ميشال الديك. قلت انه أقسم بحضور الأمينة الأولى أن يقف نفسه للثأر لدم انطون سعاده. وقلت إنه جاء الى بيروت يترصد رياض الصلح في جيئته وذهابه الى داره في محلة الناصرة. كان قد استأجر مقهى في درعا بعد ان أخفق في بيروت. وقرأ في الصحف ان رياض الصلح قادم الى عمان لإجراء مباحثات مع الملك عبدالله بن الحسين. فاستدعى الرفيق محمد صلاح الخبير باستعمال السلاح لأنه كان في الشرطة أو في الجيش، استدعاه لأنه كان قد اتفق معه على التعاون في تأدية المهمة التي أخذها على عاتقه. فلما حضر محمد ووضعا الخطة ومع اسبيرو وديع حداد الذي استحضر من الجبل أيضاً، توجه ميشال الديك الى دمشق وقابل عميد التدريب الأمين عبدالله محسن... وأنبأه بما سيفعل.....

استهمله الأمين عبدالله ليعرض الأمر على رئيس الحزب ومجلس العمد فلم يمهله وعاد ليقوم بالمهمة على مسؤوليته الشخصية.

ان من يدعي في الحزب ان قراراً صدر من القيادة الشرعية ليس صادقاً أياً كان. القرار اتخذه الثلاثة الذين اسميتهم وحدهم، دون موافقة نظامية ومسؤولة من أصحاب الصلاحية: المجلس الأعلى ورئيس الحزب ومجلس

العمد. أنا لو طرحت المسألة على المجلس الأعلى لعارضت وفشلتها رغم حقدي على قاتلي سعادة.

وحدث ما يلي:

كان الرئيس رياض الصلح في فندق فيلادلفيا يستقبل المودعين من رسميين وأصدقاء. فشاهد قبل التحرك ثلاثة شبان بين المودعين... فسأل الدكتور نسيب البربير عنهم، فقال له انه لا يعرفهم، فأوجس خيفة، ولقد ذكر لي المرحوم بشارة مارون، صاحب جريدة الرواد على ما أذكر، أنه سمع رياضاً وهو يدخل سيارة الملك عبدالله يقول:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

وأدرك ان لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما

نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا..

وأرجح أنه كتب هذه الواقعة في جريدته على أثر مقتل الرئيس رياض الصلح.

وانطلق الموكب المهيب، وفي آخره سيارة الهيلمان يقودها اسبيرو، وميشال الديك في المعقد الخلفي الى اليمين ومحمد صلاح الى اليسار.

كانت الطريق ضيقة في بدايتها، فلم تتمكن الهيلمان من التقدم، حتى إذا اتسعت بعد مسافة غير طويلة، أسرعت الى ان أصبحت في محاذاة سيارة الملك، فشهر عندئذ محمد صلاح مسدسه وقال لرياض الصلح:

«خذها من يد انطون سعاده».

وانطلقت رصاصتان، استقرت واحدة في رأسه والثانية في قلبه، فلفظ الروح فوراً.

وراحت الهيلمان تنهب الأرض ووراءها حرس رياض الصلح من آل العرب والشرطة والأمن الاردني... الى ان غرقت في كومة من الرمل فهرب منها اسبيرو باتجاه دمشق وهرب ميشال ومحمد باتجاه المستشفى العسكري... كان

الرصاص ينهمر كالسيل. اسبيرو قطع مسافة صغيرة الى الجانب الآخر من الطريق شاهراً مسدسه، فوجد سيارة تحمل صناديق من زجاجات الخمرة... فأوقفها وهدد السائق فأذن له بالاختباء بين القناني الفارغة وأنقذ نفسه.

أما ميشال ومحمد فلوحقا. أصيب ميشال في رجله فلم يعد يقوى على الحراك. طلب من محمد ان يطلق رصاصة على رأسه لئلا يقتله الملاحقون ففعل واستمر محمد هارباً يطلق النار الى ان حوصر، فأطلق ثلاث رصاصات تجاه قلبه فلم يمت، لأن الرصاصات جاءت جانبية، فحمله الملاحقون من الشرطة والجيش الى المستشفى العسكري القريب وهو ينشد:

«سوريا لك السلام، سوريا نحن الفدا.... نشيد الحزب الرسمي».

قال لي الدكتور محمد أمين تلحوق مدير المستشفى ان الملك عبدالله تلفن له قائلاً: «أريد ان تنقذوا هذا المجرم لأعرف منه من هم الكلاب الذين أرسلوه...؟» كان الملك مغتاظاً جداً.

مقتل رياض الصلح في سيارة الملك تحد له... كما يمكن ان يتبادر الى الذهن عفوياً....

وأجريت العملية الجراحية لمحمد صلاح، واستخرجت الرصاصات ونجا من موت محتم. فلما أفاق في صباح اليوم التالي، وزال مفعول التخدير حيته الممرضة وسألته إذا كان يحتاج شيئاً. فطلب منها كوباً من الليمونادة وان تقفل الباب وراءها. ففعلت. فإذا به ينبش المضمدات ليصل الى القطب، فمزق المضمدات والقطب معاً، وراح دمه يجري نازفاً بغزارة. في الدقائق العشر التي مرت على غياب الممرضة كان محمد قد طلب الموت لنفسه للمرة الثانية. انها اسطورة لا تصدق لو أنها لم تقع مع قومي اجتماعي، وشهد صحتها شهود عدول!...

وكتبت جريدة البناء، لسان حال الحزب السوري القومي الاجتماعي في عددها الصادر في 17 تموز 1951 في دمشق: «خذها من يد انطون سعاده. وانطلقت رصاصتان... خرّ رياض الصلح صريعاً».

اللهم اني لا أتشفى، اني اتأمل.

أليست من المفارقات ان يكون رجلان وطنيان، انطون سعاده رجل العلم والفلسفة العبقري، ورياض الصلح المجاهد وأذكى حكام العرب، سبباً في قتل وأحدهما الآخر؟... لولا موافقة رياض الصلح ما أعدم انطون سعاده، ولولا إعدام انطون سعاده ما قتل رياض الصلح.... ثم ولنذكر بالمناسبة ان انطون سعاده لو كان مارونياً أو كان سنياً ما أعدم!... هكذا يقول العارفون!

كان شقيق المير مجيد قام بحركة عصيان في صوفر أدت الى مقتل جنديين لبنانيين، ولأنه شقيق المير أعفي..... هذا هو لبنان.....

محمد بعلبكي وغسان تويني

وصل الى المجلس الأعلى اقتراح من الرفيقين محمد البعلبكي وغسان تويني. كنا في دمشق قد استمعنا الى الأمينة الأولى وجورج عبد المسيح في شكواهما على فريد الصباغ من ضهور الشوير. في وقت من الأوقات كان فريد يد الزعيم اليمنى. كان الوسيط بينه وبين الوزير غبريال المر أيام مقاومته مذكرة التوقيف، كما كان الوسيط بينه وبين الاستاذ نجيب الصايغ الذي دخل الى الحزب فيما بعد، كما كان يرافق الرفيق ادمون طوبيا - بيت شباب - في تردده على الشيخ خليل بشارة الخوري..... الامينة الاولى وجورج عبد المسيح شنا عليه حملة شعواء. اتهماه بالخيانة. ما كان بإمكان المجلس أن يتوسع بالتحقيق فرئيس الحزب وزوجة الزعيم يتهمان.... اتخذ القرار الصارم بحق فريد الصباغ وهو الطرد من الحزب.

أعيد النظر فيما بعد بهذا القرار بناء على مطالعة الامين مصطفى عبد الساتر. وبرأ فريد الصباغ.

وطرحنا مشروع الرفيقين بعلبكي وتويني للمناقشة. سئل غسان ومحمد بعلبكي عن تفاصيل هذا المشروع. كان المشروع واضحاً:

الرفيقان يقترحان ان تقتصر نشاطات الحزب على المبادىء الاصلاحية وان يكون للبنان قيادة لبنانية. أبديت مطالعتي رافضاً هذا الاقتراح كما قاومت مشاريع سابقة بنفس المعنى والاتجاه. تقدمت من خالد مورلي بخصوص قيادة شامية للشام كنت أرى ان أي تدابير ادارية لفصل الكيانات السورية الواحد عن

الآخر معناه التسليم بالكيانية والرضوخ للأمر الواقع. وقد وافقني المجلس الأعلى على هذا الموقف. كما كان يتضمن الاقتراح ان نوصل القانون الدستوري الرابع المتعلق بانتخاب مجالس المنفذيات بعملية انتخاب اعضاء المجلس الأعلى، فيشترك مندوبون من المجالس مع الامناء لانتخاب اعضاء المجلس او يستقلون وحدهم بانتخابه. رفض المشروع جملة وتفصيلاً.

الخلافات بين الاخوة

من ركائز فلسفة ماركس، ان الصراع الطبقي هو محرك التاريخ....

لست هنا مناقشاً ماركس في فلسفته. لغيري من عشاق الفلسفة أو من الفلاسفة ان يناقشوا مؤيدين أو معارضين. أنا أعتبر ان الصراع الاجتماعي، الذي يأخذ أشكالاً طائفية أو مذهبية في كثير من الأحيان هو محرك التاريخ في بلادنا. حديثاً جداً هذه الحرب العراقية ـ الايرانية ما كانت لتقع لو ان صدام حسين شيعي!. بل ما كانت لتحدث لو ان الخميني سني!.

انها حرب طائفية مذهبية بنظري لا دخل للقومية فيها رغم ان كل مظاهرها تشير الى انها حرب فارسية ـ عراقية.

وبصورة عامة، أعتقد ان محرك التاريخ هو الانانية الفردية.

كل هؤلاء الفاتحين من أثينا الى روما الى فرنسا الى تركيا الى المانيا الى كل مكان تحت الشمس ما فتحوا الامصار ليعلوا شأن أوطانهم فقط، بل ليلعوا شأنهم الشخصي الفردي، لا استثني الا الدعوات الدينية أو العقائدية. لو ان عند انطون سعاده جيشاً لحقق الوحدة القومية ومن ثم وحدة العالم العربي بحد السيف، لا من أجل انطون سعادة بل من أجل تأدية رسالته.

ولو ان ماركس كان لديه جيش لحقق الشيوعية الدولية بحد السيف لا من أجل ماركس الانسان بل من أجل عقيدته التي كان يتصورها منقذة للعالم ومخلصة من الظلم والأوهام تماماً كالدعوة المحمدية التي ألهبت العرب فدقوا أبواب فرنسا بعد ان احتلوا اسبانيا.

الأنانية الفردية في الحزب ظهرت بكل بشاعتها عندما طمح اثنان من

القادة لخلافة انطون سعاده: عبد المسيح بالدرجة الأولى ومعروف صعب بالدرجة الثانية.

قد أكون مخطئاً الا أنني أدون هنا قناعاتي واستنتاجاتي الشخصية من الوقائع والأحداث التي سمعتها أو شهدتها بنفسي.

قيل لي ان منشوراً وزع في شمال لبنان، يزعم فيه كاتبوه ان انطون سعاده أوصى بخلافته الى الأمين م.ص. أتصور أنه من السهل معرفة من هو الأمين م.ص. من بين ثلاثة عشر أميناً.... انه معروف صعب.

هذه واقعة رويت لي تكراراً. لم أر المنشور بنفسي.

لم يكن معروف صعب ولا جورج عبد المسيح ولا واحد منا نحن امناء سعاده مؤهلاً لخلافته. هو بذاته، حسب تقديري وملاحظاتي، كان يعد الامين السابق فخري معلوف لهذه الخلافة وقد يكون في ذهنه أيضاً هشام شرابي لأنه كان يحبه ويقدر ذكاءه وعلمه.

الأمين فخري اختار الكهنوت، وهشام شرابي اختار العمل الفكري، يتقلب مع قناعاته وتجاربه. لو قرأنا كتابه « الجمر والرماد» لقرأنا عن الحقائق القديمة والحقائق الجديدة. كانت حقائق الحزب هي حقائقه. ان هشام رجل فكر وعلاّمة.

الا ان عبد المسيح كان أوفرنا حظاً بتسلم السلطة. المقرب الى الزعيم منا قبل استشهاده كان الأمين الدكتور عبدالله سعاده الا انه كان قد انخرط في مهنة الطب، بين طرابلس والسعودية فلم نكن نؤمل ان نحظى به قائداً.

والأمين معروف صعب، الشخصية القومية والواعية والقادرة. لم يكن قد تفرغ للعمل الحزبي. مثلنا نحن الباقين كانت له مهنة التدريس والتعليم مورد رزق. أما عبد المسيح فلم يكن باستطاعته بعد ان حكم بالاعدام غياباً في لبنان، ان ينصرف الى أي عمل خاص، حتى في البلاد العربية، لأن الحكومة اللبنانية كان بإمكانها أن تطارده في كل مكان الا في الشام حيث استقر، في حماية نظام يحتاج الى الحزب والحزب يحتاج اليه لكي لا نقول ان قائده كان قوميا اجتماعياً، لأنه ككل من يصل الى السلطة تصبح السلطة غايته، الا إذا

كان كما قلنا سابقاً صاحب رسالة أو رجل عقيدة مؤمناً بها ايماناً رسولياً.

وجورج عبد المسيح هو القومي الاجتماعي الأول. كان دائماً الى جانب سعادة بخاصة في الساعات الخطرة. لقد كان جورج من فرساننا الشجعان كما أسلفت القول. وهو يحمل شهادة بكالوريوس اقتصاد من الجامعة الاميركية، يخطب ويكتب بسهولة. ويعرف الحزب اعضاء ومناطق اكثر من أي واحد منا الا الرفيق جبران جريج الذي نذر نفسه هو الآخر للقضية القومية الاجتماعية ناسياً نفسه ومطامحه الفردية نسياناً مطلقاً. كما ان ثقافته الحزبية كانت واسعة ومنيعة.

كان اذن من حق معروف صعب ان يطمح وكان من حق عبد المسيح ان يطمح ويطمع، لأنه المتفرغ طوعاً او قسراً لأنه يعمل للحزب ليلاً نهاراً فضلاً عن كسبه رضى الامينة الأولى وتأييدها.....

هذا التنافس كان خفياً في البداية فالرجلان أمينان تعاونا تعاوناً مخلصاً ونزيهاً تحت رعايتها.

ولكن فوجئنا في احدى الجلسات سنة 1953 بأن الخلاف نشب حاداً بين جورج عبد المسيح ومعروف بشكوى يقدمها عليه معروف ويتهمه فيها بأنه مصاب بعقدة الرئاسة وينتقد تفصيلاً أعماله وإدارته وسلوكه انطلاقاً من هذه العقدة. وبدوره كان لدى عبد المسيح لائحة بشكاويه من معروف صعب الذي يجمع الطلبة في داره وبعض القوميين من اصدقائه ويحرضهم على عبد المسيح.... فاتهمه بالتحريض على العصيان.... عدا عن لائحة أخرى، لا تعدو الأقوال المسيئة الى سمعة الرجلين.

درس المجلس الأعلى هاتين الشكويين، غير مرتاح، بل ان بعضنا كالرئيس فؤاد أبو عجرم استشاط غيظاً أن تصل الأمور الى هذه الدرجة من التنافر والتفرقة. وبعد حوار طويل استقر الرأي على احالة الشكويين الى التحقيق. وعينت أنا شخصياً محققاً فيهما.

لم يكن لدينا في الحزب آنذاك قانون للمحكمة، فرحنا نبتكر الاعراف الجديدة أو نطبق القواعد المعروفة والشائعة في قوانيننا في سوريا ولبنان. كل

ما بدلناه هو قسم الشهادة فعوضاً عن القسم بالله العظيم بدلنا القسم لنجعله منسجماً مع قسم الانتماء: «أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي ان أقول الحقيقة كل الحقيقة....».

تسلّمت الشكويين آسفاً ومتألماً فعلاً.

جورج عبد المسيح رئيسنا، ومعروف صعب من شخصياتنا المميزة، يختلفان هذا الاختلاف الغريب؟ ألم أبدأ بالقول ان محرك التاريخ هو الانانية الفردية؟ ان الخلاف بنظري ليس عقائدياً، انه مظهر التنافس على قيادة الحزب.... لقد مات الأمين معروف ورحل جورج عبد المسيح.

لقد قلت هذا القول في قرار الاتهام وأكرره في هذه الذكريات لعل فيه بعض الفائدة للأجيال الطالعة، ولكني على يقين من ان أحداً لا يسمع، لأن الخلافات القائمة حالياً على قدم وساق تكرار لما حدث بين جورج عبد المسيح ومعروف وأسوأ بكثير لأنها أدت الى الانشقاق فالاقتتال.

أذكر حادثتين بهذه المناسبة، الواحدة تتعلق بالموضوع والثانية خارجة عنه، ولكن الحادثتين تفضحان الفردية والتفرد:

ذهبت مع رئيس المجلس الأعلى الأمين فؤاد أبو عجرم لمقابلة الأمين معروف صعب في منزله، لنخفف من غلواء الخلاف الناشب ونلطف حدته. فإذا بالأمين معروف ينتفض في وجهنا غاضباً ويقول لنا: «سأدوس رأس جورج عبد المسيح!» كاد فؤاد ان ينفجر بوجهه فاستوقفته وانصرفنا دون حادث جديد وكل واحد منا مغتم وغضبان من هذا التصرف الشاذ فعلاً.....

أما الحادثة الثانية فوقعت سنة 1955في أواخرها. كان قد بدأ الهمس عن ان جورج عبد المسيح يتفرد ويتصرف كديكتاتور في الحزب بعد مصرع العقيد عدنان المالكي، وبدأت تصل أخبار هذا الهمس الى سَمْعه. انعام رعد كتب في جريدة «صدى لبنان» يحمل على ستالين والسياسة الستالينية في القمع والارهاب، وكان جورج يعرف اني وفؤاد أبي عجرم وأديب قدورة وعبدالله سعاده وراء هذا الهمس. كنت قد أصبحت رئيساً للمجلس الأعلى وإنعام رعد ناموسه. وكان علي كرئيس للمجلس الأعلى، لأني انتخبت في 1955/1/9 لهذه المسؤولية،

ان أتوجه الى بيت مري ليلاً. كان جورج عبد المسيح ملاحقاً من الشام ومن لبنان، فطرحت عليه بعض المواضيع الملحة التي على جدول أعمالنا للتداول بها قبل انعقاد الجلسة، فقاطعني فجأة ليقول لي: «تتهمنني بأنني ستالين الحزب. قل لأديب قدورة وإنعام رعد وفؤاد أبو عجرم والآخرين انني سأحطم رؤوسهم!».

فوقفت غاضباً وقلت له: «لا تنس أيها الرئيس انك في حضرة رئيس المجلس الأعلى. لا أسمح لك بهذه الكلمات المُحطَّة من قدرك وقدر الرئاسة». وانصرفت دون ان أكمل البحث متجهماً. هذه الحادثة جرت سنة 1955 كما ذكرت.

هل يجوز ان أنشر هذه الحوادث العابرة، العاتبة بالغضب والسخط.... والاستهتار بقواعد التعامل بين الرفقاء؟

جوابي القاطع ان من واجبي ان أرويها. انها نتاج «عشائريتنا» في ترسباتها البغيضة. انها الدليل ان ترسبات تربيتنا العتيقة القائمة على شموخ الاستكبار كانت لا تزال فاعلة ببعض قادة النهضة.

ان القادة المناضلين الذين حملوا اعباءها بصلاة المؤمنين - حق علينا بأن نعطيهم حقهم - ولكن علينا أيضاً أن نثبت في التاريخ - لان هذه الذكريات من أوراقه الى حد ما - انهم كانوا بشراً معرضين للوقوع في مثل هذه الخطايا التي تقع في كل الدول وكل الأحزاب، والتي لا تليق بمقامات كتلك التي تصيب رجال أخذوا على عاتقهم تحقيق أعظم نهضة في الشرق الأوسط!... هل يجوز للنهضويين ان يكونوا قبائل حتى ولو بصورة طارئة وفي ساعة غضب...؟

تسلمت الشكوى اذن، ورحت أحقق فيها في فندق قطان حيث كنت أقيم فاستمعت الى شهود عديدين من طلاب من اطباء ومسؤولين، واستمعت مطولا الى افادة الامينة الأولى، ونظمت بعد ذلك قرار الظن، فأحلت الى المحكمة الحزبية التي كنا بصدد تأليفها ووضع قانون لها، كلا من الامين معروف والرئيس عبد المسيح... ولكن الملف طار مع ما طار من أوراق وملفات... كان قد تعين الامين أسد الاشقر رئيساً للمحكمة وحدد يوم 29 نيسان 1955 موعداً

للمحاكمة فكان ان قتل العقيد المالكي وتعطل كل شيئ... أما المخالفات فقد كانت الخروج على نظام الحزب، والقدح والذم.... الخ... هذه المخالفات وسواها من الصراعات على السلطة غيرت وجه تاريخ الحزب المشرق وحولت بعض فصوله من صراع مرير ضد المفاسد والرجعية والارادات الاجنبية الى صراع على الرئاسات والوجاهات والمغانم، أهكذا تكون الثورية والنهضوية والمثالية والمناقبية؟... يجب الا تكون هذه الصراحة وهذا الصدق سبباً للاعتقاد ان قادة الحزب واعضاءه انانيون، وللتاريخ اثبت كم كان بعض القادة والأعضاء ابطال في المواقف لا يخافون الموت والتضحيات.

رحلة الى القدس

كان ذلك سنة 1953 والضفة وقطاع غزة حران. كانت لا تزال فلسطين نصفين نصف اسرائيلي محتل ونصف عربي.

يحضر الى مكتبي من جزيرة كوراسوا - في بحر الكريبي - صديق لوالدي المقيم فيها والذي لم أكن قد تعرفت اليه بعد، لأنه هاجر سنة 1912 ولي من العمر سنتان... هذا الصديق هو حنا السمندر من بيرزيت، في فلسطين المحتلة حالياً.

لم أكن أعرف القدس، كانت محطتي الأخيرة في رحلاتي المهنية والسياسية عمان - عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية - وللسيد حنا السمندر دعوى فيها ومطلوب مني ان أعمل جهدي لحلها حبياً لأنها تتعلق بزواج غير موفق....

تحمست للدعوى كما تحمست للرحلة. انها المناسبة النادرة لزيارة الأراضي المقدسة مع شريكة حياتي وحبيبتي الزوجة الوفية والأمينة جورجيت بربر.

كان حنا السمندر العائد من كوراسوا بعد غياب طويل رجلاً هادىء الأعصاب كريم النفس بسيط المظهر بسيط الحديث. ما مضى بضعة أيام على وجوده في بيروت حتى أحسسنا أنه صار واحداً من العائلة. ثم مع الزمن راح يبحث مبادىء الحزب ويدرسها فأظهر رغبته بالانتماء، فقدم طلبا درس وأقر قبوله فأقسم اليمين، وأصبح مرافقي الخاص.

كل موكلي في المحاماة كانوا يصبحون اصدقائي. من الناحية المعنوية

كنت دائماً أنا الرابح خاصة إذا ربحت الدعوى أما من الناحية المادية فانا دائماً الخاسر ولو ان الحكم صدر لمصلحة موكلي. قلّة نادرة كانت تسدد أتعابي بدقة وأمانة وكثرة كانت تحاول باستمرار تناسي حقوقي وعدم دفع بدل الأتعاب اللهم الا الدفع بعبارة: «تحيا سوريا». و«شكراً حضرة الأمين»!.

حنا السمندر لم يصبح فقط صديقي بل رفيقي أيضاً. بعد ان نظم لي وكالة مطلقة الصلاحية سلمني شيكات سياحية بعشرة آلاف دولار اميركي لتكون نفقات لي، من جهة، ومبلغاً أسلمه الى زوجته في حال قبولها بالطلاق او بفسخ وإبطال الزواج.... علماً انه كان مستعداً بأن يدفع ما أقرره شريطة ان يتخلص منها.... هرب الى كوراسوا لكي لا يعيش معها بالمناقمة والمشاكسة والشجار، وها هو يعود لينهي علاقاته بها ويتزوج ويمضي ما تبقى من عمره براحة وأمان وسعادة.

اننا نعتز في المشرق العربي، في سوريا الطبيعية التي منها فلسطين، ان الروابط العائلية مقدسة، وان العائلة يجب أن تكون وحدة اجتماعية متماسكة لأن الوطن مجموع عائلات، بقدر ما تكون صغراها متينة ومتلاحمة بقدر ما يكون الشعب متماسكاً ومتلاحماً...

ومن أصعب ما مر علي من الدعاوى في ممارسة مهنة المحاماة تلك التي تستهدف التفريق بين الزوجين أي هدم عائلة قائمة. في مسألة حنا السمندر كان الامر الواقع هو العكس تماماً.... كان حنا في المهجر وزوجته تعمل في أحد المستشفيات في القدس. لم يتعاشرا. لم يبنيا بيتاً وبالتالي لم ينجبا أولاداً. اذن أنا إذا أقمت الدعوى أو أنهيت العلاقة الزوجية، فإني أسهل قيام عائلة... أكون بناء لا هداماً.

حملت الوكالة والمال، وتدبرت أوراق السفر أنا وزوجتي وتوجهنا بادىء ذي بدء الى عمان. كنت قد حصلت أنا وزوجتي على عنوان رفقائي فيها وعلى عنوان أفضل فنادقها...

وكان علي عند وصولي ان أصادق وكالتي من وزارة الخارجية الاردنية. كان الحسين بن طلال قد توج ملكاً على الاردن وبدأ يمارس صلاحياته بقدرة

وفروسية لفتت أنظار الشعب في كل طبقاته. كما كان نظامه الملكي نظاماً دستورياً ديمقراطياً.... على غرار بريطانيا.

إذن كنا في جزء من وطننا مستقر وآمن. وكان حزبنا قد اشتد ساعداً في تلك الحقبة على أثر مصرع سعاده البطولي وما اثاره هذا المصرع من عطف على الحزب وإعجاب بأبطاله ونزلنا في فندق كونتينتال، ومنه اتصلنا بالشباب.

عقدنا اجتماعاً في دار أحدهم، وكان عددهم فوق العشرين عضواً. أذكر أني كنت أحدثهم عن أحوالنا ونشاطاتنا والمصاعب التي تعرقل مسيرتنا، فمد أحدهم عنقه فحجب وجهي عن الآخرين. فانتهره واحد منهم قائلاً: «زيح راسك تتضل شايفين وجه الامين ونتبارك منه». بهذا الايمان العارم ظل هذا الحزب ينمو ويتوسع رغم افشاله وأزماته».

يومين في عمان، متّعنا انفسنا فيهما بلقاء من نحب، وانطلقنا الى رام الله فنزلنا في فندق عوده الشهير بعد ان كنا حصلنا على عنوان الامين مصطفى ارشيد الذي كان نائباً في المجلس النيابي الاردني ومنفذاً عاماً للضفة الغربية.

كان علينا ان نزور في القدس كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وبيت لحم ومغارة الميلاد.

ففعلنا.

كانت زوجتي مؤمنة. جدها كاهن ارثوذكس وخالها مطران أرثوذكس. ما دخلت كنيسة القيامة أو كنيسة المهد أو كنيسة الجسمانية الا خاشعة. تصلي من أعماق صدرها. أما أنا فلم أكن أنعم بكل هذا الايمان وان أكن لست ملحداً. هي تطلب من الله لعائلتها العافية والتوفيق ولصديقاتها العاقرات البنين والبنات ولامها وذويها طول العمر، وأنا أطلب من الله الا يحرمني نعمة الاستشهاد في سبيل بلادي.

وزرنا المسجد الاقصى وشاهدنا الصخرة التي أسرى منها النبي محمد.

وفي الليل، أخذنا بعض الرفقاء وهم عديدون في القدس ـ لنرى أنوار تل أبيب وحيفا ويافا تتلألأ ـ كاد ان ينفجر قلبي لشدة خفقانه عندما رأيت مدن بلادي تحت الاحتلال الاسرائيلي لا أستطيع الوصول اليها!...

متى يا رب نستعيد أرضنا وشرفنا القومي المستباح؟ هؤلاء الذين أسميناهم شذاذ الافاق يقيمون دولة على أنقاض أمجادنا تساعدهم الدول التي سهلت لهم سبل اغتصاب أرضنا وتشريد شعبنا.... متى يا رب نعود الى سابق قوتنا، متى نمتلك أسباب التفوق على هذا العدو الرهيب ومن وراءه!.

وجاءنا في اليوم الثاني المنفذ العام المحامي النائب مصطفى ارشيد من الكفير - قضاء جنين - كانت مفاجأة سارة. لم نكن التقينا به من قبل... لم أكن رأيت له صورة. هتف بي الى فندق عوده في رام الله، وقال انه قادم ثم وصل ونودي علي لأنزل الى الصالة وأقابله: كانت الصالة تغص بالركاب وزوارهم، فما ان تطلعت بالوجوه حتى رحت تواً الى الأستاذ مصطفى لأعلن له: «أنا الأمين عبدالله قبرصي». فيهجم عل ويعانقني كأننا نعرف بعضنا من ألف جيل!.....

صرنا محاميين والدعوى تحتاج الى واحد.....

تحدثنا عن القضية القومية. مصطفى ارشيد ليس تلميذاً. انه معلم. يحاضر ساعات في الدعوة القومية الاجتماعية دون ان يتلعثم. يعرفنا واحداً واحداً. كما يعرف النهضة بنداً بنداً ومرحلة مرحلة. تساءلت على الفور: «لماذا ليس مصطفى ارشيد أميناً». انه محام ونائب. انه يعمل جاهداً من عمان الى بيروت ومن القدس الى نابلس الى جنين. ماذا ينقصه ليكون في القيادة.....

دعينا معاً الى بيرزيت، الى بيت السيد ابراهيم السمندر ابن عم موكلنا ورفيقنا حنا السمندر. ذهلت ونحن نتناول طعام الغداء مع الرفيق مصطفى عندما أخذ يتحدث عن النبي والمسيح كأنهما انسانان عاديان. زوجتي اكفهرت وجهاً. أنا صمتت احتراماً لمصطفى. أهل البيت يتطلع واحدهم بالآخر وعلامات استفهام عريضة ترتسم على وجوههم! من يكون هذا الملحد؟.

قطعت الحديث، لأبحث في الدعوى. كنا قد كلفنا السيد ابراهيم السمندر ان يفاوض باسمنا زوجة حنا السمندر. وان يعرض عليها ما تشاء لقاء اقرارها بعدم حصول زواج فعلي، وبالتالي تسهيل ابطال الزواج أو فسخه لأن الفريقين لاتينيان! كان جوابها لا مفاوضة ولا مصالحة ولا طلاق ولا بطلان... رفضت كل العروض رفضاً قاطعاً.

تعرفنا على بيت ووالد الشهيد كمال ناصر، ولم نشاهده هو شخصياً. كنت قد قرأت شعره ومقالاته وكنت معجباً بثوريته ووطنيته وأدبه. اسف اننا لم نلتق حتى في بيروت حيث استشهد مع يوسف النجار وكمال عدوان... على يد الصهاينة المجرمين في 10 نيسان 1973؟ كما أنا آسف اني ما تعرفت على ضمير الثورة الفلسطينية! ثورة الحق على الباطل. ثورة الخير على الشر. ثورة العز على الذل والاستذلال!!!

دعانا الرفيق مصطفى ارشيد الى قصره في الكفير. ما كان بالامكان الرفض. يجب أن أتعرف على مقر القيمة الفكرية والسياسية التي ألقاها في الأرض المقدسة.... ويجب ان اتخذ موقفاً من الالحاد!.

ورحنا ننهب الأرض الى نابلس والكفير. كان النهار الذي قضيناه من العمر جلسنا تحت الزيتون الذي عمره ألف عام. كما ألقينا نظرة من بعيد على قلقيليا وجنين....

ورحنا نتحدث من جديد. مصطفى ارشيد موسوعة قومية اجتماعية، وموسوعة تاريخية.... يحدثك فلا ينضب جرابه. لو كان ابن العم جبران جريج معنا لملأ «جعبته» أخباراً وأفكاراً.....

لم أشأ ان أغادر قبل أن أعطي توجيهاً فكتبت ما معناه ووضعته في ظرف وسلمته الى المنفذ العام.....:

«ان الحزب لا يتدخل بين العضو وبين معتقداته الماورائية. له الحق «ان يؤمن أو لا يؤمن. الايمان لا يفرض لا بالنظام ولا بالقانون ولا بالقوة. الا ان الحركة القومية الاجتماعية تحترم معتقدات اعضائها والمواطنين وتترك لهم حرية الممارسة مطلقة بشرط الا تسيء الى وحدة المجتمع. لذلك يمنع على القوميين اعلان الحادهم لئلا يفسحون في المجال أمام خصومهم بالادعاء اننا حركة ملحدة. فإذا كان منع اعلان الالحاد شاملاً الاعضاء فكيف لا يشمل المسؤولين في القيادة كالأستاذ مصطفى ارشيد؟؟!!».

عدنا الى بيروت، وقد عملنا للحزب أكثر مما عملنا للدعوى.

حيثما توجهنا دعوانا الأولى والكبرى هي الحزب. ما تبقى ثانوي رغم

أهميته ورغم اننا بذلنا المستطاع لوضع حد نهائي للخلاف بين الموكل وزوجته فما أفلحنا.

صرفنا من العشرة آلاف دولار اميركي ثلاثماية فقط. وأعدنا الباقي الى الرفيق حنا السمندر . انه حي يرزق ويشهد بالحق.....

لا ننسى عندما ساقتنا الأقدار الى كوراسوا سنة 1963 أي بعد عشر سنوات، اننا وجدنا لنا بيتاً، وأخاً هو حنا السمندر وأختاً هي زوجته كريستين صقر.

لقد كانا ملاذاً، نؤم دارهما فكأننا في دارنا ..... لقد كرمانا كرم الله أيامهما وحياهما وبياهما.

أما الأستاذ مصطفى ارشيد فأخباره آتية: لقد منحناه رتبة الأمانة، ثم انتخبناه رئيساً لحزبنا سنة 1956 - 1957.

كتبت عن هذه المرحلة التي قد تبدو خارج الموضوع لأؤكد على أننا لسنا في لبنان والشام فقط بل نحن لنا جذور في فلسطين والأردن.

نحن وجمال عبد الناصر

لنترك خلافاتنا الداخلية ولنتحدث عن خلافاتنا مع الآخرين. لنتحدث عن خلافاتنا مع الرئيس جمال عبد الناصر أعظم قائد مصري عربي عرفته العصور المتأخرة. لقد كان ظهوره ظهور نبي منتظر. العروبيون والمسلمون في كل مكان هللوا وكبروا ثم دخلت الأصابع الاجنبية والحساسيات الشخصية والتنافس على زعامة العرب، فكانت الخلافات بدءاً بحلف بغداد وانتهاء بحرب اليمن مروراً بالوحدة المصرية السورية!.

من فضائل نهضتنا انها ليست حسودة وليست غيورة. نحن نحب لكل بلد عربي ما نحبه لسوريانا. لذلك، كان انتصار محمد نجيب وعبد الناصر وشلة الضباط الأحرار في مصر انتصاراً لأفكارنا التقدمية التحريرية. فكان موقفنا الفوري العفوي ان صفقنا للثورة المصرية، لأنها أنقذتنا من شاه مصري بانتظار ثورة تخلصنا من شاه ايران. الشاهات في المشرق العربي وفي المغرب العربي أحياناً يحافظون على تيجانهم بقوة الدول الاستعمارية لا بقوة جيوشهم وشعوبهم!.... هكذا كان فاروق وهكذا كان البهلوي!.....

وجاء كتاب عبد الناصر في فلسفة الثورة ليعطينا دليلاً على ان الرجل يعرف ما يريد. وان لا خلاف بيننا وبينه طالما انه يثور من أجل مصر ومن أجل فلسطين ومن أجل كرامة العرب وتحريرهم من الاستعمار!.

لا أرسل هذا القول جزافاً فجريدتنا البناء شاهد وموقف رفيقنا الصحافي اللامع جبران حايك، الذي وفق في وساطته بين عبد الناصر والسودان فوضع حداً لخلاف كان يمكن ان يتصاعد حاداً لولا تلك الوساطة.

وهذه جريدة رفيقنا محمد بعلبكي، صدى لبنان، كانت معبرة نسبياً عن

موقفنا ورأينا في لبنان وقد كتبنا فيها المقالات الطوال وكانت مكاتبها أمكنة تلاقينا مع موفدي عبد الناصر وأذكر منهم أحمد سعيد بالذات.

ولم يقتصر الأمر على التأييد الكتابي والكلامي، فقد سافر غسان تويني ومحمد بعلبكي وجبران حايك وعصام المحايري الى القاهرة لمقابلة عبد الناصر بعد ان تسلم دفة الأحكام والتفاهم معه والتعاون.

وكانوا كلهم موضع ثقته وإكرامه. أذكر مثلاً عصام المحايري رئيس الحزب فيما بعد، ان والدته كانت تمر مع الجماهير التي وفدت لاستقباله عند زيارته دمشق بعد الوحدة، استوقفها الرئيس عبد الناصر ليسأل عن الأمين عصام وهو طريح سجن المزة!!!.

كان بنظرنا منذ الساعات الأولى قائد ثورة مصر، وكان بنظر من استعدوه علينا البكباشي! وللتاريخ أذكر أنه ساعد جريدتنا البناء في دمشق مدة من الزمن، لأننا كنا دائماً بحاجة الى المساعدات المالية. مصروفنا يفوق دخلنا بأضعاف أحياناً.

وجاء الصاغ صلاح سالم موفداً من قبل عبد الناصر، فكانت لقاءات صداقة بينه وبين المكلفين من رفقائنا باستقباله والتعاون معه....

لم تكن علاقاتنا ـ كما لمحت سابقاً ـ مع البعثيين والشيوعيين علاقات ود بل كانت علاقات خصام. كانوا يتعمدون التصادم معنا فيما كنا نتلافاه قدر الامكان. الا ان المصادمات كانت تقع. في طرطوس وقعت، في صافيتا وقعت، ووقعت في دير الزور. وكان من عواقبها الوخيمة سقوط قتلى وجرحى!!....

ويبدو ان صدر البعثيين والشيوعيين ضاق بنا منذ ان تعاونا مع الشيشكلي في بداية عهده. ثم ان قولنا بالقومية السورية، وان موصوفة بالعربية، ما كان يروق لهم. القومية العربية يجب ان تكون مذهب كل الأحزاب، ولا أحزاب الا للقومية العربية! تلك كانت بنظري «دكتاتورية» الديموقراطية. ألم يواجهنا في الثلاثين المحامي شاهين (الشيوعي) أمام محكمة الجزاء: لا حرية لأعداء الحرية كأننا نحن اعداء الحرية.

كان البعثيون والشيوعيون المتحالفون قد اختاروا الوحدة بين مصر والشام

وراحت وفودهم الى القاهرة لإقناع عبد الناصر بتبني هذه الوحدة.... كلما ازداد نفوذهم لدى عبد الناصر كلما ازداد ضغطهم علينا في الشام... وأبعدوا عبد الناصر عنا. كان مقرراً مثلاً ان يزور الصاغ صلاح سالم جريدة البناء في دمشق الساعة الثالثة من أحد الأيام سنة 1953. وما ان أزف الموعد حتى كان يهتف بالادارة أنه ألغى الزيارة ويعتذر عن الالغاء. داخلت عبد المسيح الريب والشكوك وكان على حق. لقد عرفنا بعد ذالك ان البعثيين والشيوعيين خيروا عبد الناصر بين التعاون معهم أو التعاون معنا.... فإذا كان التعاون معهم يجب على عبد الناصر مقاطعتنا وأخيراً معاداتنا.....!.

ونجحوا في المقاطعة والمعاداة!.....

هم قوميون عرب، اذن حلفاؤه الطبيعيون، ونحن سوريون قوميون، اذن أخصامه الطبيعيون!. هكذا أوهموه أو أقنعوه. وهنا كانت شرارات الاختصام والاقتتال!.....

كنت خارجاً من قصر العدل القديم في بيروت، فالتقيت بالأستاذ سليم اللوزي صاحب الحوادث ورئيس تحريرها في ذلك الزمان، ففاجأني: «ياعبدالله، لماذا هذا العداء بينكم وبين عبد الناصر؟؟؟؟». فأجبته: «عبد الناصر أعلن علينا الحرب، فيما كنا أول حلفائه في هذا العالم العربي؟».

انه لصحيح اننا كنا في لبنان حلفاء كميل شمعون لأننا اشتركنا معاً في اسقاط بشارة الخوري، ولأننا كنا من أركان الجبهة الاشتراكية ولأننا كنا محتاجين اليه لإعطائنا رخصة للعمل بعد ان حلت المحكمة العسكرية الحزب، ولأننا كنا محتاجين اليه لإعفاء رفقائنا من الأحكام الصادرة بحقهم على أثر ثورة سعاده سنة 1949، وكان عددهم كبيراً. ثم انه كان صديقاً لرفيقنا وقتذاك أديب الشيشكلي.

وكان من المعروف ان كميل شمعون حليف بغداد، حليف الوصي على العرش وحليف نوري السعيد والجميع حلفاء الانكليز.... هل نحن أيضاً في نفس الموقع....؟

والحقيقة انه لم يكن بإمكاننا اعلان العداء لسياسة كميل شمعون، لحاجتنا

الكبرى اليه، بعدما أصابنا من مصائب، فسكوتنا كان مأخذاً علينا وكان لنا نوعاً من التحدي من قبل خصومنا.... كانوا على حق وكنا على حق. ان للضرورة أحكامها!.... لقد كنا في موقع الدفاع عن النفس، عن البقاء!.

وراحت مفاوضات الوحدة مع مصر تتقدم. وكلما تقدمت كنا نحن نتقدم في رفضنا اياها. لم نكن نرفضها من موقع سياسي لأنها لا ترضي الامير كان والانكليز والفرنسيين، كنا نرفضها من موقع عقائدي. ان الوحدة المصرية ـ السورية تعرقل وحدة الهلال الخصيب، اذن تعرقل وحدتنا الطبيعية كانت حجتنا ان وحدة مصر والسودان هي الوحدة الطبيعية... فلماذا لا يحققها عبد الناصر. وكانت حجتنا ان لا رابط بينهما جغرافي يربط مصر بالشام بوجود اسرائيل. فكيف يمكن تحقيق وحدة قطرين لا رابط بينهما الا الطائرة والسفينة؟.... كانت حجتنا ان وحدة سوريا والعراق والاردن وفلسطين ولبنان هي الوحدة التي يجب ان يناضل في سبيلها القوميون العرب لأنها وحدها طريق ما يطمحون اليه من وحدة عربية شاملة. كانت حجتنا ـ وقد كتبنا ذلك بالحرف ـ اننا نخشى على سوريا، التي في نفسها كل علم وكل فلسفة وكل فن ان تصبح ايالة مصرية، مع علمنا ان مصر وسوريا ركنان كلاهما من أركان الحضارة الانسانية، هذه الحضارة التي كانت في العصور الخاليات ربيبتهما في ما بين النهرين وفي وادي النيل.

وراحت تتسع الشقة بيننا وبين البعثيين والشيوعيين في الشام، بيننا وبين الناصريين في لبنان. لم نستطع اقناعهم ان لنا وضعاً خاصاً. كان هدفهم تصفيتنا، وكان هدفنا معارضة مشروعهم الوحدوي عقائدياً.

وكان نجم عبد الناصر يسطع كل يوم أكثر من الذي انصرم. راح بعض الناصريين يرى وجهه مشعاً في القمر.... لقد أصبح تياراً كاسحاً. لقد كانت مقاومته ضرباً من الغفلة عن واقع الحال. كدنا ان نخسر حتى المحمديين من امنائنا ورفقائنا، فيما أقبل علينا المسيحيون الذين أصيبوا بالرعب من ان يصبح لبنان نجمة ثالثة في علم الجمهورية العربية المتحدة... خسرنا المحمديين نحن السوريون القوميون الاجتماعيون وربحنا المسيحيين رغم سوريتنا.... لقد راح المسيحيون يعتقدون اننا وإياهم تلاقينا في مقاومة

الناصرية. ان المظاهر خداعة اذا لم يصل الباحث الى أعماقها والجذور.

لا أحاكم الآن موقفنا هذا بما له وما عليه. اني أترك هذه المحاكمة الى أحداث سنة 1958 التي كانت عملية فرز رهيبة في لبنان..... لقد فتحت أمامنا أبواب الجامعة اليسوعية. رفيقنا محمد بعلبكي راح يحاضر من على منبرها عن المواطن الصالح محاضرة قيمة صفق لها الحضور طويلاً... صار لبنان الحصن الذي نتحصن فيه بعد ان كاد يصبح مقبرة لنا ولحزبنا....!

السؤال الذي سأجيب عليه لاحقاً هو: «لو اننا استمرينا في العلاقة مع عبد الناصر، ما الذي كان بالإمكان ان يحدث؟».

ولكن لا بد ان أسجل منذ الآن، اننا ما قطعنا العلاقة مع العملاق الأسمر، هو الذي قطعها مؤمناً بفعالية خصومنا العقائديين، متخلياً عنا لأننا بعد سقوط الشيشكلي أصبحنا من الناحية الشعبية الاضعف والأقل نفوذاً.... ولنا عودة الى هذا الموضوع....!

محاولة قتل الاستاذ يوسف شريل

هاأنذا عائد الى الوراء.

قصتان مثيرتان لا بد من التوقف عندهما:

1 ـ نجاة يوسف شريل من رصاص حسين الشيخ.

2 ـ لقاء تاريخي مع الكونت دي شايلا.

لنبدأ بيوسف شريل:

كان هذا الرجل قاضياً شهيراً بخشونته وفظاظته واستقامته معاً... ومع ذلك كانت له صداقات بين القضاة والمحامين لا تقل عن صداقات غيره. يبدو أنه في مجالسه الخاصة كان مرحاً كما أنه كان وفياً للأصدقاء وظريفاً في التعامل معهم.

ما دارت على لسان محام ـ حتى ولو كان النقيب ميشال عقل ـ الذي كان يَنتَصِبُ في قصر العدل مجلجلاً في ساحته الكبرى يفضح القاضي الفلاني وينتقد قاسياً القاضي الآخر... ما كان اسم يوسف شريل يرد على لسانه... اذن كان يوسف شريل قاضياً ممتازاً. كان دليلنا جميعاً لمعرفة أسرار القضاة ذاك المحامي الفاجر المحبوب الذي انتخبناه فيما بعد نقيباً علينا ميشال عقل. كانت أحكامه مبرمة وعادلة فلو اتهم بريئاً لصدقناه؟؟؟

ومع ذلك فقد كان بعضهم يتهامس سراً ان يوسف شريل على علاقة جيدة بالانكليز لأن مستشار السفارة مارون عرب كان باستمرار يمر بقصر العدل قارعاً بابه ويختليان طويلاً.

هذا القاضي كان هو الذي تسلم ملفات الحزب في حزيران سنة 1949

ليشن أعنف حملة علينا، حملة لم نشهدها عند افتضاح أمرنا أيام الانتداب الفرنسي. تسرب الينا عن لسانه أنه قاوم ملاحقتنا في القصر الجمهوري: «انهم حزب مرخص، فكيف الاحقهم»؟. ثم انهم معتدى عليهم لا معتدون، جرحاهم يملأون المستشفى، فما هي حجتي في تعقبهم ومعاقبتهم».

وكانت الدولة مصرة على الملاحقة فتابع دون قناعة. مركز مدعي عام التمييز مركز سياسي. شاء أم أبى، انه قاضي ظن لا قاضي حكم. لا يستطيع عصيان أمر الحكومة....

كان بإمكانه فقط ان يستقيل فما استقال. لقد تابع. ليس سهلاً ان يتخلى مدعي عام التمييز عن أرفع منصب قضائي في قصر العدل بموازاة الرئاسة الأولى لمحكمة التمييز.

شئنا أم أبينا، بين القاضي والمتهم حالة عداء. كل متهم ـ لا نحن فقط ـ حتى ولو أخذ بالجرم المشهود يظل قادراً على استنباط حجج لتبرئة نفسه او لاتهام القاضي بظلمه... هكذا نظرنا الى شربل عندما شن علينا هجومه الصاعق!.... نظرنا اليه وإلى الحكومة التي أصدرت القرار السياسي كظالمين.... بنظرنا توحدنت المسؤولية فالمقرر والمنفذ سيان رغم ان التعمق في التحليل يجعل من المنفذ أداة ولا يجوز ان نساوي بين الأداة ومستعملها....

ليس في العالم حتى الآن دولة شرطتها منتقاة من بين الملائكة. فالمجرمون ـ حتى المتهمون منهم وهم ابرياء ـ يلاقون في أقبية التحقيق جميع أنواع الاهانات واللكم والضرب وحتى التعذيب. ان صديقي المغفور له المحامي والشاعر ومدير الشرطة صلاح لبابيدي يخبرنا في مذكراته كم قسا على المتهمين بسرقة بيت السيد ناظم العكاري، رئيس حكومة سابق، الذي كان صديقه وصديق الكثرة الساحقة من عارفيه. لقد جاء المتهمون الى محكمة الجنايات وآثار الكهرباء والسياط في أجسامهم.... شاهدتها بعيني لأني كنت وكيلاً عنهم وقد ساعدتني على الحكم بتبرئتهم!....

اذن المعاملة اللاإنسانية ـ لكي لا أقول الوحشية ـ التي عوملنا بها أيام يوسف شربل ومن ورائه الحكومة المقررة لم تكن غريبة عن الحياة، لا في لبنان

ولا خارج لبنان. ان لغة التعذيب وحدها اللغة التي تحمل المتهمين على الاعتراف بجرائمهم رغم ما يعتور تلك الاعترافات أحياناً من بطلان، اذ يضطر المتهم ان يتهم نفسه للنجاة من الركل واللكم والكهرباء والسياط!.... عندما يصبح التحقيق بدون عنف، نعتبر ان الأرض صارت سماء....!

ولكان الانسان في تناوله واقع الحياة، يجد تبريرات من هنا وهنالك لتصرفات شربل وكل الذين يأتمرون بأمره من محققين وضابطة عدلية ومباحث. لو ان الأمور وقفت عند حدود مألوفة، لقد تجاوز شربل وضابطته كل الحدود. بل ان شربل نفسه في مطالعاته لدى المحكمة العسكرية كان أقسى على انطون سعاده وعلى سائر المتهمين من ضابطته ومباحثه. كان قلمه يقطر سماً فيما كان يقطر دماً...

من هنا كان من المستحيل أن تغض قيادة الحزب عنه الطرف بعد ان سقط قبله الرئيس الصلح مضرجاً بدمه في عمان. فإذا بنا نقرأ يوماً خبر محاولة اغتياله وإصابته في رجله ونقله الى المستشفى في حالة غيبوبة.... ثم نقرأ افتتاحية جريدة «النهار» بقلم غسان تويني تشجب وتستنكر محاولة اغتياله. اعترف هنا ان غسان عرض علي المقالة قبل نشرها وتبنيتها... ان يوسف شربل قاض، ومن غير المقبول الاعتداء عليه.... ان القاضي يقوم بواجبه، سواء كان مقتنعاً أو غير مقتنع، فمن الواجب احترام هذا الواقع.... وإلا فنحن نتحول الى جماعة ارهابيين بل اننا نرتكب جرم الاعتداء على جلالة العدالة رغم استحالتها الى مظالم على يد بعض القضاة!.....

نجا يوسف شربل وما نجا الرئيس جورج عبد المسيح من المحاسبة. فقد حملت مقالة غسان تويني وطرحت الموضوع في المجلس الأعلى، فكانت النتيجة انكار عبد المسيح أي علاقة بالحادثة. وقد دونت أجوبته على محضر الجلسة.

الا ان الأيام أثبتت لي فيما بعد وبإقرار منه انه كان وراء محاولة القتل. وان محيي الدين كريديه وحسين الشيخ نفذا أمراً حزبياً...

لقد ذكر لي عبد المسيح اسم الكاهن الذي أرسل معه السلاح الى

الفاعلين. والكاهن لا يزال حياً يرزق. اني أمسك على ذكر اسمه احتراماً لكهنونته، أما عبد المسيح فلن يستاء فقد كان مقتنعاً أنه أنزل عقاباً عادلاً بشريل.

وجاءت أحداث سنة 1958 وصدر قانون العفو العام في 4 كانون الأول منها وهو يقر عفواً عاماً عن الجرائم المرتكبة بدافع سياسي.... أو التي لها طابع سياسي....

تقدمت بطلب تشميل العفو للحكم الصادر على حسين الشيخ ومحيي الدين كريديه بالاعدام الى مدعي عام التمييز الجديد الاستاذ اميل الهنود، فرفض طلبي لأن الاعتداء على قاض لا يمكن أن يكون جرماً سياسياً لأن القاضي من السلطة القضائية المستقلة كل الاستقلال عن السياسة والسياسيين!....

فرحت الى المجلس العدلي وكان مؤلفاً من الرئيس الأول بدري المعوشي وأسعد البدوي وجورج عيسى الخوري وكامل مزهر وسواهم... وجلس في كرسي النيابة المدعي العام التمييزي اميل الهنود شخصياً..

لم تقم بيني وبين يوسف شريل أية علاقة شخصية ومع ذلك قصدته الى مبنى مجلس شورى الدولة الذي كان يرأسه واعتذرت منه اني سأطالب بتشميل العفو الجرم بمحاولة قتله. كان فظاً كعادته.... ولكنه وعدني بعدم التدخل. هل صدقته؟....

وجئت أرافع أمام المجلس العدلي ـ كان حسين الشيخ قد كلف وهو في ليبيريا الامين علي غندور بمساعدته وهو الذي أوكل الي الدعوى ـ وكانت حجتي ان مركز مدعي عام التمييز سياسي، وان لم يكن كذلك، فإن مطالعة شريل التي أدت الى الاعتداء عليه مطالعة سياسية أقحم فيها شخصه، إذ راح يتهكم على سعاده: فاستعجلونا فجئناهم على عجل... ميتهم شهيد ومولودهم سعيد ـ ان الزرازير لما قام قائمها.... وأخذت من المطالعة المنشورة في كتاب قضية الحزب القومي، جملة مقاطع يهاجم فيها شريل الحزب كعقيدة وكأشخاص وكسياسة... وأثبتت بما لا يقبل الشك ان هذه المطالعة تجعل من شريل ممثلاً للحكومة في حملتها على الحزب.... والحزب سياسي والحكم

سياسي والدعوى برمتها سياسية والحكومة هي المظهر السياسي للدولة فيما الدولة هي المظهر الحقوقي السياسي للمجتمع.

شربل تحول من مدعي عام الى ممثل السلطة السياسية في الدولة فحل محلها وجسد كل أحقادها على الحزب وعلى زعيمه.

وهنا أسجل باعتزاز للقضاء اللبناني الذي جسده المجلس العدلي برئاسة القاضي الكبير بدري المعوشي وقفته التاريخية باعتبار جرم محيي الدين كريديه وحسين الشيخ سياسياً وان يكن وقع على قاض لأن أسبابه وظروفه ودوافعه كلها سياسية!.

لو كان مقدوري ان أعلق وساماً على صدر كل واحد من اعضاء المجلس الأعلى لعلقت! انه لموقف مشرف للقضاء اللبناني منذ ان تأسس الى يومنا هذا. فيوسف شربل زميل للقضاة وقد يكون صديقاً عزيزاً عليهم من جهة. ومن جهة ثانية كلهم قضاة درجة أولى وقد يتعرضون لنفس الحادثة، ومع ذلك، حكم هؤلاء القضاة حكماً عادلاً، قانونياً، ما دخلت الذاتية ولا في حرف من حروفه! انه انتصار تاريخي للقضاء اللبناني!.

هل تعود بعد هذه الحرب الفاشلة الظالمة القائمة اليوم في لبنان، تارة بين الاعداء وتارة بين الاخوة، هل تعود الى العدالة هيبتها؟ وهل سنجد في المستقبل قضاة من نوعية بدري المعوشي وزملائه وإميل أبو خير وتلك الشلة من المنارات القضائية في لبنان والعالم العربي؟ جورج السيوفي ـ اسعد البدوي ـ كامل مزهر ـ نعيم العياش ـ صبحي المحمصاني وفي الطليعة اميل تيان!....

ولننتقل الى اللقاء مع الكونت دي شايلا.

هنا أيضاً نعود الى الماضي!

على أثر انقلاب الشيشكلي وتسلمه زمام الحكم في الشام، وبعد مصرع الرئيس رياض الصلح، جاءني الى قصر العدل أحد الرفقاء من بيت مري، وقال لي ان شخصية فرنسية نافذة تود التعرف اليك. فتلاقيت مع تلك الشخصية، كان اسمها كوليه Collet بعد المجاملات، أسر الي ان السفير الكونت دي شايلا يود ان يتعرف الي وأنه يدعوني الى كأس في منزله الكائن بين الصنايع وبرج المر في حي القنطاري.

والتقينا.

كل لياقة ولباقة الدبلوماسي - بخاصة إذا كان فرنسياً - كانت مجسدة في شخص الكونت دي شايلا. مهابة في بساطة وعلم في تواضع ونبل في ديمقراطية متأنقة هادئة ومتألقة معاً.

كنت أتصور ان المطلوب وضع أسس لقيام علاقة بين الحزب وبين فرنسا. وكنت أعرف من أحاديث سعاده مع السيد كيفر سنة 1936 في المفوضية العليا، كما أعرف من تكليفي في 23 أيار 1949 الاتصال بدي شايلا، ان مثل هذه العلاقة مفيدة للحزب على الصعيد الدولي وعلى الصعيد الداخلي. لقد كانت الكتائب اللبنانية ربيبة فرنسا الاستعمارية، فلماذا لا تقوم علاقة بيننا وبين فرنسا الباستيل والحرية والديمقراطية، فرنسا الرافضة للاستعمار بكل أشكاله.... فرنسا الجديدة، فرنسا الحقيقية لا فرنسا المزيفة.

وكان السؤال الأول الذي طرح علي: «ما هو مدى علاقتنا في العمق بأديب الشيشكلي؟» فهمت فوراً ان الدافع لهذا اللقاء هو ما كان شائعاً عن علاقتنا الحميمة بالقائد المنتصر... طبعاً أكدت وجود هذه العلاقة التي كانت بالفعل صحيحة في بدء عهده. أذكر القارىء اني كتبت آنفاً بأن بيان الانقلاب الأول نظمه رفيقنا وديع الاشقر، وأننا كنا على وشك تسلم الأحكام في الشام، على ما يذكر بعض القادة.

سألت بدوري كيف تتعاملون والشيشكلي؟. فقال السفير: «نحن نتعاون معه كحليف، اننا ننجده بالسلاح».

وكنت قد قرأت بدوري عن صفقة سلاح يعقدها الشيشكلي مع فرنسا.... فتأكدت لي صحة ما قرأت.

ودهشت، بعد ان عرضت عرضاً سريعاً، بموقفنا من فرنسا، ولاستعدادنا لإقامة علاقات ودية معها، ان الحديث مع السفير أخذ وجهاً آخر. سيظل الحديث سراً ويذهب معي الى القبر.

قال السفير: «حسناً فعلتم بالتخلص من رياض الصلح الذي قتل زعيمكم، ولكنه لم يقتله وحده هنالك شركاء له».

قلت: «يا سعادة السفير، نحن لم نقتل رياض الصلح بقرار حزبي. لقد قتله رفقاء لنا فبارکنا. لم يكن بالامكان الا ان نبارك. نحن لسنا جمعية ارهابية ولا فريق اغتيالات!».

فهم السفير مداليل هذه الاشارة وحول الحديث في مجرى آخر. من ذكرياتي المرة ان السفير تلطف وألبسني معطفي فصعد الدم الى أذني خجلاً لأن قبته كانت عفنه! فالأيام كانت أيام فقر وعز معاً!.

طبعاً أكتب هذه الواقعة ويدي على قلبي، هل أفضح أسراراً لا يجوز أن تفضح؟... سأرى وأزِنُ وأقرر. فإذا قررت النشر. هذه هي الحقيقة. هنا يخطر لي ان مثل هذا العرض وردني تكراراً من الاستاذ عادل حمدان صديق كميل شمعون الحميم.

انتخابات الكورة سنة 1953
النمر الابرص

كان المجلس الأعلى قد عقد جلسة مشتركة مع مجلس العمد برئاسة عبد المسيح لبحث مرشحين للانتخابات في حال أقدم رئيس الجمهورية كميل شمعون على حل مجلس النواب. ولقد كنا نتبين خلال بحث القانون الانتخابي انه لا بدّ ات بنواب على ذوقه وعلى صورته ومثاله، رغم انه في المنافسة بينه وبين الاستاذ حميد فرنجية نال أكثرية أصواتهم.... ان قانون انتخاب جديد يعني نواباً جدداً... وكان يعني تكريس السياسة الشمعونية التي كانت تتوخى استبعاد اسماء عدد من أصحاب أملاك شاسعة وواسعة.... من هنا كان استشرافنا أنه سيحل المجلس. جرت الانتخابات سنة 1953. فلو بقيت لتجري في موعدها المحدد بالقانون لكان يجب أن تجري في سنة 1955 صيفاً.

كان قرار الحزب بناء على تدخلي الفعلي، هو التالي: إذا حل المجلس خلال فترة ستة أشهر من تاريخ القرار فالمرشح عن الكورة عبدالله قبرصي، وإذا تأخر الحل أو جرت الانتخابات في موعدها، فالمرشح هو الدكتور عبدالله سعاده.

أذكر ان عديلي الدكتور توفيق فرح كان قد أقام لنا مأدبة عشاء في «الماردوشيه» في زغرتا، وكان الراديو كالعادة في المقاهي العامة يصرخ بأعلى صوته المذيع، فيغلب صوت المياه المتدفقة في رشعين... وأصغينا فإذا بمرسوم قد صدر بحل مجلس النواب وإجراء الانتخابات في الربيع أو مطالع الصيف.

كنت إذن أنا المرشح عن الكورة في هذه الحالة.

ويحضر من السعودية فجأة الأمين الدكتور عبدالله سعاده، فيدعوني الى شرب كأس في مقهى الغلاييني، ونتحدث:

قلت لعبدالله الذي فقدناه وبكيناه بكاءاً مراً: «ياعبدالله/ أنا مرشح عن الكورة، وأعرف انك قادم لتخوض المعركة، ما رأيك، ان أخوضها أنا هذه المرة بمساعدتك. كل الناس يعرفون اني لا أملك أموالاً طائلة. ستكلفني المعركة الانتخابية 25 ألف ليرة لبنانية أما أنت فستكلفك ما تملك وأزيد؟ اعطني الـ 25 ألف ليرة وسواء فشلت أو ربحت، فالنيابة أو على الأقل الترشيح مضمون لك المرة القادمة.

فأجاب:

«صحيح ما قلت، ولكني جئت من السعودية لأرشح نفسي، لدي رأسمال شعبي منذ سنة 1947، أنا ابن أميون التي ترجح الكفة، أنا مقيم في الكورة، وأنت بعيد عنها. فكيف يمكنني إذا ان أعطيك المال لتأخذ مكاني؟ ثم اني متأكد ان ترشيحك لن يلاقي الحماس الذي يلاقيه ترشيحي».

فأجبت:

«حسناً. أنت المرشح. الآن سأذهب لأجمع الشعبة السياسية اللبنانية. لنقترح الغاء القرار السابق واتخاذ قرار بترشيحك انت بدلاً عني».

وهكذا فعلت. فاجتمع مجلس العمد وقرر ترشيح الدكتور سعاده.

في مذكراته، «أوراق لبنانية»، يذكر نبذة قصيرة وان الكورة كانت تؤيده فاختاره الحزب. اني أعرف أنه أقدر مني على تمثيل الكورة. فمؤهلاته كخطيب وكبرلماني وكحكيم وكطلة حلوة وشخصية مميزة أفضل بكثير، لذلك اندفعت بكل قواي بكل ما لي من نفوذ وأهل وأصدقاء وموكلين مذيعاً فضائله ومؤهلاته، حاملاً علم الدعاية والاعلام بكل ما ملكت يدي... لقد تحمست في دعم ترشيحه والدعاية له أكثر مما أتحمس لشخصي!.

كان يعرف تطرفي العقائدي فيوصيني بإبراز لبنانية الحزب، فالمعركة الانتخابية ليست معركة اذاعية للحزب، انها معركة اذاعية للمرشح...

وقمنا بحشد انتخابي في قريتي دده ـ الكورة في منزل الرفيق المناضل القديم الصامد وديع عيسى، وخطبت في ذلك الحشد مسميا الدكتور سعاده بالنمر الابرص، وقد رد لي التسمية بأن لقّبني بالقنبلة الذرية... لقد مات النمر الابرص وهو «النمر».

كانت الضغوط ضد الحزب على قدم وساق. من المطران العبد الى آل فرنجية، الى حزب نقولا غصن العريق في الكورة، الى الطائفية والاقطاع والمال، كلها تضافرت لمساندة السيد فؤاد غصن الذي كان قد ترشح خلفاً لوالده نقولا غصن. آل غصن قوتهم في دعمهم للحكومة القائمة. ما رأيناهم ولا مرة في المعارضة! ثم قوتهم في محبتهم للناس والتفاني في خدمتهم انهم لا يزالون لهذه الاسباب نواباً عن الكورة حتى اليوم.

بذل عبدالله سعاده كل ماله، وكل جهوده هو وزوجته الأمينة الشاعرة والخطيبة الدكتورة مي، وبذلت الكورة كل حبها وحماسها وايمانها، فما أجدى كل ذلك نفعاً.

سقط النمر الابرص، لينجح المرشح التقليدي، فالكورة كانت أماً لآل بولص وأماً لآل غصن. الغريب عن هذين الدارين يبقى غريباً عن المجلس النيابي. ارادة الحكومة كانت تقرر الفوز لا ارادة الجماهير.

اني أشهد هنا أنه لولا ضغوط السلطة والرشاوى والحرم الذي صدر عن المطران العبد على المواطنين الموارنة لكان عبدالله سعاده منذ سنة 1953 نائباً عن الكورة الخضراء الى آخر يوم من حياته.

قال لي مرة النائب والمحامي الكبير والعضو السري في الحزب بهيج تقي الدين: «لو نجح عبدالله سعاده في الانتخابات لكان زينة المجلس»....

ما أنا الذي رشحته لرئاسة الجمهورية، رشحه الزميل الاستاذ فؤاد شبقلو.

أكتب هذا كي لا يقال اني أبالغ، عبدالله سعاده كان أملاً من آمال التقدميين في لبنان، وشبقلو رشحه كعضو في الحركة الوطنية.

نحن والشيخ عبدالله العلايلي

يكاد عدد كبير من الادباء والشعراء الذين اشتهروا في لبنان والعالم العربي ان يكون خريج المدرسة القومية الاجتماعية، بدءاً من سعيد عقل، وصلاح لبكي، ونذير العظمة، ورشدي معلوف، وخليل حاوي وأدونيس وخالدة السعيد ويوسف الخال ومحمد يوسف حمود وادفيك شيبوب وغسان تويني وفؤاد وموسى سليمان وسعيد تقي الدين ومنير خوري وعلي شلق وأسد الاشقر ومحمد الماغوط، وغسان مطر وانتهاءاً بنصري الصايغ وجان دايه وإنعام رعد ومصطفى عبد الساتر ومروان فارس.... أما، الشيخ عبدالله العلايلي فقد كنا نطوقه بمحمد بعلبكي ومحمد يوسف حمود علنا نحظى به في صفوفنا.... فالرجل من امراء الكلمة ليس في لبنان وحسب بل في العالم العربي كله. هذا فضلاً عن أنه شيخ معمم، وعالم كبير في نهجه الفكري تجديد يبلغ حدود الثورة. انه مجدد وعقلاني في فكره وايمانه. انه من العلماء فعلاً.

أذكر أننا عقدنا في منزل الامين محمد بعلبكي جلسة سنة 1949 في مطالعها تلاقينا فيها معه يقودنا ويرأسنا انطون سعاده نفسه. وتكشف لنا جميعاً ان الحوار مع الرجل مجد ومفيد، فهو بالفعل بحر من المعلومات وموسوعة في علم الاجتماع والتاريخ. ما أذكر اسم مؤلف أمامه الا وكان مطلعاً على مؤلفاته.... وقادراً على تقييم فكره سلباً أو ايجاباً.

ومن نتاج الحوار، أدركنا ان بيننا وبين الشيخ عبدالله حواجز لا جسور. الا ان استشهاد سعاده البطولي هزه كما هز الرأي العام اللبناني والعربي هزاً عنيفاً، الأمر الذي رسخ في ذهننا وجوب متابعة الحوار معه وعدم اليأس من ربحه الى صفوفنا رغم ما قيل لنا عن انتسابه الى الحزب التقدمي الاشتراكي.

انه واضع كتاب «دستور العرب القومي».

فدعوته الى منزلي يوماً ورحنا نبحث عن وصف لعروبة الحزب فإذا به يبتكر كلمه، تنطبق بالفعل على عروبتنا آنذاك ـ التي كنا نسميها العروبة الواقعية ـ وهي العرابية. كان علي أن أضع كل قدرتي على الاقناع المستوحاة من تقاليد مهنة المحاماة، مهنة الكر والفر، لأتوصل الى اقناعه. لقد لان، ولكنه لم يقتنع وبقي خارج الحركة وان صديقاً كبيراً لها.

جورج عبد المسيح في ممارساته الرئاسة

لم نكن قد حظينا بإقناع كميل شمعون بإعطائنا علماً وخبراً جديداً باسم الحزب القومي الاجتماعي، العلم والخبر المساوي للترخيص القانوني بالعمل الحزبي العلني والمشروع وفقاً لنصوص قانون الجميعات العثماني الصادر سنة 1909 والذي كان لا يزال ساري المفعول مع تعديلات طفيفة أدخلتها عليه المفوضية العليا.

كان بعض رفقائنا مجتمعين قرب مستشفى المقاصد الاسلامية في راس بيروت فداهمتهم الشرطة يهتفون باسم سوريا وسعاده وساقتهم الى سجن الرمل. فاضطررت الى طلب مقابلة عاجلة مع الرئيس شمعون الذي كان يصطاف في قصر بيت الدين. وبالفعل قابلناه انا والدكتور جورج صليبي ويومئذ قال لنا كلمته الشهيرة التي ألمحت اليها في الجزء الثاني من ذكرياتي وهي انه لم يستطع أن يتفاهم مع الكتائب ولا مع حميد فرنجية لأن بيار الجميل، وهو بطرس الأعلى، كلما استطالت قامته كلما خف عقله، وان حميد فرنجية يرى الله سبحانه وتعالى من كتفه ونازل، عدا عن مأخذه على الدول الكبرى وعدم تطبيقها بيانها الثلاثي الشهير الذي بقي حبراً على ورق.

وبالنتيجة، كان علي والدكتور صليبي ان نتشدد في المطالبة بترخيص للحزب، وبوجوب اطلاق سراح رفقائنا الموقوفين البالغ عددهم أربعين رفيقاً.

بالنسبة للرخصة كان الرئيس شمعون على موقفه الثابت،

«لا لزوم لها طالما انكم تعملون علنا دون أن يزعجكم أحد. أن توقيف «الاربعين عضواً قرب مستشفى المقاصد هو حادث طارىء وغير مقصود «وسنضع حداً له ولأمثاله، باخلاء سبيل الموقوفين على دفعات وبإعطاء «التعليمات الواضحة بغض النظر عن الاجتماعات الحزبية».

ووعد بالنتيجة أن يتصل بمدعي عام التمييز فرنان ارسانيوس للتصرف على هذا الأساس، وبالفعل أخلي سبيل الرفقاء، دفعة دفعة، بكفالات اضطررت الى تأمين بعضها من جيبي الخاص بسبب مرض خزينتا المزمن بالفراغ.

نكون إذن قد خسرنا برحيل الشيشكلي حريتنا في العمل العلني في الشام، دون أن يكون لنا في لبنان الا حق التحرك وفقاً لمزاج الرئيس شمعون الذي كان يستقبلنا أحياناً بتحيا سوريا وأحياناً أخرى «بالمسبات» لأننا لا نتقيد بتعليماته....

مصيبتنا الدائمة في الحزب، اننا يجب أن نأخذ حريتنا أما بالقوة أو بالمساومة...

ولقد كانت في سنة 1954 هذه هي الحالة الثابتة. ولكننا كنا نقبلها صابرين، ونعمل مهما يكن سيف ديموقليس عالقاً فوق رؤوسنا.

كان جورج عبد المسيح لا يزال هو الرئيس وكان الأمين الراحل كامل حسان هو الذي يمارس صلاحيات عميد الداخلية بعد ان انتدب الامين الياس جرجي لمسؤولية أخرى أهمها السفر الى عبر الحدود.

كان قد دخل في «جبهة» معارضي جورج عبد المسيح الامين عبدالله محسن الذي كان قد تزوج من الرفيقة (الأمينة حالياً) هيام نصرالله ونقل منزله الى دمشق واستقال من عمدة التدريب ليتسلمها القائد العسكري البطل غسان جديد ويكل وكالتها الى الرفيق الفقيد اسكندر شاوي.

وإلى هذا، كانت قد بدأت تتفاقم وتتعنف الحملة التي كنا نقودها: انعام رعد وجبران حايك وخليل حاوي وأنا على عبد المسيح، في دكتاتوريته الرئاسية، واجتهاداته الفلسفية والفكرية بوجه عام، في تفسير سعاده وتعليم أفكاره في الشام، هذه الاجتهادات التي كان يطرحها تحت باب البناء العقائدي في جريدة «البناء» التي كانت تدور على مفهوم سعاده للفرد والحرية والأمة والنظام. كنا نحن الاربعة نشعر ان في اراء عبد المسيح خروجاً على المفاهيم القومية كما علمنا اياها سعاده، بل نشعر ان عبد المسيح يذهب في الاجتهاد بعيداً بحيث تصورنا انه يريد ان يطبع فلسفة سعاده «بعبد مسيحيته» فتتحجر ضمن الحروف عوضاً عن أن تكون فلسفة الحياة القابلة دائماً للتطور والتطوير....

أزمتنا الداخلية ـ أزمة عبد المسيح

ان هذا الفصل من ذكرياتي سيتناول، بقدر ما علق بذاكرتي من وقائع ومن أقوال، من أزمتنا الداخلية واضطرارنا الى اقالة الأمين عبد المسيح من رئاسة الحزب ومن اعادة انتخابه بالرغم من أنوفنا نحن اعضاء المجلس الأعلى... ثم حالة الحزب بعد عودته الى الرئاسة وانتخاب مجلس أعلى جديد.....

ثم أحوال الحزب برئاسته الجديدة توصلاً الى الجريمة الرهيبة التي ارتكبت بحق العقيد عدنان المالكي وحق الحزب وحق الأمة معاً....

ثم ترئيس الامين مصطفى ارشيد، فأسد الاشقر، فحرب سنة 1958.

اني أسارع الى القول ان مصرع عدنان المالكي بعد عودة عبد المسيح الى الرئاسة كان نقطة تحول لا في تاريخ الحزب فحسب بل في تاريخ المنطقة وفي تاريخ الشرق الاوسط.

ثم ان ذيول مصرعه، التي لا تزال حتى اليوم فاعلة، أوقعت بالحزب من الخسائر والانهيارات ما لا يصدقه الخيال، لولا أنه واقع، وأنا الشاهد عليه بلحمي ودمي.

اني حريص ـ كما حرصت طوال عمري وبخاصة في هذه الذكريات شبه التاريخية ـ الا اظلم أحداً الا نفسي. لذلك لا بد قبل ولوج باب المواضيع الهامة التي سأتطرق اليها، من ان أشير الى أن عبد المسيح، الذي سأضع على كتفه كل الاحمال وكل الخطايا، من أبطالنا القوميين الاجتماعيين. ولست أنا وحدي قائل هذا القول، فقد سبقني اليه سعاده في كتابه «الصراع الفكري في الأدب السوري» وفي الرسالة التي وجهها اليه عندما قبل استقالته من عمدة الدفاع

سنة 1948 - 1949..... انه كان يعمل في تحرير جريدة «النهضة» بلا كلل ولا ملل، ثم في جريدة «البناء» بلا كلل ولا ملل، وفي كل المهمات التي أسندها اليه سعاده، تصرف بإخلاص وانضباط لا مثيل لهما الا اخلاص وانضباط الامين جبران جريج، كما أنه صاحب الفضل الأول في الابقاء على تماسك الحزب وعلى نشاطه وحيويته وتمدده وتوسعه بعد استشهاد المعلم.... كما ان من حسناته انشاء المدارس القومية لأول مرة في تاريخ الحزب..... لقد تحمل في سبيل الحزب ما جعل القوميين ـ بأكثريتهم وخاصة الامينة الأولى زوجة سعاده ـ يعتقد بأنه الضمانة الكبرى لاستمرار نموه ونجاحه. لقد صار اسمه مقروناً بالبطولة، وبالصبر على المكاره، مما جعل منه شبه اسطورة في ضمير القوميين الاجتماعيين وضمير المواطنين على السواء.....

هذه الحقيقة أسجلها لجورج عبد المسيح مطمئن الوجدان الى اني أسجل ما هو واجب علي.... طالما اني آليت على نفسي الا أخفي لا كبيرة ولا صغيرة مما ارتكب من اخطاء وخطايا فيما بعد.

لا أعرف ان كنت أبالغ في ظنوني وتصوراتي، فمنذ ان كنا نتدارس في المجلس الأعلى سنة 1950-1951 القانون الدستوري الثامن الذي كان قد وضع مشروعه، تراءى لنا ـ لا لي وحدي ـ ان الامين جورج الذي كان خيارنا الوحيد لرئاسة الحزب، يسعى لتكريس نفسه رئيساً مدى الحياة ليكون خليفة سعاده، او على الاقل لتكون صلاحياته فاصلة وحاسمة في الشأن التنفيذي، الى درجة ان المجلس الاعلى السلطة الأعلى في الحزب، كان يجب ان يكون طوع يديه ليظل هو وحده السلطة العليا.... او المتسلط الأعلى، أو بلغة أرقى المرجع الاخير....!

وراحت الأيام تثبت هذه الظنون ـ مع الاسف ـ فكل المؤهلين لرئاسة الحزب من بعده، يجب ان يجد لهم أو فيهم لوثات تشوههم في نظر الامناء أو على الاقل في نظر القوميين. وكان بإمكانه الصاق هذه اللوثات بمن يشاء لأن كلمته كانت مسموعة ونفوذه يتعمق يوماً بعد يوم عامودياً، ويتسع يوماً بعد يوم أفقياً. فهو في الوطن وعبر الحدود، وعند القاصي والداني، الرجل الثقة، الحامل اختام الزعامة، تسنده في ذلك الامينة الأولى. كما يسنده جمهور

القوميين الاجتماعيين، لأنه ما كان يصل الى أيديهم هو التعاميم الموقعة منه أو من عـمده، لأنه وحـده مع العـمـد الذين كـان يأتمنهم، كـانوا على صلة مبـاشـرة بالقـومـيـين وبالناس! أمـا المـجلس الأعلى السلطة العليـا حسب النصـوص الدستورية، فكان يجتمع الساعات الطوال، ليصغي الى تقاريره التي لا نهاية لها ولا قـرار (أحـد تقـاريره بلغ الـ 79 صـفـحـة). أو ليـوافق على اقـتـراحـاته في التخطيط السياسي والإداري أو ليصادق على بياناته الرئاسية المفروض عليه ان يرفعها دورياً الى المجلس الأعلى.

إذن كـان الاتصـال المـبـاشـر بالقـومـيين وبالناس عن طـريقـه وبواسطتـه. وبوجوده على راس السلطة التنفيذية ـ وهو صاحبها ـ كانت أموال الحزب وكل ما يملك تحت تصرفه، لا يجرؤ عميد مهما كان مشاكساً كالأمين كامل حسان ان يفرض عليه رأياً أو ان يلزمه بقبول اقتراح مهما كان بناء. عبد المسيح ككل رئيس أتى بعده ومشى على غراره كان شبـه دكتاتور (التعبـير لأحد رفقـائنا يوسف زيدان).... الشعار الذي أطلقه يوماً، الحزب رئيسه بدأ مع عبد المسيح ولم ينته باقالته، وان رئيس الحزب الدكتاتور بقيت سارية على الرؤسـاء الذين انتخـبـوا بعـد عـبـد المـسـيح فلم يكن وحـده الدكـتـاتور، قد يعـود السـبب الى الصلاحيات التي منحها له الدستور، وجرت محاولات لتعديل الدستور وتقييد رئيس الحزب ضمن مؤسسة مجلس العمد.

بهذه الصفة، بهذه الصلاحيات، وبالاتصال المباشر بالقوميين والناس، صار عبد المسيح قادراً أن يحيي من يشاء من الحزب أو خارجه وان يميت من يشاء، إذ توافرت لديه الوسائل المادية والوسائل المعنوية في الأمر والنهي.

بعد خـلافاته المستحكمة والمتفاقمة مع الامين معروف صعب والتي انتقلت الى الأمين عبدالله محسن، ثم خلافاته الفكرية مع الرفقاء انعام رعد وخليل حاوي وجبران حايك ومعي، ثم خلافاته مع الرفيق سعيد تقي الدين، ثم مع غسـان تويني، ثم مع الامين الشهيد نسيب عازار، ثم.... راح يهدم كل من يحتمل ترشحه لرئاسة الحزب من بعده.... وللأمانة التاريخية نذكر انه كان دائماً حائزاً في هذه المرحلة على ثقة الامينة الأولى، يترسمل عند الضرورة بها لمواجهة أي تحد أو أي انتقاد كما كان حائزاً على ثقة الكثرة الساحقة من

الاعضاء والمسؤولين المركزيين والمنفذين العامين في المناطق.

أما أنا فلا أقدم دليلاً على سوء ظنه بي، أنا الذي أحببته أخاً وصديقاً.

أما الكتاب الذي أصدرته سنة 1954 والذي قرّظه كبار مفكري الحزب من انعام رعد الى خليل حاوي الى محمد بعلبكي الى محمد يوسف حمود وهو «نحن ولبنان».... حملت من هذا الكتاب فور صدوره أربعين نسخة وقد طبع في مطابع جريدة «صدى لبنان».

ثم وضعت هذه الرزمة الى الجانب الأيسر من مكتبه ـ مكتب الزعيم ـ في دار الأمينة الأولى التي كانت داره أيضاً لأن الأمينة كانت تحرص على راحته كعامود فقري للحزب. وكنا نجتمع تقريباً كل أسبوع في دمشق نأتي من بيروت اليها يوم السبت باكراً لنرحل يوم الأحد في ساعة متأخرة من الليل، ورزمة كتابي «نحن ولبنان» لا تتزحزح من موضعها. وأنا صامت لا أسأل... الى ان عيل صبري، فطالبت في جلسة رسمية، أما بإجازة الكتاب لنوزعه ونبيعه، وأما بعدم اجازته لنحرق كل نسخاته ونهبها للباعة على الطرقات العامة!.

كان عميد الاذاعة الامين عصام المحايري. قرأه وإجازة بعد ملاحظات جيدة. ثم قرأه الامين سامي الخوري، عميد الثقافة فأجازه بعد ملاحظات جيدة.

عندئذ وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر، أجيز الكتاب ووزع وبيع فيما كتب عنه الأمين انعام رعد أحد نوابغ حزبنا: «انه قوت الشعب اليومي». هذا عدا عن ان عبد المسيح أثار علي الأمينة الأولى لجهة توكيلها لي بإجراء عمليات انتقال أملاك الزعيم اليها وإلى بناتها، فقد كانت هنالك قطعة أرض اشتراها الزعيم من عدد من مالكيها والباقون وهم الأكثرية في استراليا فاضطررت لردها الى البائعين بعد توجيه من الامين وديع الياس مجاعص. (ابن عمة الزعيم وموضع ثقته التامة).

وأما عن غسان تويني وإنعام رعد، فقد كان يتهمها بالعمل لمصلحة اميركا (غسان) وبريطانيا (انعام).....

وأما الشهيد نسيب عازار وهو الملقب بقديس الحزب فقد جرت بحضوره الحادثة التالية التي رواها لنا كما يلي.

قال الشهيد:

«كنت في سيارة الرئيس عبد المسيح، أتجول معه في أحد شوارع دمشق، أو ذاهبين لمقابلة أو لقضاء حاجة. وصدف ان شاكستنا سيارة رسمية كانت تسير أمامنا؛ فاستشاط عبد المسيح غيظاً ونزل «يحاسب سائقها ويسبه ويشتمه وكادا ان يتماسكا بالأيدي...».

طار صواب قديسنا نسيب عازار وجاء الى الأمين أبي عجرم الذي كان لا يزال رئيساً للمجلس الأعلى، شاكياً باكياً. رئيس الحزب يتشاحن ويتشاجر في الشارع العام، كأحد السائقين العاديين، مع سائق سيارة رسمية! ياللويل. بالويلك يا جورج عبد المسيح. أمين ورئيس يقع في هذه التهلكة!:

كان عبد المسيح يقول بوحدة السلطة في الحزب، أي ان المجلس الأعلى ورئاسة الحزب صاحبة السلطة التنفيذية يتكاملان. في المفهوم النظري هذا الطرح صحيح، لأن السلطات في الأنظمة البرلمانية الديمقراطية لا تتناحر بقدر ما تتناغم، وهب أنَّ تداخلا أو تضاربا وقع بينها بشأن الصلاحيات، فهنالك المحاكم تفصل بين المختلفين وحكمها يسري على الفريقين. أما في الحزب، فإن الخلاف بين رئيس الحزب والمجلس الاعلى يجب ان لا يقع نظرياً لأن سيادة المجلس الأعلى هو صاحب الصلاحية وفق نصوص القانون الدستوري الثامن النافذ المفعول فقرارات المجلس الاعلى ملزمة لرئيس الحزب الزاماً مطلقاً. ولنثبت سيادة المجلس الأعلى على رئاسة الحزب ـ السلطة التنفيذية ـ نحيل القارىء الى دستورنا فقد نص في المادة التاسعة من القانون الدستوري الثامن ان للمجلس الأعلى حق اقالة رئيس الحزب بأكثرية ثلثي اعضائه، فالاولوية اذن هي للمجلس. ولكن الواقع المر الذي أصبح اجتهاداً عند «الرؤساء» هو أنهم يلجأون الى شق الحزب عندما لا يعجبهم قرار المجلس الأعلى باقالتهم!».

كان عبد المسيح، لتأكيد هيمنته على المجلس الأعلى يقول لي بصوت عالٍ: ما ذنبي إذا كان ثمانون بالمئة من القوميين يتبعونني؟ اذن لم يعد الدستور هو ناظم العلاقة بين سلطة رئيس الحزب وسلطة المجلس الأعلى، بل تسلط رئيس الحزب النابع من ثقة القوميين الاجتماعيين به، والمفروض ان يثقوا لأن

المجلس الأعلى لا يتصل بهم، انه المجلس الأعلى لا عميد ولا منفذ عام ليكون على صلة مباشرة بالقوميين الاجتماعيين المفروض فيهم وقد أقسموا يمين الطاعة للسلطات الدستورية ان يخضعوا لقراراته وان كانت عواطفهم ومشاعرهم نحو رئيس الحزب!....

ثم ان اعضاء المجلس الأعلى الذين لهم حق المحاسبة والمراقبة على السلطة التنفيذية، لم يكونوا يعرفون ماذا تنفذ، وماذا تعمل، الا منها هي... لم تكن محاضر جلسات مجلس العمد تصل الى المجلس الأعلى ليطلع على تحركات السلطة التنفيذية في علاقاتها بالقوميين وعلاقاتها بالخارج ومداخيلها والنفقات وكل ما يتعلق بإدارة الحزب بصورة عامة!

كان المجلس الأعلى قد أصبح يشكو من أنه مجلس أعلى بالاسم. وانه عاجز منذ ثلاث سنوات ونيف أن يضبط أعمال السلطة التفنيذية وان يخضعها لرقابته الفعلية لأنه لم يكن على اطلاع كاف على أعمالها ليمارس سلطته في المراقبة والمحاسبة.

وكثر التذمر والشكاوي من هيمنة عبد المسيح على الحزب هيمنة تامة كما ألمحنا سابقاً وكان الامناء اعضاء المجلس بأكثريتهم قد أصيبوا من جانب أو من آخر برشاش اتهاماته أو انتقاداته الجارحة.

زد على ذلك، الشأن المالي، فقد كان القوميون يرسلون مبالغ هامة الى الحزب كما كانت ترده بعض المساعدات. فلم نكن نطلع الا على بيانات مقتضبة، لا تمكننا من تقدير حسن أو سوء ادارة الأمين عبد المسيح في صرفها أو التصرف بها. كان يقدم لنا بيانات بالداخل والخارج، فتقرأ أرقاماً دون ان نقرأ ما يقابل صرفها من أعمال!..

كل ذلك حملنا، على أن نحزم أمرنا ونحاسب.

وفيما نحن متجهون الى دمشق لحضور جلسة للمجلس الأعلى في آب من سنة 1954، توقفنا كعادتنا عند عين ماء تقع في ميسلون، مقابل قبر الشهيد البطل يوسف العظمة، وكان الأمين أبي عجرم رئيسنا آنذاك قد اكتشف هذه العين وأحب ماءها، فنزلنا وشربنا. كنا فؤاد أبي عجرم، وأديب قدورة، وحسن

الطويل حمادة، وكامل أبو كامل، وأنا .... فتحت الحديث أنا قائلاً ما معناه:

«إننا في كل مرة نجتمع ونعود صفر اليدين، نَسمَع ولا نُسمَع. نتخذ أحياناً قرارات دون أن ندري إذا كانت نفذت أو لم تنفذ. الشكاوى على الأمين جورج وإدارته تتعاظم ونحن لا نتخذ موقفاً. لقد بلغني انه اتهم غسان تويني بالاتصال بأميركا وإنعام رعد بالانكليز، وهما عاملان في الحزب بكل قوتهما. ما هو دليله؟ لماذا تحطيم الرفقاء المميزين بعلمهم وذكائهم كغسان وإنعام؟....

كانت الشرارة الأولى، وجاء بعدها هجوم من الجميع على ادارة جورج عبد المسيح.... اتفقنا لا على التآمر عليه كما يزعم بل على محاسبته. لم يخطر ببالنا ان نستبدله. كلما خطر ببالنا هو ان نثبت وجودنا. ان نكون بالفعل السلطة العليا المحاسبة والمراقبة.

وصلنا الى دمشق، وكان ينتظرنا عشاء دسم. فأكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً. ثم عقدنا الجلسة. فطلبت الكلام. كان العشاء قد أقفل أبواب الفكر عندي، وعقد لساني... فقلت بعض الأشياء التي بدت للرئيس أبي عجرم غير مركزة... وأعطي الكلام الى الأمين حسن الطويل الذي كان ينام بضيافة عبد المسيح فيما نأوي نحن الى فندق قطان. كانت كلمات حسن متقطعة، كانت صفراء كأوراق الخريف، طرحت بعض المواضيع وسلقت. وارجأت الجلسة الى صباح غد الأحد!....

ما ان خرجنا من دار الامينة الأولى وبدأنا ننزل الدرج حتى علا صوت أبي عجرم.... أنت فتحت النار فأين نارك؟... هذه هي كل اعتراضاتك على ادارة عبد المسيح.. بالفعل كنت خجلاً من نفسي ومن زملائي. فوعدتهم بإعداد لائحة انتقاداتي وأسانيدها. وبالفعل اعددتها قبل أن أنام.

وفي اليوم التالي عقدت الجلسة. كانت الأمينة الأولى في رحلة الى ضهور الشوير. وكنا نحن الباقين في الشام ثمانية. الذين اسميتهم آنفاً، يضاف اليهم ناموس المجلس الامين عصام المحايري والامينان معروف صعب وجورج عبد المسيح والياس جرجي قنيزح وأنيس فاخوري...

وكانت الكلمة الأولى لي.

نصبت نفسي مدعياً عاماً ورحت أفند بنداً بنداً المآخذ التي لي على جورج عبد المسيح، ما أعرفه شخصياً وما وصل إلي عن طريق اشخاص لا يرقى الى نزاهتهم الشك كالشهيد نسيب عازار. لم أترك واقعة من الوقائع ولا حجة من الحجج ولا شكوى من الشكاوى الا وسردتها بلهجة خطابية، تماماً كما لو كان عبد المسيح في قفص الاتهام وأنا النائب العام أدلي بمطالعة تدينه ادانة كاملة. طبعاً كانت المطالعة مهذبة، فأنا حريص على ان تكون لغة التخاطب بيننا مصانة في مضمونها وشكلها. كما اني طرحت النقاط المبدئية المتعلقة بفصل السلطات ووجوب انتقاء العمد من خارج المجلس الأعلى وإبلاغ هذا المجلس نسخاً كاملة عن محاضر جلسات مجلس العمد، وكل ما يصل الى الرئاسة من مقترحات او شكاوى، ليصبح في مقدور المجلس الأعلى أن يقيم الأوضاع الحزبية من خلال كل هذه الوثائق.....

وشددت كثيراً على تطاول عبد المسيح على كرامات الامناء والتشكيك بنزاهتهم وكذلك الرفقاء، ملمحاً الى شكوى الشهيد نسيب عازار وقد شاهدها بنفسه ورفع تقريراً مفصلاً بما حدث أمام عينيه!.

المهم اني لم أتردد في اتهام عبد المسيح بالتفرد وبتجاوز صلاحياته وتجاهل المجلس الأعلى والتعدي على حقوقه وعدم اطلاعه بالتفصيل على شؤون الحزب ومساره ليكون على بينة من كل شاردة وواردة ويتمكن من مواجهة مسؤولياته استناداً الى المعرفة الشاملة لشؤون الحزب.

لا يمكن أن أتذكر الآن، بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على هذا الموضوع كل ما سردته. الذي أذكره وكأنه يحدث الآن أمامي، اني تكلمت حوالي الساعتين، دون أن أتلعثم أو أتردد أو أكرر. كنت قد صممت على الانتقام من تقصيري الليلة الفائتة، أنا الشرارة الأولى التي أولعت ضد عبد المسيح بقصد محاسبته لا بقصد اهانته أو تجاهل قيمته أو خصوصاً حمله على الاستقالة. كان همي التصويب فقط لا غير.

هل كان من حق عبد المسيح، كرئيس للحزب، ان يثور وان يتصور ان عدواً يهاجمه في المجلس الأعلى، اما أن يفرح في داخله ان هذا المجلس بدأ بالفعل

يمـارس صـلاحـيـاته وينتـقل من طور المـتكلم والمناقش الى دور المـحـاسـبـة ممارساً صلاحياته الدستورية.

للقارىء أن يستلخص الجواب من الوقائع.

ماذا كان رد فعل عبد المسيح؟

اعتبرني عدواً يهاجمه، واعتبر المجلس في حالة تمرد على شخصه. كان يتصور ان كل ما في القاموس من كلمات ثناء واطراء ومديح يجب أن تكال له، هو بطل سر حمول، والعضو الأول، ورئيس الحزب في هذه الظروف التي يحمل فيها على كتفيه حكماً بالاعدام من لبنان وتهديداً بالطرد من الشام.

أما أنا فلم تكن لهجتي عدائية وان كانت فجة في بعض مقاطعها وقاسية في البعض الآخر. لقد كنت أمارس حقاً في النقد، ولم أكن متجاوزاً ولا مجرحاً ولا شاتماً ولا متهماً (بكسر الهاء).... كنت أتوخى، كما اتفقنا في ميسلون، ان يتحمل المجلس الأعلى مسؤولياته، وان يشعر عبد المسيح بصراحة وصدق وخشونة أحياناً أنه موجود وان يعي وجوده كما يعي سلطاته العليا ونوعاً من الوصاية على رئاسة الحزب، الوصاية المستخلصة من نصوص الدستور لا من الاصطناع أو الاختراع أو التجاوز.

كان رد فعل عبد المسيح بطاشا وطائشا ولاهباً وساخطاً.. كان قد حاول مقاطعتي ثلاث أو أربع مرات، وكان يردعه رئيس المجلس الأعلى ويوقفه عند حده، فيستشيط غيظاً، ويجلس في كرسيه وشفتاه ترجفان، ويكاد الغضب يخرج من عينيه ليبلغني كبريتاً وناراً.

وقف وأعلن بصوت متهدج ما يلي: «بعد هذه المطالعة التحريضية (لا أزال أذكر كلمة تحريضية) لن أقبل أن أبقى دقيقة واحدة رئيساً لهذا الحزب. اني أقدم استقالتي وأطلب قبولها فوراً....».

طلبت الكلام ثانية وقلت:

«ما من رجل في الحزب لا يستغنى عنه. الزعيم استشهد وبقي الحزب بإمكاناته غير المحدودة. اني أطلب تدوين طلب الاستقالة في المحضر وأطلب ارجاء البت بها خمسة عشر يوماً مع ابلاغ الرئيس المستقيل انه يتوجب عليه

ان يقدم تقريراً شاملاً عن ادارته الحزب منذ استلامه مقاليد الرئاسة حتى قبول الاستقالة مضيفاً اليها وجوب تضمين التقرير ذكر المشاريع والأعمال التي كان ينوي القيام بها فيما لو بقي رئيساً والمجلس يقدر من بعد الموقف الذي يرى اتخاذه».

أجاب عبد المسيح:

«لن أقبل ان أبقى دقيقة واحدة رئيساً للحزب. اني أطلب قبول استقالتي فوراً وعقد جلسة خاصة بعد ظهر هذا النهار لانتخاب رئيس جديد والاتصال بالأمينة الأولى هاتفياً لتحضر إذا أمكن...».

لا أذكر شيئاً من مداخلات باقي الاعضاء. الجو كان رهيباً. استقالة عبد المسيح مفاجئة تحد كبير للمجلس الذي لم يكن يحسب لها حساباً. كان قصدنا ـ وهنا أكتب للتاريخ ـ لا ان نتخلص من عبد المسيح بل ان نطبعه أن نروضه ان نفرض عليه وجودنا الفعلي لا الصوري..... بعد ان كنا مجلساً من أوراق أردنا ان نصبح مجلس قرار، مجلس رقابة ومحاسبة ورأي يسمع وينفذ.

لقد كنا أذانا، ونريد ان نصبح عيوناً وأفواهاً وأقلاماً... ان نكون أنفسنا، لاان نكون صورة للمجلس الأعلى الارستقراطي الذي يأكل ويشرب وينام فتنام معه مسؤولياته نوم أهل الكهف!.

طرحت الاستقالة على التصويت بعد اصرار عبد المسيح وعناده وتصميمه... لقد كان متحدياً. فليأخذ المجلس دور المتحدي. عند الضرورة يمكننا أن نجد من بيننا رئيساً وقد يكون ناجحاً أكثر من عبد المسيح. لم نضع نصب أعيننا اسم معروف صعب رغم مقدرته، لأنه كان قد ناصب عبد المسيح العداء. ولا وضعنا أي اسم.... الروية اقتضت ان نقف على خاطر عبد المسيح، ان نرى من هو الشخص الذي يثق به ويمكن ان يتعاون معه لا ان يتحداه ويفشله بماله من سلطان أو نفوذ على القوميين الاجتماعيين!.

وطرحت الاستقالة... وقبلت. ودون على المحضر قبولها دون ذكر عدد الأصوات.

قبلت الاستقالة وعين موعد جلسة انتخاب الرئيس الجديد الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم. وأبلغت الامينة الأولى هاتفياً.

في جلسة بعد الظهر، وكنا لا نزال ثمانية (لست متأكداً من وجود معروف صعب بيننا) بحثنا في المرشحين، أي الذين نرشحهم نحن، لأنه لم يكن بعد لدينا نظام مفصل لكيفية ترشيح المؤهلين للقيادة، فطرحت عدة اسماء: «طرح عبد المسيح اسمي ثم اسم عبدالله محسن ثم اسم عصام المحايري»....

كان عصام عميد الاذاعة عند جورج عبد المسيح ومتعاوناً معه تعاوناً مطلقاً....

انتخبنا عصاماً رئيساً للحزب بالاجماع ووجدت ورقة بيضاء اعتقد أنه هو واضعها.

هنأه عبد المسيح وهنأناه جميعنا بحرارة. كان موضوع ثقة الجميع وتقديرهم وان كنا نأخذ عليه تباطؤه في التنفيذ. أنه ذو طبع بارد يأخذ الأمور بكثير من التوءدة! ما كان هذا رأينا بقدر ما كان رأياً موحى به من جورج عبد المسيح الذي يعرفه أكثر من أي واحد منا...

ثم اتفقنا على ان يبقى انتخاب الأمين عصام مكتوماً حتى يوم الخميس المقبل ليكون الامين عبد المسيح قد أعد بياناً يعمم به على القوميين بأسلوب ايجابي، أمر استقالته وانتخاب الامين عصام رئيساً.

تقرر ذلك بالاجماع.

وانصرف كل منا الى مركز عمله فوصلنا نحن الخمسة امناء اللبنانيين الى بيروت ومنها توزعنا. اعتقد ان الامين حسن الطويل حماده لم يتضامن معنا في قبول استقالة جورج عبد المسيح، ولكنه اشترك في انتخاب الامين عصام المحايري مما يعني انه لم يكن ضد الاستقالة.

وصدف ان كان الرفيق جميل أبي عجرم، شقيق الرئيس فؤاد عائداً الى مركز عمله في فلنت ـ ميشيغن، فأقام شقيقه حفلة وداع في منزله الذي كان قائماً في ساقية الجنزير التي تغيرت معالمها كلياً في السنوات الماضية. وقد دعي الى هذه الحفلة عدد من الامناء والمسؤولين كنت بينهم. وكان الرئيس المنتخب الأمين عصام قد حضر الى بيروت فدعي هو أيضاً الى الحفلة وحضر... وطلب الي الأمين فؤاد ان ألقي كلمة وداع للرفيق جميل الذي كانت تربطني به مودة خاصة، فوقفت ألقي كلمتي.

يصعب على المرء أحياناً التقيد بالنظام مهما كان دقيقاً في انضباطه. كنا بالإجماع ومعنا عبد المسيح ـ قد انتخبنا الامين عصام رئيساً ـ فكيف أخاطب رئيس المجلس الأعلى، والأمين عصام حاضر ولا أتوجه اليه كرئيس حزب. ثم ان الحاضرين كانوا قلة فلم تكن كلمتي تبليغاً ولا بياناً بل كلمة عابرة وفي مناسبة عائلية.

خاطبت اذن الرئيسين كلا بذكر رئاسته. فما أنهيت هذا التوجه حتى كان الأمينان اميل رعد ومصطفى عز الدين قد انسحبا وكذلك الرفيق الشاعر وليم صعب الذي كان هو أيضاً حاضراً.....

استغربت هذا التصرف. ولكن أدركت في اليوم التالي ان له ما بعده.

فماذا حدث؟

حدث ان الأمين عبد المسيح ندم على استقالته، بعد ان عادت الأمينة الأولى من رحلتها الى ضهور الشوير، وبعد ان التف حوله المركزيون الذين كان قد انتقاهم لمعاونته، فقامت بينه وبينهم علائق ووشائج خاصة ومتينة. وانطلق شعار الاحتجاج على قبول استقالته وانتخاب الأمين عصام! وراحت تكال المواصفات الخبيثة بحقه كما بحق رئيس وأعضاء المجلس الأعلى. ان عبد المسيح هو ضمانة استمرار الحزب وتقدمه. انه رئيس فريق «الصراعيين» في الحزب بينما جماعة المجلس الأعلى من «السياسيين» وكانت ذروة الاحتجاج التي استنبطها... بينما عبد المسيح وأعوانه تمسكوا بالمادة من الدستور التي تنص، ان قبول الاستقالة يقتضي توفر ثلثي اعضاء المجلس وعددهم ستة، فيما صوت مع الاستقالة خمسة فقط. وساعده على ذلك عدم وضوح النص الدستوري الذي ورد هكذا: «ترفع استقالة رئيس الحزب الى المجلس الأعلى الذي له حق القبول والرفض وحق الاقالة بأكثرية الثلثين».

من هذا النص، استنتج عبد المسيح ان قبول الاستقالة ورفضها والاقالة كلها تفرض تلك الاكثرية.

لم يكن لدينا نص يمنحنا كمجلس أعلى حق تفسير الدستور والاجتهاد فيه، فاستأسد عبد المسيح تدعمه الامينة الأولى في المطالبة بأبطال قرار قبول الاستقالة وبالتالي أبطال انتخاب الامين عصام رئيساً للحزب.

وراح عبد المسيح يؤلب المنفذين العامين والمسؤولين المركزيين للمبادرة الى الاحتجاج الخطي والمطالبة بما ذهب اليه اجتهاده والضغط اذن على المجلس الأعلى بهذا الاتجاه..

ووردت رسالة اعتراض موقعة من عبد المسيح حملتها الأمينة الأولى الى بيروت مؤيدة داعمة والتف حولها قوميو بيروت بما يشبه مظاهرات الاحتجاج الصامتة.

كانت تلك التحركات والضغوطات بداية عهد الانحطاط النظامي والانضباطي في الحزب. لقد طرد سعاده نعمه ثابت، المثلث الرئاسات، فلم ينتصر له أحد. مارس الزعيم صلاحياته فخضع القوميون. وفي مسألة عبد المسيح، قدم الرجل استقالته طائعاً مختاراً، وأصر على طرحها للتصويت. ثم سلم بأن الخمسة الذين قبلوها هم الاكثرية، ثم اشترك في ترشيح وانتخاب الأمين عصام المحايري. فعلى فرض ان هنالك سبباً للأبطال فقد سدد بقبوله ورضاه!.... ثم ان قرارات المجلس الأعلى مبرمة لا تقبل الاعتراض. قراراته تصبح سابقات عرفية لها قوة القانون طالما لم ينص الدستور على إيجاد سلطة تنظر في هذه القرارات تأييداً أو أبطالاً.

ثم ان العقل الحقوقي يرفض ان يساوي بين أهمية الاستقالة وأهمية الاقالة. الاستقالة تقبل أو ترفض بالأكثرية العادية اما الاقالة فتفرض أكثرية الثلثين لأنها نوع من الادانة والعقاب. إذ لا يقال رئيس الحزب الا بأن يرى ذلك أكبر عدد من اعضاء المجلس بضمان التروي في الاقالة فلا تأتي اعتباطاً.

ورحت أتشبث بهذه النقاط وأهمها بنظري ان المجلس الأعلى قبل الاستقالة دون ان نذكر عدد الأصوات. فكيف بمقدوره ان يرجع عن قبولها؟ ثم كيف يسمح للرئيس ان يعترض وهو الذي استقال طوعاً وهو الذي رضخ لقرار قبول الاستقالة وهو الذي رشح واشترك في انتخاب الأمين عصام رئيساً؟.... ان الأمين عصام صار رئيساً للحزب، أي للدولة القومية المصغرة، أو الرمزية، فأين هي السابقة في تاريخ انتخاب الرؤساء التي تجيز أبطال انتخاب رئيس اشترك سلفه بانتخابه وبارك وهنأ؟....

كيف نفذت مراحل ذلك المسلسل الرهيب من الاعتداء على صلاحيات المجلس الأعلى وحقوقه وقراراته؟.

1 ـ دعينا الى دمشق من قبل عبد المسيح في يوم الأحد التالي لقبول استقالته فتداولنا في الأمر وقررنا مواجهة مسؤولياتنا صامدين. واجتمعنا في بيت الأمينة الأولى التي كانت حاضرة. وكان المنفذون العامون وأذكر منهم وليم صعب وحسن قنديل ومصطفى عز الدين ومصطفى عبد الساتر وسواهم قد احتلوا الصالة بطولها وعرضها. فما ان استقر بنا المقام، حتى توافدوا الواحد بعد الآخر يحملون عرائض احتجاج ويطالبون بالرجوع. عن قبول الاستقالة. وكان عبد المسيح قد حشد اثنين أو ثلاثة من المسلحين على رأسهم الأمين سليم سعد والرفيق سالم ومركزهم في الممر بين غرفة السفرة وغرف النوم، وكنا نحن في اجتماعنا نسمع خرطشة البنادق، دون أن يدور في خلدنا ان الأمر وصل بجورج الى التهويل علينا بالسلاح!.

وبعد هذه المراسم، أخذني الامين والصديق العزيز مصطفى عبد الساتر أحد أدباء وخطباء الحزب وأدخلني الى احدى الغرف وأقفل الباب وقال لي: «ركبتاي تصطكان.الحزب في خطر الانشقاق. يا أمين عبدالله تداركوا هذا الخطر. جورج عبد المسيح ضمانة والقوميون لا يقبلون عنه بديلاً».

قلت لمصطفى: «أهكذا اذن تنهار صلاحيات المجلس الأعلى». أجاب: «أفضل من ان ينهار الحزب!» (الامين عبد الساتر توفي في 26 تموز سنة 1991).

رحت بدوري تصطك ركبتاي.

ما العمل؟

كنت قد اتخذت موقفاً. وأنا عنيد في الحق. وكنت مصمماً على انقاذ هيبة المجلس الأعلى، وواثقاً بالنتيجة ان القوميين لا يمكن ان يتمردوا عليه اذا تمرد عبد المسيح!.

بهذه المناسبة استبق الزمن وأروي ما قالت لي الامينة الأولى في فنزوالا سنة 1967 بعد ان خرجت من السجن، وكنا قاصدين مدينة مراكيبو ـ العاصمة الثانية ـ في زيارة حزبية استقبلت فيها الامينة استقبال الفاتحين: «يا أمين

عبدالله لقد عرض علي عبد المسيح ان نعلن حل المجلس الأعلى ونتسلم معاً قيادة الحزب سنة 1954، فرفضت وأصررتُ على إيجاد تسوية دستورية.....» ثم زادت: لقد أخطأت، أخطأت، أخطأت...

وعدنا الى الاجتماع ثانية في دمشق في الأحد الذي تلا، وطرحت مسألة الاستقالة. كان موقفي واضحاً. تشبثت به حتى آخر ثانية: «ما من رجل لا يستغنى عنه. استشهد الزعيم والحزب لا يزال مستمراً نامياً.... استقال عبد المسيح وقبلنا الاستقالة وانتخبنا الأمين عصام. يجب أن نثبت في هذا الموقف مهما تكن النتائج».

هنا مررنا بفترة استراحة. ذهبت الى غرفة السفرة لأتناول كوباً من الماء. فلحق بي عبد المسيح وقال لي: «سأعينك محامياً عن الحزب القومي بتعويض شهري أربعماية ليرة وقل للأمين فؤاد اني سأطرد خالد الذي افترى عليه. دبروا الأمر أنت وفؤاد».

وكاد يطير صوابي. يلجأ صديقي ورئيسي جورج عبد المسيح الى هذا الاسلوب ليعود الى كرسي الرئاسة!. يحاول رشوتنا انا وفؤاد أبو عجرم!!

الا ان الرياح كانت تجري لمصلحته. لقد اصطكت ركبتاي وركبتا مصطفى عبد الساتر. ها هي كل الركب تصطك... وكانت النتيجة ان أقيل عبد المسيح بأكثرية الثلثين. ثم منح المجلس رتبة الامانة لخمسة وثلاثين أميناً، كان اقترحهم عبد المسيح لنيل الرتبة، وأكثرهم من أنصاره ومريديه وأعوانه، وبعد الاقتراع والتسمية، عدل المجلس الأعلى المادة /14/ القديمة من القانون الدستوري الثامن، والتعديل يفرض عليه حل نفسه، فأصدر قراراً بحل نفسه وكنت الوحيد الذي عارضه على ما أذكر. هذا لم أكن أخذت أنا بالتيار الجارف وقبلت مرغماً بالحل...

ان أنسى لا أنسى، موقفين أسجلهما لاثنين من كبار قادتنا الامين الدكتور سامي خوري، والأمين الراحل أديب عازار.

كان المجلس الأعلى وشيك الاجتماع لاتخاذ قراره النهائي بالموضوع، فشاهدت بعيني الامين أديب عازار واقفاً على كرسي في مكتب الامين جورج يصيح بملء فمه: «يامجرمين تقبلون استقالة عبد المسيح!».

وأما الأمين سامي الخوري فأذكر أنه كان بالغ الحماس والغضب يعلن سخطه على المجلس الأعلى إذا لم يجد حلاً وينتخب رئيساً على الفور! أعتقد أنه كان مع إعادة انتخاب عبد المسيح!

لا أستطيع إذن أن ألوم زملائي اعضاء المجلس ورئيسه فؤاد أبي عجرم لأنهم رضخوا لمطالب المنفذين والقادة الحزبيين، ان الضغط النفسي بلغ بهم الذروة.... كانوا بالنتيجة يريدون الخلاص من ذلك المناخ المسموم المكهرب!.

وعين يوم الأحد 30 تشرين الثاني 1954 موعداً لانتخاب اعضاء المجلس الأعلى الجدد. كانت العادة ان يترشح الأمين او ان يرشحه أمين آخر قبل ان شرعنا نصا لقانون انتخاب هيئة المجلس التي كان ينتخبها الامناء وحدهم!.

كان بين الامناء الجدد نذير العظمة أحد كبار شعراء النهضة وعيسى سلامة المحامي الذي لعب فيما بعد أدواراً رئيسية على المسرح الحزبي سواء في اللاذقية أو في لبنان أو في اوروبا وأميركا أو في الاردن أو في الارجنتين... وحسن جمال وعادل يعقوب والمحامي أحمد حمود ـ المحامي اللامع الشهيد فيما بعد ـ وأديب عازار والدكتور سامي الخوري أحد مفكرينا وأخلاقيينا ومصطفى عبد الساتر، ومصطفى ارشيد ومصطفى عز الدين، وجبران جريج وإنعام رعد وكامل حسان ووليم صعب وحسني حداد وجميل مخلوف وحنا كسواني وهاجم فلوح ومنصور اللحام وادمون كنعان ونجيب صعب ومحمد يوسف حمود وابراهيم يموت ومحمد راشد اللاذقي وفاضل كنج ومنير الحسيني وفؤاد شوّاف وعمر أبو زلام ونوري الخالدي وحسن قنديل وسليم صافي حرب وجورج جورج وأسد الاشقر واسكندر شاوي واميل رعد وجورج صليبي....

اجتمع كل هؤلاء الامناء أو أكثرهم ـ لأن بعضهم يقيم بعيداً أوكان مهاجراً ـ وبلغ العدد حوالي الخمسين أميناً.

كان عبد المسيح والأمينة الأولى يعاونهما الباقون مسيطرين على الموقف، بدون انزعاج. الامناء الذين تسببوا بالمشكلة فؤاد أبي عجرم، أديب قدورة كامل أبو كامل وعبدالله قبرصي استبعدوا من كل اللوائح وبعضهم لم يرشح نفسه.

انعام رعد كان مغضوباً عليه لموقفه الفكري المناقض لموقف عبد المسيح وبالفعل نجحت اللائحة التي طرحها عبد المسيح بأكملها. وكان المجلس قد رفع عدد اعضائه من تسعة الى 15 فانتخب الامناء خمسة عشرة عضواً.

كان بين الناجحين: أسد الاشقر جورج عبد المسيح ومصطفى ارشيد الامينة الأولى حسن الطويل حمادة اسكندر شاوي فاضل كنج مصطفى عبد الساتر محمد يوسف حمود ابراهيم يموت كامل أبو كامل أديب عازار حسن الجمال والدكتور سامي الخوري وعصام المحايري وقد بلغ عددهم الخمسة عشر أميناً. بعد اعلان النتيجة سمعت بعض الامناء يتهامسون: الأمين قبرصي ليس بين الفائزين؟ كيف يجوز ذلك وهو رجل قانون؟ وأبو الدستور؟

وانتخب الأمين حسن الطويل رئيساً للمجلس الأعلى، كما انتخب الأمين جورج عبد المسيح ـ كما كان منتظراً ـ رئيساً للحزب. بعد ان قدم الامين عصام المحايري استقالته من الرئاسة الى المجلس الأعلى الجديد وفقاً لتقاليدنا الحزبية التي شرعت حالياً مادة في الدستور. وقد انتخب بعشرة أصوات ضد خمسة. أكد لي مصطفى عبد الساتر كما أكد لي مصطفى ارشيد انهما لم ينتخباه، أما الثلاثة الباقون فلا أعرف منهم أحداً.

كنا قد توافقنا مع الامين عبد المسيح قبل ان نحل أنفسنا، بأن تنفصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية. فلما انتخب عبد المسيح للرئاسة استدعى الامين عصام المحايري وكلفه بأن يكون عميداً للإذاعة فقبل. شغر عندها مركزان في المجلس الأعلى، مركز عبد المسيح ومركز عصام. واستبقى الامناء في قاعة الانتخاب تحوطا لشغور مثل هذين المركزين، ليتم ملأهما....

وبالفعل فتح باب الترشيحات لهذه الغاية فرشح عبد المسيح اثنين من مؤيديه، هما أحمد حمود ـ الذي استشهد سنة 1958 والأمين هاجم فلوح. ورشحني أحد الامناء انا والأمين انعام رعد فقبلنا ساكتين. ورغم انتصار عبد المسيح، انتخبت أنا والأمين انعام رعد بأكثرية ساحقة.

الحقيقة اني لا أذكر اني حضرت أية جلسة للمجلس الأعلى برئاسة الامين حسن الطويل، واستهجنت انتخابه بوجود الامناء أسد الأشقر ومصطفى ارشيد

ومصطفى عبد الساتر من رجال القانون وبخاصة مصطفى ارشيد الذي كان نائباً في مجلس النواب الاردني يدخل الى المجلس بل الى مكتب الملك الحسين بن طلال ويحيى الجميع بالتحية السورية القومية الاجتماعية! كان الرجل قادراً على تحمل مسؤولية رئاسة المجلس على أفضل وجه. حسن الطويل من أبطال النهضة، ولكنه ليس رجل قانون!.

اعادة عبد المسيح الى رئاسة الحزب، بعد الأزمة التي افتعلها لضمان عودته كان لها ما بعدها، إذ سخر بنا عدد كبير من الرفقاء الواعين يسألون ويحتجون. كان جوابنا ان المجلس الأعلى قرر وعلينا الخضوع. هذا الكلام كان بالإمكان ارساله بتلك المجانية لو لم يدرك عدد كبير من القوميين ان تسوية ما تمت، على حساب صلاحيات المجلس وسلطانه. ولكن لم يكن بد من طي الاستقالة والإقالة وإعادة الانتخاب.

في دراسة قدمتها الى المؤتمر القومي الاجتماعي العام الذي انعقد في بولونيا في تموز 1984 ذكرت ان الضربة التي قضت على هيبة المجلس الأعلى ونفوذه على الصف القومي الاجتماعي كانت سبباً مباشراً وأكيداً لانخفاض قيمته القيادية بل لتعطيل مفعول النصوص الدستورية التي تجعل منه السلطة العليا فعليا وبالمقابل جعل رئاسة الحزب هي المهيمنة على مقدراته والسلطة العليا فعلياً.... وتاريخ الحزب حافل بالشواهد اذ ان كل انشقاق في الحزب، حتى الانشقاق الأخير الذي قام به الأمين عصام المحايري سنة 1987 تم على حساب سلطات المجلس الأعلى. اني أزعم هنا انه لو رضخ عبد المسيح لقرار المجلس الأعلى بقبول استقالته ثم بإقالته، لما كان تجرأ رئيس من بعده على التمرد، لكان القدوة في الخضوع لقراراته وتنفيذها بالروحية القومية الاجتماعية المتواضعة المنزهة عن الأنانية وحب التسلط. اما وقد تمرد ثم أجبر المجلس الأعلى على التراجع والتنازل والرضوخ، فقد قضي الأمر. الكلمة الأخيرة في الحزب أصبحت لرئيسه مما حملني على القول وأنا أطالب بقيادة جماعية للحلّ محل الرئاسة بأن الحزب هو رئيسه وكنت أعني بذلك ان كل رئيس من الرؤساء ـ ولا أستثني أحداً ـ حتى الأمين انعام رعد أكثرهم مرونة وانصياعاً في تعامله مع المجلس ـ وان شكلاً في بعض الأحيان ـ أعتبر نفسه

زعيماً لا رئيساً ومارس صلاحيات الزعيم اغتصاباً، متستراً بأنه ينفذ سياسة المجلس الأعلى وخططه، فيما كان ينفذ على الأرض سياسته وخططه الرئاسية ضامناً بنفوذه على الامناء، وجود مجلس أعلى طيع، لين العريكة، منقاداً!

لنترك التنظير عند هذا الحد، ولندع الوقائع والحوادث الجارية او التي ستجري، تتكلم بأبلغ مما نتكلم. كل تنظير لا تؤكد صوابيته ومصداقيته الممارسة لا محالة ساقط..... المعرفة تجربة لا رؤية.

وجاءت حادثة بعقلين، لتنهي رئاسة الأمين حسن للمجلس الأعلى. فقد كانت هيئة منفذية الشوف مجتمعة في أحد بيوت البلدة برئاسة الرفيق عادل حسن، فإذا بالأمين حسن الطويل يحضر مع عدد من القوميين، ويأمر المنفذ والهيئة برفع الجلسة والانصراف لأنه غير موافق على اتجاهاتهم في بعض الشؤون المتعلقة بالمنطقة ـ وأهمها انتخاب شيخ عقل جديد ـ أسف اني لا أتذكر هذه الشؤون رغم عرض الأمين حسن لها تفصيلاً في جلسات لاحقة.... ورفع المنفذ العام شكواه من هذا التصرف الارعن بواسطة رئيس الحزب. وانعقد المجلس وكنت حاضراً مع الأمين انعام رعد للبحث في الشكوى. فشن المجتمعون حملة عنيفة على رئيسه، فإذا به ينتفض ويقدم استقالته، فتقبل. وكذلك استقالة الناموس. وعينت جلسة لانتخاب رئيس جديد وناموس جديد...

رشحني البعض للرئاسة ورشح البعض الآخر الأمين أسد. عبد المسيح مع كل مرشح الاي. ألم أكن بطل الحملة التي أوجبت استقالته واقالته؟

وجاءني أحد أقرب المقربين الى الرئيس عبد المسيح الامين محمد يوسف حمود الذي ينتخب لأول مرة عضواً في المجلس الأعلى بعد ان أصبح أميناً من امناء الحزب، وقال لي:

«يا أمين عبدالله، دع الرئاسة للأمين أسد فهو مرتاح مادياً، أكثر منك، بيته مفتوح ولديه سيارة وسائق... الخ...».

لم أجب على هذا الكلام. واستمريت في ترشيح نفسي. وجرت عملية الاقتراع فإذا بي أحصل على عشرة أصوات والأمين أسد على خمسة! كانت أفضليتي على ما أتصور نابعة من ان السلطة العليا سلطة تشريعية في الأساس

واني رجل قانون وتصح عملية التوازن بين المجلس والرئيس.

وانتخب الامين انعام رعد ناموساً للمجلس... وكانت المرة الأولى التي يصعد فيها الى السلطة العليا، بعد ان أكد مواهبه الكتابية والخطابية وتفوق في الميدانين، مما حمل سعيد تقي الدين على القول بأنه من أفضل خطباء الشرق العربي كله.

في مجال القيادة الحزبية، لا أتواضع. فقد عينني سعاده، زعيماً بالوكالة سنة 1935 كما كان عينني عميداً للإذاعة، ثم رئيساً لمجلس العمد سنة 1936، ثم رئيساً لمجلس وكلاء العمد عند سفره في حزيران 1938 ثم عضواً دائماً في المجلس الأعلى، ثم رئيساً دائماً للشعبة السياسية اللبنانية... اذن كنت تقريباً منذ بداية انتمائي الى الحزب وحتى ذلك التاريخ 9 - 1 - 1955 في مراكز قيادية عليا. ان انتخابي رئيساً للمجلس في ذلك الظرف كان بالنسبة لي انتصاراً على ارادة جورج عبد المسيح باقصائي عن أي دور قيادي... وأعتقد ان انتخاب الامين انعام رعد لم يكن بعيداً عن هذا المناخ وهذا الواقع. كان الامناء اعضاء المجلس الأعلى بما فيهم الامناء المقترحون من قبل عبد المسيح، يتوخون من انتخابي حصول توازن في القيادة العليا، فلا يعتقدن ان الجو خلا له ليتصرف على كيفه وهواه. لقد ذكرت سابقاً وأكرر وأشدد بأني في حملتي على عبد المسيح بعد ان شربنا أنا وباقي الزملاء حليب السباع من عين ميسلون، لم يكن التخريب بل التصويب، لم يكن النيل من رئاسة عبد المسيح بل اشعاره بقوة وعناد بوجود المجلس الأعلى وتصميمه على ممارسة صلاحياته. هو أضاع هذه الفرصة لا نحن. أقول هذا رداً على ما ذهب اليه عبد المسيح في اجتماع لاحق لمجلس الامناء برئاسة الامين ابراهيم يموت في دار الامين الراحل أسد الاشقر من أنه يملك وثيقة بخطي أو خط انعام رعد تثبت تآمرنا عليه، ثم تأكيده هذا الزعم في حديث الى مجلة الشراع البيروتية في ربيع 1987... ان ادعاءه لا يزال ادعاء. أكتب هذا التأكيد وأنا أعلم اني أصبحت على حافة قبري وان هذه الذكريات قد تنشر بعد وفاتي لابرأ نفسي من تهمة غير صحيحة بل ليطمئن عبد المسيح ان وثيقته مزورة وانها افتراء... عبد المسيح كان من أقرب الامناء الي، ومهما اختلفت وأياه في الرأي ومهما

قسوت على ما أرتكب من اخطاء، وحتى بعد طرده، أظل أحفظ له في أعماق صدري المحبة والتقدير لبطولته وحرارة ايمانه بالنهضة وبالمعلم...

وبدأنا بممارسة صلاحيات رئاسة المجلس.

وعقدنا أول جلسة برئاستي وناموسية الامين انعام رعد في دار الامينة الأولى في دمشق في حي الازبكية المتفرع من شارع بغداد وذلك بتاريخ 9 - 1 - 1955.

ما ان فتحت الجلسة باسم سوريا وسعاده، حتى طلبت الامينة الأولى الكلام وقالت: «ان الامين عبدالله قبرصي لا يجوز ان يرأس المجلس الأعلى وعليه دعوى عالقة بأنه أقدم على اهانة الرئيس الامين عبد المسيح اذ قال لأحد الرفقاء في بيروت بعد اقالته: «لقد أسقطنا الطاغية».. قبل البت بهذه الدعوى لا أرى ان الأمين قبرصي صالح لرئاسة المجلس»...

ما فقدت أعصابي. ان الأمينة الأولى شريكة حياة المعلم، وان الأزمة مع عبد المسيح تكفينا هزات وخضات.

طلبت من الناموس تدوين ملاحظة الامينة الاولى. وبوصفي رئيس المجلس اتخذت القرار الاداري التالي: «ان المجلس الاعلى مقيد بجدول أعماله في أبحاثه ومناقشاته، وبما ان هذا الموضوع غير مدرج على جدول الاعمال، فمن واجبي ارجاء البحث فيه الى موعد آخر اذا لم تسحبه الامينة الأولى...».

وكان الاستجواب بداية ونهاية. لم تعد الامينة الجزيلة الاحترام الى طرحه مجدداً على الاطلاق. انها قديسة الحزب وأم القوميين كباراً وصغاراً فكيف تفعل.

أما الدعوى التي كانت مقامة علي فصحيحة اذ سألني الرفيق السابق لبيب زويا ونحن في مطعم فيصل في بيروت: «ماذا فعلتم لجورج عبد المسيح؟». فأجبته: «اسقطنا الطاغية». وكنت أعني ما أقول لأنه بالفعل كان قد تحول الى طاغية... ككل الرؤساء الذين تعاقبوا على رئاسة الحزب، وان يكن تفردهم أو تفرد بعضهم ما بلغ حدود طغيان عبد المسيح...!. الطغيان بنظري

كان معناه تجاوز الرؤساء - وعبد المسيح في طليعتهم - حدود صلاحياتهم المنصوص عنها في الدستور... أنا مضطر لهذا التفسير لئلا يدور في خلد البعض اني أذهب في اتهامي الى أبعد من ذلك! أما أحجام الامينة عن اثارة موضوع الدعوى المقامة علي فناتج عن ان هذه الدعوى أصبحت من صلاحيات المجلس الأعلى، اذ أنه وحده صاحب الحق بمحاكمة ومعاقبة رئيسه ورئيس الحزب. ثم ان مجرد اعطائي التفسير الذي أعطيت لما أعنيه بالطغيان يفقده طبيعة الجرم الجزائي لأني كنت قادراً على اثبات تجاوز عبد المسيح لصلاحياته. ان مجرد عودته عن استقالته والتشبث بأنها تقرر بأكثرية الثلثين وتأليبه المنفذين العامين ضد قرار المجلس كان كافياً لحمايتي من أن أكون ارتكبت مخالفة تقع تحت طائلة قانون الجزاء بمفهومه العام أو بمفهومه الحزبي.

واستمرت جلساتنا طبيعية. كان الامين عبد المسيح في رئاسته الجديدة قد استجاب لقرار المجلس بوجوب رفع محاضر جلسات العمد اليه ليأخذ علماً بما يجري في الحزب، من جميع الجهات. بقيت نقطة واحدة مخفية عن المجلس وكان ذلك حقاً وصواباً هي معرفة التنظيمات الحزبية داخل الجيش. كانت هذه التنظيمات مرتبطة رأساً برئيس الحزب وعميد دفاعه الذي كان قد أصبح المقدم غسان جديد ووكيل العمدة الامين اسكندر شاوي... عمدة الاذاعة بقيت مع الامين المحايري والثقافة مع الأمين سامي الخوري وكان كل منهما مؤهلاً لهذه المسؤولية في الواقع.

الانجازات الأولى للمجلس الأعلى برئاستي

كان الانجاز الأول هو إبرام قانون المحكمة الحزبية... كنا قد تعاونا على وضع مشروع القانون ورحنا نتدارسه كفريق عمل منسجم. الهزّة التي خضت الحزب وكادت ان تتسبب بانقسامه رحلت الى غير رجعة. لقد استفدنا من التجربة المرة التي قطعناها... لقد كانت بالفعل قطوعاً.

لا أدعي ان القانون الذي أبرمه المجلس كاملٌ الا أنه نص على التحقيق والمحاكمة والعقوبات بصورة عامة. انه سد فراغاً تشريعياً في ما يتعلق بالمحاكمات وأصولها وكيفية صدور الأحكام والصلاحيات. كما نص على وجود مدعي عام أسميناه بناءاً على اقتراحي ممثل الحق القومي، باعتبار ان وظيفة النائب العام في أي تشريع عصري هي تمثيل المجتمع (والشعب والأمة والوطن) في الملاحقات والتعقبات الجرمية. ثم اتخذت في المشروع الذي وضعته وأُقِرّ، الحيطة من أن يقع التحقيق والمحاكمات تحت تأثير السلطة التنفيذية لتمكين المحكمة من اصدار أحكامها بحرية وتجرد. هذه الحيطة كانت في ان للمحقق أو لهيئة التحقيق أن تستمع الى المتهمين والأظنّاء والشهود دون اللجوء لاستدعائهم الى التسلسل الهرمي في الحزب. ان لها صلاحيات مطلقة تمكنها من دعوة من تشاء مباشرة.

أنجز القانون وأبرم في 15 - 1 - 1955 أي بعد انتخابي لرئاسة المجلس بستة أيام فقط، مما يدل على أننا كنا حزمنا أمرنا لنكون مجلساً فعالاً...

انجاز قانون الضريبة التصاعدية

وكان القانون الثاني الذي تدارسناه وأقررناه ـ قانون الضريبة التصاعدية على الامناء.

اعترف أن خبرتي بالقوانين المالية والضرائبية بصورة عامة لم تكن باهرة. أخذ الأمين اسكندر شاوي الأمر على عاتقه وراح يضع نصوصاً تَبنَّينا أكثرها بناء على الحاحه. أذكر ان كل أمين ملزماً بإعطاء الرقم الحقيقي لدخله السنوي، دون اسقاط النفقات التي ينفقها لتحصيله، وان عليه أن يدفع من هذا الدخل مبلغ خمسة بالمئة لتصل الضريبة الى خمسة عشرة بالمئة من الدخل الذي يتجاوز حداً معيناً....

أعترف أن هذا القانون بقي حبراً على ورق. كل قانون ليس وراءه سلطة تنفيذية تسهل الاجراءات العملية لوضعه موضع التنفيذ يبقى في حدود الطوباويات والتمنيات.

الاجتماع التاريخي في 12 شباط 1955

كان هذا الاجتماع هاماً جداً، فقد عقد بناء على قرار من المجلس الأعلى للاستماع الى رئيس الحزب وإلى عميد الدفاع المقدم غسان جديد عن أهمية تنظيماتنا العسكرية ومدى فعاليتها وإمكاناتها. كان اجتماعاً مشتركاً للمجلس الأعلى ومجلس العمد ومحاطاً بالسرية في أوسع حصانتها.

دام هذا الاجتماع ساعات طويلة. لكن هذه المرة الأولى التي اجتمعت فيها الى غسان جديد واستمعت اليه محدثاً ومقرراً... لقد كان نجم ذلك الاجتماع بشخصيته المحببة، وتفكيره الواضح والدقيق.

طبعاً كان مطلوباً أن نحافظ جميعاً على أسرار ذلك الاجتماع، فالأمر يتعلق بالعسكر ويتعلق بالوقت نفسه بمصير الحزب. كان الزعيم شوكت شقير قد تسلم رئاسة الأركان وكان نائبه العقيد عدنان المالكي من كبار الضباط المعروفين بعلاقتهما بحزب البعث. وكان غسان جديد اما صرف من الخدمة وأما مهدداً بالصرف، بسبب خلافاتنا مع البعثيين واتهامهم حزبنا بالتعاون مع الشيشكلي في سياساته اللابعثية إذا لم نقل المعادية لحزب البعث!...

ثم كان مطلوباً أن نبحث كيف نحمي الحزب وأنفسنا من المد الناصري الذي كان وشيكاً أن يصبح الجمهورية العربية المتحدة، بحيث يصفو الجو للناصريين والبعثيين والشيوعيين، ونعزل نحن ونضرب ونقمع!.....

ان المراكز العسكرية التي نسيطر عليها، لم تكتمل حلقاتها بعد، فنحن بحاجة الى بعض المواقع، ليسهل تحركنا في انقلاب ناضج. هذه العملية تقتضينا مهلة ستة أشهر. خلال هذه المدة نحن قادرون أن نحبط أية محاولة انقلاب يقوم بها أي حزب أو الأحزاب الشامية مجتمعة. بعد ستة أشهر يصبح بإمكاننا القيام بانقلاب ناجح، حتى ولو اجتمعت كل الأحزاب ضدنا.

لم تكن لنا أية علاقة بأية دولة أجنبية. وكان موضوع انقلابنا يدرس فقط ليكون محققاً لوحدة الهلال الخصيب عوضاً عن الوحدة مع مصر. كنا نستهدف استهدافات قومية مئة بالمئة.

ثم تتالت اجتماعاتنا وهي روتينية. لم نتصادم مع عبد المسيح كما كان منتظراً ومرتقباً. فالرجل بعد انتصاره الحاسم أصبح أكثر مرونة وان يكن لم تَحَوَّلَ الى نعجة.

اغتيال عدنان المالكي

كانت السيدة معزز برتو.... زوجة الدكتور يوسف روضة صديقة كريمة للحزب. دعتنا الى حفلة تكريمية اقامتها في عاليه لسفير العراق في تركيا في العشرين من نيسان سنة 1955. كنا بدأنا بإقامة علاقات ومفاوضات مع بغداد بقصد عقد اتفاق سياسي معها بعد ان ناصبنا البعثيون والناصريون في دمشق عداء سافراً... لم نكن قد توصلنا بعد الى أي اتفاق في العمق. كانت مناوشات تفاوضية. كانت الأبواب الخارجية قد فتحت أمامنا ولكننا لم نكن ولجناها بعد.

بعد حفلة العشاء توجهنا نحن الضيوف الى فندق مونتانا في عاليه. كنت أسير مع زوجتي وجبران حايك في الطليعة وكان يتبعنا الأمينان انعام رعد - ناموس المجلس الأعلى - والأمين عصام المحايري - عميد الاذاعة - ما ان كنت أهم بالصعود الى الطابق الثاني حيث كانت قد خصصت لي ولزوجتي غرفة حتى بادرني الامين انعام بالتالي: «ان الأمين جورج عبد المسيح يخطط لاغتيال عدنان المالكي». ذهلت لهذه المفاجأة المثيرة وقلت لإنعام: «الغ كل أعمال جلسة جدول يوم السبت المقبل في 23 نيسان أي بعد يومين أو ثلاثة (لأننا كنا في عاليه مساء الاربعاء) وضع هذا الموضوع وحده في جدول الأعمال. كانت جلسة المجلس الأعلى معينة في 23 نيسان سنة 1955وقد وجدت ورقة الدعوة الموقعة من الامين انعام مثبتة هذا التاريخ في جيب عضو المجلس الأعلى الامين فؤاد شواف عند التحقيق معه فيما بعد....

راحت تتجاذبني الوساوس المقلقة. هل يمكن أن يقدم عبد المسيح على هذا العمل دون أن يطلعني على الأقل؟.... وتدبرنا أمرنا أن نكون السبت في 23 نيسان باكراً في الشام.

وصدف انه كنت داعياً الى الغداء يوم الخميس 21 نيسان كلا من الامين المحايري والعميد غسان جديد. وبعد تناول الطعام وفيما كانا يهمان بالمغادرة طرحت زوجتي على الأمين عصام السؤال التالي: «هل زرت السجن في حياتك يا أمين عصام؟». فأجابها: «لا». وكنت قد أصريت على عصام وغسان بالبقاء في بيروت لنترافق معاً الى دمشق يوم السبت. فرفضا.

يوم الجمعة في 22 نيسان ـ يوم مقتل العقيد عدنان المالكي ـ كنت أسهر مع زوجتي عند عائلة صديقة، فلما عدنا في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وجدت ورقة مكتوبة بالحبر معلقة على باب منزلي هذا نصها: «لا تذهبوا غداً الى دمشق». ليس على الورقة أي توقيع.

اختطفتها عن باب المنزل وبعد ان قرأتها مزقتها ورميتها عند المدخل قائلاً بحنق لزوجتي: «من هذا .... الذي يعطيني أنا رئيس المجلس الأعلى أوامر بعدم الذهاب الى دمشق!.

لم يخطر لي ببال ان تنفيذ عملية الاغتيال ستتم بهذه السرعة، ونحن في المجلس الأعلى، لا علم لنا بها ولا خبر.

نمت قلقاً لأفيق في الصباح الباكر جداً، فإذا بجريدة الحياة مدسوسة تحت باب منزلي كالمعتاد لأني كنت مشتركاً بها. أخذتها وقرأت: «اغتيال العقيد عدنان المالكي في دمشق بيد سوري قومي اجتماعي!».

كاد ان يحدث لي ما حدث ساعة عرفت بمصرع سعاده. الا اني تمالكت نفسي. ضبطت أعصابي بإرادة فولاذية. قرأت الجريدة ثم ألقيتها جانباً ورحت أتصل بالامناء. تلاقينا عندي وتداولنا. كانوا كلهم في حالة وجوم.

بعد الاجتماع، قررت التحرك الى شتورة لعلي أتلقى المزيد من العلومات. بل يسهل علي التقدم باتجاه دمشق إذا قررت التقدم. وسرعان ما فجعت إذ وصلت إلي أخبار دمشق من الرفيق ميشال سعاده في شتورة. قتل المالكي فأحرقت مطابع الحزب ومكاتبه. هرب عبد المسيح. بيت الأمينة الأولى مطوق. الأمين عصام يأبى أن يغادر منزله. انه بريء ولن يتوارى!.

واتصلت مع ذلك بالأمينة الأولى فإذا هي في حالة قلق واضطراب. قالت لي: «ليس لنا دخل بهذه الجريمة ومع ذلك فدارنا مطوقة. ننتظر لنرى ماذا

يحدث!» قلت لها: «نحن تحت تصرفك لأي أمر طارىء. إذا كانت هنالك ضرورة لنحضر سنحضر ولو كلفنا الحضور حريتنا. نحن أبرياء!».

وعدت أدراجي الى بيروت، واتصلت بمن أستطيع. فعقدنا العزم على الالتقاء في بيت الرفيق سعيد تقي الدين الذي كان قد عين عميداً للإذاعة. والتقينا. كل أعضاء المجلس الأعلى الموجودين في بيروت وكل العمد القادمين من دمشق، استنكرنا ما حدث وعرفنا من الرفيق سعيد والعميد غسان والامين جريج أنهم كانوا مجتمعين في دار الأمينة الأولى في مجلس عمد لبحث شؤون روتينية وإذ حضر فجأة الرفيق فؤاد جديد شقيق غسان يخبرهم أن الرفيق يونس عبد الرحيم قتل العقيد عدنان الماكي وانتحر في الملعب البلدي. البلد في هياج، فلم يتردد الجميع من مغادرة المنزل. عبد المسيح ذهب مع الأمين كامل حسان تاركاً أوراقه وأوراق الحزب على الطاولة، تاركاً الأمينة الأولى، بعد ان كان أمر شقيقته بالأمس بوجوب مغادرة الشام الى بيت مري، وفي الطريق «بشر» الأمين كامل بأن الحزب سيستلم الحكم بعد ستة أشهر (قصة سفر شقيقته روتها لي الأمينة الأولى في فنزوالا).

أما العمد الذين كانوا يسكنون بيروت وهم الأمين جبران جريج والعميد غسان جديد والعميد سعيد شهاب الدين والرفيق العميد سعيد تقي الدين، فركبوا سيارة واتجهوا الى بيروت. تعطلت قرب الملعب البلدي، فراحوا يدفشونها الى أن تحركت. قطعوا الحدود وبعد خمس دقائق، يقول لي أحدهم صدر أمر بإغلاق المطارات والحدود معاً!.

لا علاقة للحزب بالإغتيال

ما العمل؟ طرحت على المجتمعين السؤال؟

نحن أبرياء قلت. الحزب بريء. إذا كان عبد المسيح اتخذ القرار فسيلاقي جزاءه. ما رأيكم؟

أجمع المجتمعون بعد ان سألت كل واحد رأيه أن نصدر بياناً أوقعه أنا، نستنكر الجريمة ونستنكر الحملة على الحزب وإحراق مطابعه وزج رجاله في السجون، ونتعهد بأن نفتح تحقيقاً لتحديد المسؤوليات. فالحزب لا علاقة به بالحادث لا من قريب ولا من بعيد.

يوم الأحد في 24 نيسان صباحاً نشرت الصحف هذا البيان على ما أذكر. أما جريدة «الجريدة» فقد نشرته في العامود الأول من الصفحة الأولى.

ومن ثم عينت جلسة مشتركة في منزلي في شارع المكحول في الساعة الرابعة من يوم الأحد في 24 نيسان على ان يدعى اليها كل اعضاء المجلس ومن يتيسر إيجاده من العمد ووكلاء العمد.

جميع الامناء اعضاء المجلس الأعلى تجمعوا حتى الأمين اسكندر شاوي استطاع الافلات وحضور الاجتماع وان في منتصفه!....

أذكر بوضوح ان الأمين اسكندر شاوي كان في مظهر المنتصر. لم يدل بأي تفاصيل. لكنه جعلنا نعتز ببطولة يونس عبد الرحيم الذي انتحر كما أمر أن يفعل. لم يعلن اسكندر شاوي استنكاره للجريمة. مظهره كان مظهر اعتزاز بها. أنه حدث تاريخي بنظره.

كانت أنظار أكثرنا، بعد وجود العميد غسان جديد وإعلانه عدم معرفته بالحادث الا بعد وقوعه، ان الفاعل هو الأمين اسكندر شاوي بالاتفاق مع الأمين عبد المسيح. لماذا الأمين اسكندر شاوي؟ كان كل المسؤولين يعرفون أن نفسيته «نازية». انه رجل عنيف ومع العنف. لقد كان يدرب القوميين على شرب السم، وعلى رمي أنفسهم في البحر انفاذاً للأوامر الحزبية. هكذا كانت تردنا الأخبار دون أن نتلقى أية شكوى خطية لنحقق ونحاكم!. ثم لماذا الأمين عبد المسيح؟ لأننا كنا متأكدين ان الأمين اسكندر شاوي وكيل عميد الدفاع، يتخذ قراراته ويدير العمدة، باعتبار ان العميد غسان يتغيب باستمرار، بالاتفاق مع عبد المسيح مباشرة، متخطياً عميده والنظام.

وطرحنا الموضوع على المجلس ليبحثه من سائر نواحيه القضائية والسياسية والحزبية.... ثم حصرنا الأمر في نقطة أساسية: «هل نفتح تحقيقاً حزبياً فورياً لتحديد المسؤوليات؟».

انقسم الحاضرون الى نصفين متساويين: النصف يريد التحقيق الفوري وعلى رأسه عيسى سلامه، والنصف الآخر يريد التأجيل. وبما أن صوتي كان المرجح، فقد صوتت مع التأجيل لسبب جوهري حاسم: الهجمة على الحزب مدمرة، لأن أخبار الحريق والاعتقالات كانت قد وصلت. فهل يجوز اعطاء ذريعة

للحكومة الشامية أن تتشدد في ملاحقتنا. هل نسلمها أنفسنا؟ أما الذين مع التحقيق الفوري فكانت حجتهم واردة أيضاً: «الحزب بريء ويجب اثبات براءته بكشف الفاعلين الحقيقيين ولو كانوا من قادة الحزب إذا ثبتت عليهم الجريمة.

كان هشام شرابي يقول في اجتماعاتنا الخاصة: «لا تسوية مع الشر أو الخطأ» "No compromise with the wrong" ـ أما أنا بحسمي الموقف ـ أعتبر ـ تاريخياً ـ اني راعيت كل الأصول:

1 ـ لم أعرِّض قيادة الحزب للشكوك.

2 ـ لم أساعد الظالمين على إيقاع الظلم بها.

3 ـ لم أساير لأن ارجاء التحقيق في الجريمة لم يكن يعني الرضى عنها أو تغطية مرتكبيها. موقفي كان موقفاً حكيماً. هكذا وحتى اليوم لا تزال قناعتي.

أخذ علي، حتى بعض الامناء الحقوقيين كالأمين حنا كسواني اني صرحت مراراً وتكراراً ان الأمين جورج عبد المسيح بريء من دم المالكي في بداية الأمور. أخطأ الذين انتقدوني أو اتخذوا تصريحاتي حجة على هذه البراءة لأني كنت أنطلق من قاعدة حقوقية جزائية شهيرة في كل البلدان الحضارية: المتهم بريء الى أن يدان (يحكم).

عندما كنت ـ كرئيس للمجلس الأعلى ـ أصدر مثل تلك التصريحات كانت هذه القاعدة الحضارية والإنسانية معاً هي منطلقي وسيفي وترسي. كان جورج عبد المسيح متهماً وكنت أردد ان المتهم بريء الى أن يدان، فأين الغرابة في هذا التصريح، أين قرار البراءة؟

ماذا جرى في دمشق والجمهورية الشامية على أثر مقتل المالكي

أولاً، وقبل كل شيء، اعتبرت جريمة مقتل المالكي تحدياً للجيش السوري البطل، من اصدقاء المالكي ومحازبيه ومن خصومه. مؤسسة الجيش يجب أن تكون فوق الشبهات وفوق المشاحنات السياسية وسلامة ضباطها وعناصرها يجب أن تصان. إذا لم تكن مؤسسة الجيش محصنة، فالنظام كله يتخلخل. وفي الشام رغم الانقلابات المتكررة، بقيت حصانة المؤسسة قائمة. لا يجوز أن ينقلب على الجيش الا الجيش نفسه. انطلاقاً من هذه الحجة، وبدافع من البعثيين والناصريين الشيوعيين - وكلهم كانوا قد أصبحوا ناصريين في حلف مكين بينهم - أفلتت كل الأحقاد ضد الحزب من كوابحها وراح الهياج ضدنا يبلغ ذراه. فبعد احراق مطابع الحزب والمناداة بسقوطه وتلويث سمعته، بدأت الحملة القضائية العسكرية، فعين المحققون العسكريون وعينت محكمة استثنائية فما مرت الساعات الأولى على ارتكاب الجريمة حتى كانت الملاحقات الجماعية قد أخذت مجراها. أخبرني أحد الرفقاء ان أربعين غرفة في سجن القلعة بنيت من قبل عمال يعملون ليل نهار لتستوعب الموقوفين، وبدأت أعنف أشكال التعذيب تحت سمع المحققين وبصرهم. ودوهم بيت الأمينة الأولى وبيت الأمين عصام المحايري وسيقا الى السجن كما سيق كل من وقعت عليه الأعين أو الأيدي من القادة ومن الأعضاء وفي الطليعة العسكريون من القوميين. وعثر في بيت الأمينة الأولى على رسائل كان قد أرسلها هشام شرابي الى جورج عبد المسيح يستحثه فيها لإيفاد الأمين عصام المحايري الى واشنطن للقاء المسؤولين الاميركان.... ترك عبد المسيح هذه الأوراق على طاولته وترك الأمينة الأولى وبنات الزعيم وذهب برفقة كامل حسان الى الغوطة...

هنالك قال ما ذكرته آنفاً من أننا بعد ستة أشهر نتسلم الأحكام في الجمهورية الشامية. وبعد أسبوع من التواري في الغوطة، عاد الى دمشق والتقى الرفيقة الأديبة الباحثة والناقدة خالدة السعيد، زوجة الشاعر الكبير أدونيس، وقال لها ان الحزب يتسلم مقاليد الحكم في الشام بعد سنة....

بين المزة والقلعة قدر العارفون ان عدد القوميين المعتقلين بلغ الأربعة آلاف موقوفاً وفي الوقت نفسه كان يطرد كل من تقع عليه الشبهة من صفوف الجيش ضباطاً وصفوف ضباط وأنفار ومجندين... ويزجون في السجون!....

كيف هرّبنا جورج عبد المسيح من الشام

سيرى القارىء في ما يلي الدور الكبير المميز الذي لعبه أديبنا الخالد سعيد تقي الدين. لقد أعطى في هذه المرحلة جميل عطائه. أنا مضطر أن أذكر أننا لم نكن في موقعنا الصحيح، فمقتل العقيد المالكي اضطرنا قسراً للوقوف في وجه حلفائنا اليوم البعثيين والشيوعيين والناصريين. الا ان الأمانة للتاريخ تفرض علينا ذكر الوقائع كما وقعت، ليدرك الناس أين الخطأ وأين الصواب. ليروا اننا لم نكن وحدنا المخطئين. الاخطاء كانت مشتركة. الا أننا كحزب كنا ضحايا. كنا ضحايا الأسباب التي حملت عبد المسيح واسكندر شاوي على اغتيال المالكي، فَوُضِعَ حزبنا كله في قفص الاتهام والادانة بينما ستبين هذه الصفحات التاريخية التي نكتب أننا كنا ابرياء مئة بالمئة.... أقول «اننا» متحدثاً عن الحزب، أما الذين ارتكبوا الجريمة فإن الأدلة بحقهم ستتكشف تباعاً. صحيح ان الحادثة المروعة ما تركت لأخصامنا مجالاً للتروي والتبصر والتدقيق لمعرفة الحقيقة بحذافيرها، لأن القاتل كان قومياً فالحزب اذن كان القاتل. أيجوز ذلك قبل أن تنجلي الأمور وتتضح الحقيقة ليعرف فيما إذا كان الحزب نفسه مجرماً أم ان بعض ابنائه أجرموا بحقه!.

يجب بين الفينة والفينة أن نعود الى هذه اللازمة، لأن لوثة مقتل العقيد عدنان المالكي لا تزال تلاحقنا عند بعض المتعصبين ضدنا. انها مثل الخطيئة الأصلية عند المسيحيين.

والآن كيف نتصرف تجاه رفقائنا المضطهدين في الشام المهددين

بالموت؟ هل نتركهم لمصيرهم أم نتصدى للواقع الظالم الذي يعيشون فيه، لِنَنْتَشِلَهُم من غياهبه ومخاطره؟.

كان القرار واضحاً، يجب أن ننقذ من نستطيع من الرفقاء وبأي ثمن. وقررنا القيام بعملية الانقاذ. وكان بطلها المغوار سعيد تقي الدين. لجأ الى صديق له سفير احدى دول اميركا اللاتينية BERNARDO FLORES وطلب اليه القيام بهذه المهمة التي وصفها بالمهمة الانسانية البعيدة عن كل سياسة وكل وصف آخر. فتطوع الرجل بشجاعة وإقدام لاستجابة طلب الرفيق سعيد. ووضعت الخطة ونفذت بدقة ونجحت. لا أعرف تفاصيل الخطة، وأترك روايتها للعارفين... قد يرويها السفير المتقاعد حالياً في بلاده في مذكراته!.

عرفت بنجاة الرئيس، فقصدته الى الطيونة، الى دار اسكندر وفؤاد شاوي.... فهنأته بالسلامة. كان لا يزال بريئاً بنظرنا. الا أنه بادرني بعد قليل بقوله: «ذكرت أمام الأمين كامل بأننا نستلم الحكم بعد ستة أشهر. لك أنت كرئيس مجلس أعلى أقول إننا نستلم الأحكام في الشام بعد 18شهراً... كان قد سمع بالحملة الشعواء اللاهبة التي شنت على الحزب من قبل السراج وشقير وسواهما.....

من نتائج علاقتنا بالرئيس شمعون ـ وقد كانت هذه بعض غاياتها ـ نقل الأمين عبد المسيح مطمئناً الى بيت للأمين أسد الأشقر في ديك المحدي.... كان في جوار بيت أحد محبيه الأمين جورج جورج وزوجته الدكتورة زيتون.... هل كان بإمكاننا لولا تلك العلاقة أن نحميه في لبنان هو المحكوم بالاعدام غيابياً لقتله في الثورة القومية النقيب يوسف شمعون.

لم يقتصر نشاطنا على انقاذ عبد المسيح والقادة.... رحنا نتدبر الوسائل لإنقاذ كل من صمم على مغادرة الشام هرباً من الطغيان السراجي.... فأقبل على بيروت والنواحي الأخرى من لبنان، كطرابلس والكورة وديك المحدي وسواها عدد كبير من المطاردين، تلقيناهم بما أمكن من الترحاب والمعونات المستعجلة..... لقد انتقل مركز الحزب ونفوذه من الشام الى لبنان..... لو لم نكن قد استدركنا أمورنا، وتفاهمنا مع شمعون، لكان علينا ركوب البحر أو «تبليطه».

الحرب مع السرّاج

وبدأت بيننا وبين السراج حربان حرب الإعلام وحرب المخابرات والجواسيس..... كان السراج قد قرر مطاردتنا حتى في لبنان حيث كان عبد الناصر قد اكتسح المحمديين فأصبحوا لنا أخصاماً بصورة آلية، ونحن لم يعد لنا الا القوميون، لأن أحداً من المواطنين في لبنان لم يكن حاضراً أن يضحي بنفسه في سبيلنا.... وكنا بالمقابل قد قررنا فتح جبهة المخابرات والجاسوسية المضادة. كنا قد فرغنا عدداً كبيراً من الرفقاء ووضعناهم تحت أمرة الشهيد غسان جديد، الذي أخذ على عاتقه تنفيد سياستنا... بالتعاون الكامل مع العميد سعيد تقي الدين.

لقد تميز في هذه المرحلة الأمين جميل العريان كما سيرد ذكره لاحقاً.

وأما الحرب الثانية: فهي الحرب الاعلامية. سعيد تقي الدين ومحمّد بعلبكي كانا قائدي الجبهة. «صدى لبنان» أخذت على عاتقها بمفردها تقريباً فتح جبهة الاعلام المضاد وكان قلم سعيد تقي الدين ينزل على رؤوس الخصوم ناراً وكبريتاً.... كان بالفعل مخيفاً في عباراته النارية يطلقها قنابل ذرية على من بيدهم الأمر في الشام الحبيبة! لقد زج عبد الناصر نفسه في معركته القلمية!.

صحيح أننا أدَنَّا هذا الموقف لاحقاً، وصحيح أننا اليوم في موقف مضاد ومعاكس كلياً لموقفنا ذاك. وصحيح أن الأجيال الجديدة في الحزب تزعم أن مواقفنا كانت اخطاء فادحة، ولكن الحقيقة أن العباقرة لو وجدوا في تلك المرحلة، لما فتقت لهم عبقريتهم أن يخترعوا موقفاً آخر، لقد كنا عاجزين عن ابتداع أي موقف بديل. إنني أزعم في هذه المذكرات أننا لم نكن مخطئين طوعاً بل أكراهاً. ما كان بإمكاننا لحماية الحزب إلا أن نكون في ذلك الموقع. وللحرب لغة واحدة لا لغتان. عندما تقف في مواجهة خصم يطلق عليك الرصاص أنت مجبر أن تدافع عن نفسك. شريعة الدفاع عن النفس كانت معروفة ومطبقة في العهود الوثنية!.

السؤال الواجب الإجابة عنه يبقى: «لماذا كنتم تضعون أنفسكم في موقف

الدفاع عن النفس؟» من ثورة سعاده العظيم الى مقتل المالكي، من المخطىء؟».

هنا يتبادر الى ذهني سؤال أطرحه على حلفائنا حالياً: «لو كانوا هم مكاننا في ذلك العهد المظلم الظلوم، أكان بإمكانهم اتخاذ موقف آخر غير موقف الدفاع عن النفس؟».... هل كان بإمكاني أنا مثلاً رئيس المجلس الأعلى آنذاك أن أفكر لحظة واحدة برفض تهريب جورج عبد المسيح وباقي الامناء والرفقاء؟..... هل كان بإمكاني وليس بين يدي الا الظن أن أعتبر عبد المسيح مجرماً وقاتلاً وأصر على ابقائه تحت رحمة السراج؟.

أعود الى بطولات سعيد تقي الدين:

جاءني الى مكتبي صبيحة أحد الأيام في سنة 1955 قائلاً: «ألقي القبض على الأمين فارس معلولي وهو محكوم بثلاثة عشر عاماً ونصف أشغالاً لاشتراكه في الثورة القومية الاجتماعية الأولى... وقد اكتشف أنه يحمل تذكرة هوية لبنانية مزورة فهو أيضاً عرضة لحكم لا يقل عن ثلاث سنوات... انه في المحكمة العسكرية. أنا ذاهب الى اللواء فؤاد شهاب. ماذا أقول له؟» فنصحته بكتمان أمره إذا كان ذلك ممكناً لأنه محكوم واللواء شهاب لا يستطيع أن يساعده إذا لم يكن مشمولاً بالعفو؟ وهو غير مشمول....

قال لي سعيد سأتدبر الأمر وعاد بعد ساعتين ونيف أي حوالي الظهر وهو يلهث تعباً: «لقد أنقذته.... أخبرت اللواء شهاب كل شيء فأمر المكتب الثاني باستدعائه وإطلاقه... الا تشبه هذه الحادثة اجتراح المعجزات؟ ثم أليس لها مداليلها السلبية إذ كيف يجوز لقائد جيش بواسطة مكتبه الثاني أن يعطل أحكام المحكمة العسكرية هكذا اعتباطاً؟ هذا هو لبنان....

الأمين عصام المحايري والصحافة والمجلس الأعلى

من سجنه أدلى الأمين عصام المحايري بتصريح آثار الرأي العام الحزبي والخارجي، سلباً وإيجاباً. فالناقمُون على عبد المسيح تلقفوه وركبوه حصان معركة والرأي العام الناقم على الحزب تمسك به لادانته، عوضاً عن ان يتخذ منه حجة لتبرئته. فعندما يعلن الامين عصام المحايري من سجنه ان الثلاثة عبد المسيح وعمدة الدفاع واسكندر شاوي هم المحرضون على قتل العقيد

عدنان المالكي، يعني بصورة آلية أن المجلس الأعلى، القيادة العليا في الحزب، لا علم لها بهذه الجريمة.....

عند وصول هذا التصريح الى المسؤولين في الحزب وعلى رأسهم عبد المسيح، أقاموا الأرض وأقعدوها: انها «الخيانة».... كيف يجوز للأمين المحايري أن يتهم زملاءه في السلطة وبخاصة رئيسه جورج عبد المسيح؟.

نحن محبي الأمين عصام المحايري وعارفي أخلاقيته ونزاهته، ما اشتركنا في هذه الثورة عليه. أدركنا ـ بما يشبه البداهة ـ ان الضغوط عليه ـ هو السجين الأسير ـ لا بد أن تكون وراء هذا التصريح خصوصاً لتشميله العميد غسان جديد الذي كانت قناعتنا تامة ـ خصوصاً بعد ان استمعنا اليه ـ بأنه بريء من دم المالكي...

لذلك، في أول جلسة للمجلس الأعلى، طرحنا الموضوع وتداولنا بشأنه بين معارض ومؤيد، وتوصلنا الى اجماع في الرأي لاتخاذ قرار نبلغه اياه في السجن بواسطة شقيقته الانسة سهام مآله: «المجلس الأعلى مضطر أن يتقيد بالقرار الذي أصدره وهو ارجاء البدء بالتحقيق حتى صدور أحكام المحكمة العسكرية الاستثنائية رغم تحفظاتنا على مسار التحقيق الذي كان يجري بواسطة الاستاذ عقيل تحت اشراف المدعي العام العسكري محمد الجراح... وبالتالي يطلب الى الأمين المحايري،. ان يتقيد بهذا القرار وفي أول فرصة متاحة، ان يتراجع ضمناً أو صراحة عن هذا الاتهام. ونسجل في هذه المذكرات ان الأمين عصام في استجوابه لاحقاً أمام المحكمة العسكرية برئاسة الذي أسميته «القاضي الثائر» بدر الدين علوش، تراجع عن هذا الاتهام وانبرى أفصح وأبلغ من أي محام مدافعاً عن الحزب كله، أي مدافعاً حتى عن الذين عناهم في تصريحه، متقيداً بقرار المجلس الأعلى والمدرج آنفاً» على أساس هذا الشعار: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

كان رأي بعض المتطرفين أننا في المجلس الأعلى تساهلنا مع المتهمين وان واجبنا كان ان نسلمهم الى القضاء ليعاقبوا على ما فعلوا. واني أعلن في هذه الذكريات أني غير نادم. لأن الأيام أثبتت أن أحكام المحكمة العسكرية الاستثنائية بحق الحزب كانت متحيزة ومغرضة، بدليل المؤتمر الصحفي الذي

عقـده الرئيس علوش، معلناً براءة الحـزب من قـتل عـدنان المـالكي وان يكن اشـترك في الحكم بالاعدام وجـاهاً على بديع مـخلوف وعبـد المنعم دبوس.... وغياباً على عبـد المسيح والشاوي وجديد والخوري..... هذا مع التشديد أننا لما هرينا عبد المسيح لم يكن يدور في خلدنا ان له ضلعاً في جريمة الاغتيال. لقد هرينا بريئاً كما أننا في قرارنا بإلزام الأمين عصام أن يتراجع عن اتهامه كنا منسجمين مع أنفسنا. اننا نثق بتحقيق هادىء ونزيه يجريه قضاؤنا الحزبي ونخضع له براحة ضمير.... نحن بالنتيجة حزب الحقيقة، لا حزب الباطل. حزب العدالة الواعية لا الانفعالات العارضة والعابرة!.

قوافل المحامين

كان قرار عبد المسيح أن أتولى بنفسي الاشراف على توكيل محامين في بيروت والشام، بالاشتراك مع الرفيقين سليم عثمان ونصري أبو سليمان. سليم عثمان كان يعمل مع الاستاذ الكبير بهيج تقي الدين ـ الذي كان لفترة من الزمن عضواً سرياً في الحزب ـ وكان نجمه قد بدأ يلمع في قصر العدل ـ ونصري أبو سليمان كان قد تدرج في مكتبي وهو في بداية اثبات مؤهلاته ومقدرته وسليم حتي وبهيج طبارة وجوزف صليبي الخوري.

وبعد التداول وقع اختيارنا على عدد من المحامين في الشام مشهود لهم بالمقدرة والجرأة وفي طليعتهم المحامي الجزائي هاني البيطار وسيف الدين المأمون وكمال التقي وعرفان سلوم.....

أما تمويل هذه القوافل من المحامين، فكان يتم بواسطتي من صندوق الحزب الذي كانت تغذيه اشتراكات وتبرعات رفقائنا في المغتربات وبخاصة منفذية غانا.... في افريقيا الغربية، هذه المنفذية التي أسجل لها في هذه المذكرات فضلها وتجاوبها وسخاءها في تمويل الحزب أيام الرخاء وأيام الشدة. لها الوسام الأول والقدح المعلى دون أن ننسى فضل فنزوالا والمكسيك ومنفذيات أميركانيا وكندا واستراليا وجزر الكريبي.

الجـو الارهابي الذي كـان يسـيطر على دمـشق، تحت حكم السـراج ومخابراته، لم يسمح للمحامين بأن يحققوا انجازات كبرى، فالتحقيق سري،

وقاضي التحقيق والنائب العام كلاهما يسربان الأخبار كما تشاء السلطات الحاكمة والسلطات الحاكمة كانت تستهدف قطع رأس الحزب.

الى ان وصلت الملفات الى المحكمة برئاسة الاستاذ بدر الدين علوش، وعضوية القاضيين العسكريين عفيف البزري وبشير الطباع... أما صغار المتهمين فكانوا يمرون عند القاضي الشاب العادل والعاقل الملازم زهير غزال (وهو اليوم لواء ورئيس الغرفة العسكرية في قصر الرئاسة في دمشق).

هنا، قد يسألني سائل، لماذا لم أقم بواجبي كمحام جزائي ـ في الاشتراك مع الزملاء الذين سميت في ملاحقة الدعاوى في دمشق؟.

الجواب هو أني كنت بين المتهمين بوصفي رئيساً للمجلس الأعلى. المتهم بحاجة الى محام حتى ولو كان محامياً.... والحالة هذه تنطبق على الامناء المحامين عصام المحايري ومصطفى ارشيد ومصطفى عبد الساتر....!

مواقف عبد المسيح ومريدوه ومعارضوه

بعد ان تبين في الواقع الراهن ان مصرع عدنان المالكي تحول الى وضع مأساوي للحزب في الجمهورية الشامية من أقصاها الى أقصاها، تبخرت نهائياً تكهنات عبد المسيح عن امكانية وصول الحزب الى الحكم كما كان يزعم في الساعات الأولى للقائنا معه بعد وصوله الى بيريوت.

لقد راح ـ ومعه عدد كبير من القوميين ـ يشيعون ان تعقيد المالكي اعتدى على شقيقة يونس عبد الرحيم فقتله انتقاماً لها. ثم تطورت الادعاءات في اتجاه تبرئة الحزب وكل المتهمين، بالصاق التهمة بيونس عبد الرحيم وحده الذي نفذ عملية الاغتيال لأنه مصاب بنوع من الجنون PSYCOPATHIE.

وفي هذا الاتجاه كتب جورج عبد المسيح، كراريس عدة: «من قتل عدنان المالكي» من قتل يونس عبد الرحيم... وسواها لكي يبعد عنه وعن الأمين اسكندر شاوي الشبهات...

كان هم عبد المسيح، الذي أفلت من الطوق في الشام، ان يخلص الموقوفين وبالتالي ان يخلص المتوارين وهو في طليعتهم من الأحكام القضائية المنتظر أن تكون قاسية الى الحد الأقصى من القساوة، بعد أن شحن الجيش

(السوري) والشعب (السوري) بالغضب والحقد والسخط على القوميين... ولكن همه الكبير بعد افلاته، كان ان يبرأ نفسه ـ والحزب ـ من تهمة الاغتيال....

رغم ان الشكوك كانت تحوم حوله، لم يكن بمقدوري أنا على الأقل، أن أتوقف طويلاً عند حملات الامينين عيسى سلامة وعمر أبو زلام عليه وعلى الامين الشاوي، وان أشاركهما القناعة بأنهما المحرضان على القتل. لا يمكن أن تدين رئيس حزب ووكيل عميد وأمين بتهمة خطيرة من هذا النوع دون أن تملك الأدلة الكافية لتشكيل قناعة تامة وصلبة. مهما قسا عبد المسيح علي وسواي، أرفض أن أجرمه بجريمة اغتيال المالكي، إذا لم تأتني الأدلة قاطعة. إذا بقي في وجداني ذرة من الشك ضئيلة، فالشك لصالح المتهم. كنت أتمنى ضمناً ان تبقى الاتهامات على عبد المسيح والشاوي شكوكاً وظنوناً.... هذا كان بالإجمال موقف عبد المسيح وموقفي بالمقابل.

نظرات في المحاكمات والحكام والأحكام
في دعوى مصرع العقيد المالكي

لقد تابعت المحاكمات الكبرى التي جرت في لبنان والشام لقادة وأعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي. وحضرت بنفسي محاكمة الرفيق توفيق حمدان الذي حاول اغتيال الرئيس رياض الصلح وكان وكيله المغفور له نعيم مغبغب.

القضاء العسكري، كما ذكرت بمناسبة محاكمة سعاده، ومن بعده محاكمة الحزب في لبنان، وكما جرى في دعوى العقيد المالكي، تميز بموقف القضاة المدنيين وبخاصة الرئيسين اميل أبو خير في لبنان والرئيس بدر الدين علوش في دمشق الذين حاولوا حماية المتهمين والقانون. العسكريون لا يستطيعون أن يتجردوا من «عسكريتهم». في الشام كان القتيل رئيس الشعبة الثالثة في الجيش وأحد أبطاله والقاتل من شرطة الجيش. كيف يمكن أن نطلب من القضاة العسكريين عدالة ورحمة؟ وفي لبنان كانت معركة الحزب مع الجيش اللبناني في ثورة سعاده الأولى، وفي الثورة الثانية التي قادها الامين عبدالله سعاده بتفويض من المجلس الأعلى، فكيف نطلب من قضاة الجيش عدالة أو رحمة؟.

أما كبار القضاة، الرئيس اميل أبو خير في رئاسته لمحكمة التمييز العسكرية في لبنان سنة 1962 والرئيس بدر الدين علوش الذي كان رئيساً للمحكمة الاستثنائية سنة 1955، فقد كانا مجسدين للعدالة والتمسك بالقانون أصولاً ونصوصاً وروحاً، وكلاهما ـ ليسجلا موقفاً تاريخياً ـ خالفاً القضاة العسكريين علناً. فبدر الدين علوش عقد مؤتمراً صحفياً. وإميل أبو خير استبقى القضاة العسكريين ثلاثة أيام في المذاكرات محاولاً اقناعهم بصحة

نظريته في ان الجرائم سياسية لا يجوز فيها حكم الاعدام، ثم نشرت مخالفة للأحكام في الصحف كأنما كان يفضح فيها تحيز العسكريين إذا لم نقل ظلمهم.

أما المحامون الذين ننشر في هذا الكتاب مرافعاتهم أو بعض مقاطعها/ فقد أثبتوا سواء في لبنان أو في الشام أنهم على مستوى الرسالة. فقد واجهوا في البلدين مناخاً ارهابياً خانقاً. تحملوا ما لا يحتمل وهم يقومون بواجبهم في الدفاع عن موكليهم. ما حسبوا حساباً لأي تهديد أو لأي وعيد. لقد أثبتوا للعالم ان في لبنان والشام محامين قادرين أن يعلموا الفروسية في نصرة الحق والقانون لأرقى محامي الدنيا!... لقد كان موقفهم مشرفاً من الناحية المهنية ومن الناحية الاخلاقية ومن الناحية الوطنية بل الانسانية.

صحيح انهم اتخذوا الحيطة لكي لا يقعوا في التطرف والشذوذ، فزانوا كلماتهم بميزان الحكمة والنضج، ولكنهم ما وقعوا في شباك التملق أو الاستجداء. انها البطولة في اداء رسالة المحاماة توازي البطولة في ميادين القتال إذا لم تكن تحدياً لها.

ان اسماء المحامين الاشاوس بهيج تقي الدين، هاني البيطار، جوزف خوري، سليم عثمان، نصري أبو سليمان، عرفان سلوم، بهيج طبارة، كمال التقي وسليم حتّى ستبقى خالدة في سجلات نقابة دمشق ونقابة بيروت، ناطقة بعظمة رسالة المحامي في الدعاوى التاريخية التي يتصارع فيها القانون والعدل مع محاولات البطش بالمتهم وإنكار حقه في الدفاع عن نفسه وإثبات براءته وإثبات الدوافع التي دفعته للثورة والقتل.

كنا نود ان ننشر بعض المرافعات، ولا يجوز الا ان نسجل بدورنا، موقفاً تاريخياً للأمين عصام المحايري، الذي هو محام أيضاً، لأنه لم يدافع عن نفسه كمتهم بل دافع عن الحزب والقضية دفاعاً يسجل به بماء الذهب.

يجب أن أذكر هنا أني كنت أدرس ما يستحضره المحامون من الرفقاء المواطنين من محاضر التحقيق والوثائق واعمل لأساعدهم على القيام بمهمتهم الصعبة خير قيام وأشهد هنا أن المحامين اللبنانيين والشاميين لم يتركوا لا

شاردة ولا واردة الا عالجوها. وانهم رغم الضغوط والتهديدات أثبتوا بالفعل ان المحاماة رسالة!.... فكانوا أشبه بالرسل وهم يؤدون واجباتهم المهنية لا بالمحامين بمعنى الكلمة المألوفة. وكنت أنقل وجهات نظر عبد المسيح المنشورة في كراريسه الى المحامين بأمانة ليؤيدوها ما أمكنهم في مرافعاتهم وفي التحقيقات التي كانت تجريها المحكمة في جلسات المحاكمة. وهنا أيضاً مجال الشهادة بأن الرئيس بدر الدين علوش كما القاضي العسكري المنفرد زهير غزال كانا في ذلك الليل المدلهم بعض النور وبعض الأمل في ان القضاء العسكري يريد أن يثبت انه قضاء لا جلاد ... فالجلادون في أقبية سجن المزة وفي زنازين الموقوفين كانوا كثرة ولا يتركون في تأدية مهماتهم الرهيبة زيادة لمستزيد الى درجة ان الأمين عصام البحيري الذي أسلم نفسه طائعاً ومختاراً ايماناً منه ببراءته وبالعدالة لم ينج من الضرب والتعذيب وشتى ضروب الاهانات والتحقير رغم مواقفه اللينة وتسهيله مهمة التحقيق باعطاء بعض الاعترافات التي كان يعتقد بأنها تخفف عنه وعن الحزب وطأة الأهوال التي كانت تنزل به وبالموقوفين...

كل هذا يجري في دمشق، والقوميون الاجتماعيون القادمون منهم من الشام أو الموجودين في لبنان، يتهامسون اتهاماتهم ضد عبد المسيح واسكندر شاوي، أحياناً بأصوات عالية، رغم توصيات السلطة العليا بوجوب التزام الصمت حول هذا الموضوع، ريثما تنجلي الغوامض وتتضح الحقائق الساطعة كنور الشمس!....

ولنذكر هنا، ان مريدي عبد المسيح ومؤيديه من الرفقاء كانوا القوة والنفوذ والعدد بحيث بقي مركزه في الرئاسة منيعاً، وبقي محاطاً من الأكثرية الساحقة من القادة والأعضاء بالاحترام والرعاية. لم يكن الأمين أسد الأشقر وعقيلته الرفيقة المناضلة رؤوفة يوفران وسيلة لتأمين راحته وسلامته!.

لنرد عن ذلك مثلاً حياً جرى في قرية كفرحاتا ـ القويطع ـ الكورة الجنوبية سنة 1956، في عرس أحد أحب الرفقاء إلي وأقربهم الى قلبي الرفيق سهيل غرزوزي الذي كان قد تعاقد على الزواج مع الرفيقة جنان سالم... عائلتان قوميتان عريقتان، تتصاهران لبناء عائلة قومية اجتماعية جديدة. كنت

أنا الاشبين في ذلك العرس وكنت لا أزال رئيساً للمجلس الأعلى... واجتمع العديد من الرفقاء والأمناء يفرحون بالعروسين القوميين، في مهرجان عز نظيره في تلك الظروف. وكانت الموائد تمد في بيوت الجيران والاقرباء لتستوعب جمهور الحضور من كل حدب وصوب. وتلعب الخمرة في الرؤوس ويفرج الامناء والرفقاء عما يعتمل في صدورهم من نقمة على المسؤولين عن مصرع عدنان المالكي. اثنان لا أزال أذكر موقفهما المتميز بالمرارة والفضاحة، الامين عمر أبو زلام والرفيق نديم جواد عدره. قالاها بصوت عال... يجب على المجلس الأعلى أن يقتص من الذين ورطوا الحزب وأوقعوه في تلك الهاوية... طبعاً لا أذكر الكلمات حرفياً. ولكني أذكر الروح، روح تلك الكلمات التي جاءت صاخبة تغطي على قرع الطبول وأهازيج المحتفلين بالعرس!.

لم أنفعل ـ أنا الانفعالي أحياناً ـ ورحت أتحمل مسؤوليتي هادئاً... اني بطبعي، بطبيعة تكويني البيولوجي، والسيكولوجي، متساهل، متسامح مساير... في كل الأمور التي لا تمس قاعدة خلقية أو نظامية أو عقائدية مبدئية وأساسية، أنا بالفعل متسامح ومساير ومتساهل. أما عندما يكون الأمر متعلقاً بقاعدة أخلاقية أو نظامية أو عقائدية واضحة، فأنا كالجلمود، لا تهزني العاصفة ولا تزحزحني الصاعقة. أتشبث بكل قواي بالقاعدة والمبدأ.

وقفت أرد على الغاضبين الناقمين، فقلت ما معناه: «ان المجلس الأعلى يضع يده على القضية، يوليها كل اهتمامه. لقد استن خطة لمعالجتها وهوينفذ هذه الخطة... عندما تبرم الأحكام، من قبل محكمة التمييز، في الشام، وتوضع قيد التنفيذ، تبدأ مرحلة التحقيق الحزبي، الذي سيتم بنزاهة وتجرد، فلا يحابي ولا يجامل ولا يتخوف... اننا سنكشف الحقائق بما أوتينا من وسائل. سنتصل بالموقوفين في الشام، وسنتصل بكل من يعرف شيئاً عن القضية ويمكن ان يكون عنصراً ايجابياً في جلاء الغوامض.... نحن ساهرون وسنتحمل مسؤولياتنا مهما تكن ثقيلة الوطء... فاصبروا وانتظروا».

لقد ارتحت أنا لهذا الموقف المبدئي، وأعتقد أني وضعت بعض الندى على مواطن القلق عند الرفقاء...كما أرحت مؤيدي عبد المسيح لأني تمسكت بالنظام الحزبي، وبصلاحيات السلطة العليا في التقرير.. وحريتها في التحرك

والعمل... انها هي صاحبة القرار لا الرفقاء ولا الامناء مهما علت أصواتهم وتمادوا في غضبهم!.

المحاكمات في الشام

قلت ان المحاكمات كانت تجري أمام القاضي المنفرد وأمام المحكمة الاستثنائية. أمام القاضي المنفرد كان يمر الاعضاء وأصحاب المسؤوليات الدنيا كالمديرين والمفوضين وحتى المنفذين العامين.... وكانت التهم الموجهة اليهم أنهم يعملون في حزب ارتكب مخالفات يعاقب القانون مرتكبيها كالتدخل في شؤون الجيش مثلاً...

من المحاكمات لدى القاضي الملازم أول زهير غزال، تعلق في ذهني مسألتان:

1 ـ محاكمة الأمين نذير العظمة أحد شعراء النهضة المتفوقين... كل الصحف أشادت بجرأته ودقته في الأجوبة التي كان يرد بها على استجواب القاضي.

2 ـ تشديد القاضي غزال على مسألة جزيرة قبرص... كان في كل جلسة وعلى كل فريق من المدعى عليهم، يطرح السؤال عن قبرص، فيقول: «افهم أنكم شملتم عقيدتكم الاسكندرون وكيليكا وأفهم أنكم ضممتم سيناء ولكن قولوا لي بربكم من أين أتيتم بجزيرة قبرص؟ ما دخلها بالأمة السورية؟...».

طبعاً كان القوميون يشرحون، كيف انها الأقرب الى اليابسة السورية، وكيف انها انسلخت أصلاً من الساحل السوري بفعل هزات جيولوجية من آلاف السنين، وان الفينقيين والعرب استعادوها، وان منها زينون الفيلسوف السوري العظيم... وانها نقطة استراتيجية من يحتلها، يحتل مدخلاً الى الأراضي السورية مهدداً سلامتها وسيادتها بخاصة في عصرنا عصر الطائرات المقاتلات الخ....

وكان القاضي غزال يهز رأسه، دليل عدم قناعته....

وكان المحامي الذي خصصناه للدفاع عن هؤلاء المتهمين الثانويين هو الأستاذ الرفيق سليم حتي، الأديب الفصيح والجريء... ضقت أنا ذرعاً بتكرار

السؤال والاصرار عليه يومياً، فاستدعيت الرفيق سليم وقلت له: «إذا طرح القاضي غزال سؤاله مرة أخرى، فأطلب اليه أن يسمح لك بالتحدث اليه سراً... فإذا قبل قل له: ياسيدي، لا تعذب نفسك بطرح هذا السؤال، فرئيس المجلس الأعلى في حزبنا يدعى عبدالله قبرصي، والزعيم ادخل قبرص في الأمة السورية اكراماً له...».

وروى لي الاستاذ حتي ما حدث. نفذ ما طلبته منه. فعندما سمع القاضي غزال روايته رفع الجلسة وراح مع سليم الى غرفته يضحك الى ان تعب من الضحك! هذا على ذمة فقيدنا الاستاذ حتي!.

أما المحاكمات لدى المحكمة الاستثنائية برئاسة بدر الدين علوش فقد كانت تجري فيها مشادات غير متكافئة، من المحامين والنائب العام محمد الجراح وبين وكلاء الدفاع ووكلاء الادعاء.

ففي الاستجوابات، كان المتهمون بغالبيتهم الساحقة، شجعان، لا يهابون المناخ الارهابي المسيطر... كانوا يدلون بإفاداتهم متصدين مهاجمين غير هيابين.... ورغم التهديدات التي وجهت الى المحامين المدافعين عن المتهمين، فقد كانوا يتدخلون لمنع أي تجاوز على حق الدفاع أو حق المتهم في الجواب حسب رغبته ولو تناقض مع افادته الأولية المأخوذة بالضغط والإكراه...

أما الجرائم التي كانت مساقة بحق المتهمين، فكانت عدا مقتل العقيد عدنان المالكي، التجسس على الجيش السوري، والتآمر على سلامة الدولة الداخلية والخارجية، الى ما هنالك من تهم كان القوميون قد تعودوا عليها في المحاكمات اللبنانية.... والفرنسية.

من أغرب ما وقعت عليه عيناي في تلك المحاكمات اتهام انطون سعاده بأنه كان يسعى مع الطليان ليكون أميراً على لبنان... ثم ان الحزب المتهم بسوريته في لبنان، اتهم في الشام بمسيحيته ولبنانيته وتنكره لسوريا والعروبة...!

المتهمون الحاضرون كانوا الامينة الأولى والأمين عصام والأمين كامل حسان والعشرات من الرفقاء والمتهمون الغائبون رئيس وأعضاء المجلس الأعلى رئيس الحزب والعمد وسواهم...

وصدرت الأحكام.

فحكم بالاعدام على المتهمين بديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي وجاهاً... وحكم بالاعدام غياباً على كل من جورج عبد المسيح واسكندر شاوي وغسان جديد والدكتور الامين سامي خوري... أما أنا فحكمت كرئيس للمجلس الأعلى باثنين وعشرين سنة أشغال شاقة ثم بثلاث سنوات إضافية فيما بعد لكتابتي مقالاً حملت فيه على الأحكام الجائرة في جريدتنا «البناء» وباقي اعضاء المجلس الأعلى والعمد حكموا بخمس عشر سنة أشغالاً شاقة... والغريب في الحكم علينا كرئيس وأعضاء مجلس أعلى، وكعمد ومسؤولين مركزيين اننا برئنا من جريمة مقتل عدنان المالكي لنحكم بالتجسس!.... يا لفاجعة العدالة في هذه الأحكام!.

وكان الحدث بعد صدور الأحكام هو دعوة الصحافيين من قبل رئيس المحكمة الاستاذ بدر الدين علوش واعلانه أنه مخالف وانه يعتبر المحكومين ابرياء من جرم التجسس وجرم مقتل عدنان المالكي....

طرد جورج عبدالمسيح

انها لرواية من روايات شارلوك هولمز أو آل كابوني... انها رواية لا مثيل لها في تاريخ القضاء، اللهم الا حيث يكون القضاء سياسياً ومأموراً بأن ينفذ سياسة الدولة في القمع الجسدي والنفسي... وان يحكم بأوامر!.

فقد كان رفقاء لنا ـ أعتقد أن بينهم الأمين عساف أبو مراد ـ محكومون بالاشتراك في الثورة القومية الاجتماعية الأولى التي أعلنها سعاده، ينفذون الأحكام الصادرة بحقهم في سجن صيدا... واستطاعوا هنالك بأن يستولوا على وثيقة تجسس كان يحملها جاسوسان اسرائيليان أو جاسوس واحد... وأرسلاها من السجن الى الأمين عبد المسيح في الشام، وهو سلمها الى قيادة الأركان في زمن توليها من قبل أديب الشيشكلي... وقد كتب عبد المسيح بخطه في أسفلها: تحال الى رئاسة أركان الجيش السوري...

فأخذ «المباحثيون» هذه الوثيقة من ملفات الأركان وقصوا من أسفل الورقة الأخيرة عبارة الاحالة المكتوبة بخط جورج عبد المسيح وعندما فتشوا بيت الامين كامل حسان بغيابه زعموا في محاضر التفتيش انهم عثروا عليها بين أوراقه... والوثيقة كما أذكر هي عبارة عن حديث بين جاسوسين اسرائيليين يتجسسان على الجيش السوري.

عبثاً حاول الأمين كامل حسان، الذي حكم هو أيضاً بخمسة عشر عاماً سجناً ونفذ الجزء الأكبر من هذه العقوبة، عبثاً حاول أن يثبت للمحكمة أن هذه الوثيقة دست بين أوراقه وأنها كانت في رئاسة الأركان....

ولقد استطعنا الاتصال بأديب الشيشكلي في باريس الذي أفاد بوثيقة مضادة مصدقة حسب الأصول عن كاتب العدل ومن الدوائر الصالحة أن وثيقة

التجسس سلمت اليه من قبل رئيس الحزب جورج عبد المسيح وأنه أمر بحفظها في ملفات الأركان العامة....

رغم هذه الوثيقة ورغم ظاهرها المؤيد لإفادة كامل حسان، اتخذتها المحكمة أساساً للحكم وقضت علينا نحن المسؤولين في القيادة العليا للحزب بالسجن خمس عشرة سنة أشغالاً شاقة بتهمة التجسس! انه لا غرب حكم في تاريخ القضاء السوري على ما أتصور! حزبنا الذي أسس ليكافح الصهاينة يتهم بالتعاون معهم كما جرى لنا في محاكمة سعاده سنة 1949 في عمليات تزوير تكاد لا تصدق!.

هو هذا الحكم الذي أصدره الضابطان اللذين كانت تتألف منهما المحكمة برئاسة الاستاذ بدر الدين علوش وهما الضابط بشير الطباع والضابط عفيف البزري! وهو نفسه الذي فضح هذه المظلمة في مؤتمره الصحافي ذاكراً أنه لم يوافق عليه وبيّن أسبابه الموجبة!.

نفذت الأحكام بحق المحكومين، أما نحن الذين حكمنا غيابياً فقد قيض الله لنا حاكماً عادلاً وبعيد النظر، أعفانا من هذه الأحكام: انه الرئيس المناضل حافظ الأسد، أنه رجل الدولة الواعي والمستشرف للأحداث في الجمهورية الشامية والعالم العربي.

التحقيق الحزبي

بعد صدور الأحكام عقد المجلس الأعلى جلسة برئاستي، لنقرر ما يجب عمله، فاستقر الرأي على أن الأحكام كانت جائرة وخصوصاً لجهة اختلاق تهمة التجسس التي لا أساس لها من الصحة. كل قومي اجتماعي هو جندي مناضل في جيش مقاتلي ومحاربي اسرائيل بالسلاح أو بالقلم أو باللسان. الحزب تأسس ليقاوم الحركة الصهيونية. هل يمكن الظن فقط ان الحزب أو أي قومي اجتماعي يتجسس لصالح اسرائيل؟. انها لكارثة أخلاقية وقع فيها ضابطا المحكمة الاستثنائية، لأن رجل القانون والوجدان الاستاذ بدر الدين علوش نقضها في مؤتمره الصحافي علناً. وكتبت أنا مقالاً في جريدة «البناء» التي كنا نصدرها في لبنان تحت عنوان الحكم الجائر... وقامت قيامة القوميين في كل مكان رفضاً واحتجاجاً.

وعدنا لبحث قرارنا السابق في تأجيل التحقيق الى ما بعد صدور الأحكام. واتخذنا قراراً بفتحه وتعيين لجنة برئاستي وعضوية الامينين عيسى سلامة ومصطفى عبد الساتر... ورحنا نستمع الى كل من له علاقة بالموضوع شاهداً أو متهماً.

وكانت قد وقعت قبل المباشرة بالمهمة بأيام قلائل الواقعة التالية: كنا نعقد نوعاً من المؤتمر للمغتربين القوميين في دار الزعامة في ضهور الشوير برئاسة عبد المسيح. واثناء فترة الاستراحة، نزلت الى الطابق الأرضي معه لتناول فنجاناً من القهوة... كنا في الصالون، نجلس حول طاولة صغيرة... وإذا بعبد المسيح، دون ان استدرجه، دون أن أسأله يروي لي أن اسكندر الشاوي الساعة الثامنة أو العاشرة صباحاً من يوم 22 نيسان 1955، يوم مقتل عدنان المالكي، سلم السلاح الى المكلفين بتنفيذ العملية وقال لهم بالحرف، على ذمة عبد المسيح، «الرجل» سيحضر الساعة الثانية بعد الظهر الى الملعب البلدي. شوفوا شغلكم. أنا ناطركم على الراديو... واستطرد عبد المسيح. لقد أرسلت مسدساً الى محيي الدين كريديه وحسين الشيخ لقتل يوسف شربل مع كاهن يدعى الأب الياس (توفي منذ مدة قريبة في قريتي دده الكورة).

هنا انتفضت وقلت: «لماذا لما سألتك في جلسة من جلسات المجلس الأعلى، طرحت أنا فيها موضوع محاولة اغتيال يوسف شربل، أنكرت ان يكون لك علم بأمره؟» فأجاب: «مثل هذه الأعمال لا تبحث في المجالس الرسمية!».

فسكت على مضض...

أخبرني عبد المسيح ما أخبر، وأنا رئيس للمجلس الأعلى. لم أبح لأحد بما سمعت. ولكنني شعرت أن الحقيقة فرضت نفسها. عبد المسيح لم يعد يتحمل أن ينكر... لقد انتشل نفسه من براثن ضميره! انها عقدة الذنب التي يعلمنا علم النفس مفاعيلها وظواهرها ودوافعها.

ولنعد الى التحقيق...

بعد ان استمعنا الى اسكندر شاوي وغسان جديد وكل من له علاقة بالموضوع خارج السجن، رحت مع عضوي اللجنة، الى حيث يقيم عبد المسيح

في منزل يملكه الأمين اسد الأشقر، في ديك المحدي، وهنالك طلبت اليه الجلوس على كرسي الشاهد وجلست مكانه على كرسي الرئاسة، والعضوان واحد على يميني والآخر على شمالي...

وطرحت السؤال على عبد المسيح، بعد ان حلفته اليمين القومية الاجتماعية: أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي بأن أقول الحقيقة، كل الحقيقة، دون زيادة ولا نقصان، ولا غرض ولا خصومة، وأما السؤال فهو:

- س - ماذا تعرف عن مقتل العقيد عدنان المالكي، من قرر اغتياله ومن كلف بالتنفيذ؟.

- ج - راح عبد المسيح يشرح الوضع السياسي في الشام، وخلافاتنا الدامية مع البعثيين والشيوعيين... وكيف ان الطوق كان يلتف حول عنق الحزب والاستعدادات قائمة على قدم وساق لضربه...

- س - أعدت السؤال قائلاً: «لا أسألك عن الحالة السياسية ومواقف الأحزاب المخاصمة لنا. اني أعرف هذه الأمور مثلك أو أفضل منك. سؤالي واضح ومحدد ماذا تعرف عن مقتل العقيد عدنان المالكي؟ من قرر ومن نفذ؟.

- ج - وعاد عبد المسيح يدور حول الموضوع ويدور...

أما أنا فقد كنت أتمزق داخلياً. منذ أيام أعترف أمامي، بملء حريته واختياره، بأن اسكندر شاوي هو الذي دبّر ونفذ... لماذا لا يقولها الآن. هو رئيسنا لماذا يحلف يميناً كاذبة؟ كيف أطيق هذا الكذب؟ وعدت الى طرح الموضوع للمرة الثالثة والأخيرة....

وللمرة الثالثة والأخيرة كان عبد المسيح يتهرب من الجواب ويدور ويدور...

عندئذ، انتفضت، وقلت: «طالما انك لا تريد ان تدلي بكل ما تعرف. فقد ختمت الاستجواب وسنعود اليك لاحقاً...».

وانصرفنا.

لم يكن بمقدور الامينين أن يسألا أي سؤال تجاه انكار عبد المسيح بصورة قاطعة ان يكون على علم الا بالوضع السياسي العام في الشام...

كنت قد قررت بيني وبين نفسي، ان أستقيل من رئاسة لجنة التحقيق، وأطلب استماعي كشاهد لا روي ماذا قال لي عبد المسيح... ان اعترافه كان يعني دون مواربة انه شريك، فإسكندر شاوي وكيل عميد الدفاع وهو لا يقطع خيط قطن الا بالاتفاق معه لا مع عميده غسان جديد الذي كان معظم الأوقات غير مداوم، ولذلك صمم أن يكتم عن اللجنة مثل ذلك الاعتراف الخطير...

تدارسنا الموقف أنا وعضوي اللجنة، وقررنا ان يصار الى استجواب الشهيدين بديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي، قبل تنفيذ حكم الاعدام بهما وكان عبد المسيح قد عين الرفيق سليم عثمان عميداً للقضاء. وسنداً الى نصوص قانون المحاكمات الصادر في 1955/1/15 وصلاحية اللجنة بالتوجه مباشرة الى أي مسؤول دون المرور بالنظام التسلسلي الهرمي، أرسلنا طلباً مستعجلاً الى العميد عثمان ليتوجه فوراً الى دمشق ويتصل بالمحكومين بديع وعبد المنعم ويحلفهما يمين الشهادة ويستجوبهما. فنفذ الرفيق سليم عثمان الأمر فوراً. وقد استطاع ان يختلي بالمحكومين وان يسألهما. فكان جوابهما القاطع ان مصدر الأمر باغتيال عدنان المالكي هو اسكندر شاوي....

وأذكر ان سليم عثمان أخبرنا بأنه بعد استجوابهما قصد الى فندق سمير اميس في الشام وكتب تقريره.....

وعقدت اللجنة جلسة في منزلي، حضرها العميد سليم عثمان شاهداً. حلفناه يمين الشهادة وطلبنا اليه بأن يدلي بكيفية تنفيذ المهمة التي طلبنا اليه القيام بها. فكرر التقرير الذي وضعه في فندق سميراميس وأيد مضمونه. ان كلمات الشهيدين الأخيرة، بأن من كلفهما القيام بالمهمة هو اسكندر الشاوي، أثبت ما كان يساورنا من ظنون وتكونت لدينا قناعة بأن عبد المسيح واسكندر شاوي وحدهما مسؤولان، وان تكن أهدافهما المباشرة، ايصال الحزب الى الحكم وبأسرع ما يمكن (تصريح عبد المسيح الفوري للأمين كامل حسان في طريقهما الى الغوطة - دمشق فور ابلاغهما الحادث بواسطة فؤاد جديد).

بعد الاستماع الى افادة عميد القضاء الاستاذ عثمان، وضعنا كشفاً بما توفر لنا من وثائق وشهادات وأرسلنا الملف بعد ان حفظنا صورة عن الكشف في أوراق المجلس، الى الرئيس عبد المسيح ليضح ملاحظاته على ما ورد في

الوثائق والشهادات. وبقلم حبر أحمر، كتب عبد المسيح ما يقارب الثلاث وأربعين صفحة، تعليقاً عليها. طبعاً كان الانكار هو الذي تسلسلت منه ملاحظاته. ان يونس عبد الرحيم برأيه أقدم على عملية القتل بدافع من انحرافه العقلي و العاطفي انه «بسيكوبات».

أحلنا بعد ذلك الملف، مع مطالعتنا الى الامين أنيس فاخوري الذي كان ممثلاً للحق القومي (مدعي عام) - فأيد مطالعتنا وأحال بدوره الملف للمجلس الأعلى الذي كان يرأسه الأمين أديب قدورة، كل ذلك سنة 1957 في تشرين الأول.

انعقد المجلس كمحكمة وفقاً للقانون الذي كان قد أبرمه المجلس الأعلى بتاريخ 15 - 1 - 1955، في منزل الأمين جبران جريج وأرسل الأمين ادمون كنعان لإحضار الرئيس عبد المسيح للمحاكمة. فلم يحضر وأرسل اعتذاراً. كان قد حرض الأمين حسن الطويل أو بالأحرى أقنع الامين حسن بأن المجلس الأعلى يتآمر عليه، فنزل الى الصف الحزبي وللأمين حسن مكانة القديسين عند القوميين فأصغى اليه عدد كبير منهم وراحوا ينددون بالمجلس الأعلى رئيساً وأعضاء ويشنون عليهم حملة اتهامات وافتراءات شاملة.

أذكر ان خبراً وردني من أحد الرفقاء ان الأمين حسن يعقد جلسة تحريضية ضد المجلس في أحد البيوت الواقعة على خط الترمواي قريباً من السفارة السعودية فقصدت المكان، مع الأمين عيسى سلامة، وخطبنا وجابهنا الأمين حسن، فكاد يحدث عراك بين الحاضرين الذي كانوا بأكثريتهم من أتباع عبد المسيح، الا أننا تداركنا الأمر وانسحبنا سالمين!.

المهم، ان عبد المسيح بعدم حضوره جلسة المحاكمة وبدفعه الامين حسن الطويل ليقود معركة عصيان وتشهير ضد المجلس، لم يترك مجالاً لأية تسوية أو لأي أسباب تخفيفية. لقد سلم الامين ادمون كنعان الذي صعد خصيصاً الى بيت مري ليصحبه الى حيث تعقد جلسة محاكمته ورقة كتب عليها أنه حاضر للرضوخ لأي قرار يصدر عن الأمين أسد الأشقر إذا ولاه المجلس الأعلى صلاحيات الزعيم لمدة ستة أشهر...!

كان لا يزال يثق بالأمين أسد الذي أصبح بعد وفاة الأمين مصطفى ارشيد رئيساً للحزب.

ولقد كنت حاضراً في منزل الامين جريج لعل المجلس بحاجة الي لاستشارة قانونية. فلما اطلعني الأمين ادمون على رسالة عبد المسيح حاولت الدخول وحضور الجلسة والطلب الى المجلس ارجاء الدعوى الى موعد آخر يكون مع عبد المسيح حاضراً بنفسه. الا ان المجلس كان قد صمم على طرده لا للتحريض او اعطاء الأمر بمقتل العقيد المالكي فقط بل لسبب الانشقاق الذي كان يعد له بواسطة الامين حسن الطويل وأتباعه هو. «ماذنبي» كان يكرر أمامي، إذا كان ثمانون بالمئة من القوميين يتبعونني؟».

لهذا السبب، لم يفد تدخلي مطالباً بإرجاء الجلسة والتريث بإصدار الحكم. قدم الأمين أنيس فاخوري مطالعته وحكم المجلس بالطرد وطلب الي تنظيم الحكم لأني كنت مطلعاً على القضية بتفاصيلها بسبب ترؤسي لجنة التحقيق.

ونظمت الحكم ووقع ونشر في 1957/5/24، وكانت عملية الانشقاق الأولى في تاريخ الحزب، العملية التي أسميتها فيما بعد أم الانشقاقات.

ماذا لو رضخ عبد المسيح للحكم وانزوى؟ هل كان يجرؤ رئيس من بعده على العصيان كما جرى؟

ولكن الأمينة الأولى لم تكن هنالك بنفوذها الروحي الكبير على الصفوف القومية لتحميه. لقد كانت في السجن وكانت تعتقد كما ورد الينا من رسائلها الشفوية والخطية ان عبد المسيح ضحى بها كما ضحى بالحزب بإقدامه على قتل العقيد عدنان المالكي! لقد اقتنعت وهي في السجن ان المحرض على القتل هو اسكندر شاوي بالاتفاق مع عبد المسيح...

صدر الحكم فبلغ الحماس برفيقنا القديم السيد جبران حايك الذي كان يصدر جريدة الناس بعناوين اثارت عليه عميد الداخلية، الامين علاء حريب كما اثارت سخط المجلس الأعلى الذي كان قد قرر تعميم القرار بأسلوب ومنحى مخالف تماماً لما صدر في الجريدة. ولقد حوكم الرفيق جبران فيما

بعد وقضى المجلس الأعلى بطرده. هو نفسه كانت قد ثارت ثائرته عندما أبلغ الدعوى لمحاكمته وقرر الانسحاب.

مواقف جبران حايك كما مواقف غسان تويني والنقيب محمد البعلبكي، لا يمكن ان تحاكم ببساطة. لكل منهم ظروفه ودوافعه ومبرراته.

عبد المسيح بعد طرده قام بانتفاضة. تبعه بعض القوميين. ثم راح عددهم يتقلص. الا ان تياره لا يزال قائماً. لقد مر الزمن على الأحكام والحزب السوري القومي الاجتماعي حالياً لا يزال ضحية انشقاق. لا حزب بنظري اذا استمر الانشقاق، فإذا عادت الوحدة الى الصفوف، وبعد أكثر من أربعين سنة على طرد عبد المسيح، ماذا كان يمنع ان يعود الرجل الذي لا يزال معه فريق من القوميين من سوية مميزة، ماذا كان يمنع أن يعود الى الصفوف النظامية؟ وهو أول قومي اجتماعي وله مواقف بطولة متعددة. السوريون القوميون الاجتماعيون يجب أن يخضعوا جميعاً لما يسميه رجال القانون مردود، بل يجب أن يخضعوا الى حقيقة أخرى: انهم لا يزالون عدداً غير كاف ليفرضوا وجودهم حتى في لبنان، حيث نشأوا. يجب أن يتبعوا صيغة للملمة رجالهم المؤمنين، وللغفران. لقد ارتكبت اخطاء كبيرة وغفرت. الغفران وحده يسمح بعودة الحزب الى وحدته ورهبته وحجمه ونفوذه!.

هذه خاتمة لا تغني عن قراءة المقدمة بإمعان.

كتبت هذه المذكرات في عمان عام 1989.

عبدالله قبرصي

الفهـرس

الإهـداء 5
المقدمة 7
مقدمات الثورة 17
أول آذار 1949 أو خطاب الوداع الاخير 31
التاسع من حزيران 1949 وما بعده 35
الاتصال بحسني الزعيم 43
كيف انتقل الزعيم الى دمشق قادماً من عاليه 48
كيف سلم الخائن حسني الزعيم انطون سعاده الى الحكومة اللبنانية واعدامه 55
كيف عرفت بخبر الاعدام وما كانت ذيوله 62
لماذا لم تفلح الوساطات لإبدال الاعدام بالمؤبد؟
لماذا حوكم سعاده خلافاً للأصول الجزائية؟ 66
كيف نبشت رفات سعاده من تحت الرمال 98
انتخاب الأمين عصام المحايري نائباً عن دمشق في مجلس النواب الشامي 101
سعيد تقي الدين في الحزب 108
عودة غسان تويني 116
مصرع رياض الصلح 120

كيف قتل رياض الصلح ومن قتله؟؟؟؟ 129
الخلافات بين الاخوة 134
رحلة الى القدس 140
نحن وجمال عبد الناصر 146
محاولة قتل الاستاذ يوسف شربل 151
انتخابات الكورة سنة 1953، النمر الابرص 158
نحن والشيخ عبدالله العلايلي 161
جورج عبد المسيح في ممارساته الرئاسة 163
أزمتنا الداخلية - أزمة عبد المسيح 165
الانجازات الأولى للمجلس الأعلى برئاستي 187
اغتيال عدنان المالكي 190
ماذا جرى في دمشق والجمهورية الشامية على أثر مقتل المالكي 195
نظرات في المحاكمات والحكام والأحكام في دعوى مصرع العقيد
المالكي 204
طرد جورج عبدالمسيح 211

صور وذكريات

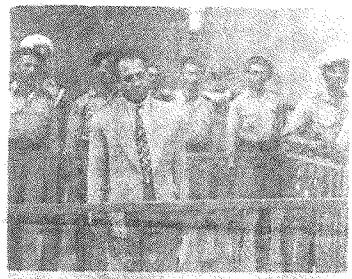

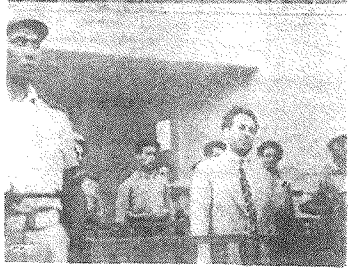

سعاده في قفص الاتهام في محنة الاسبرانتو : سيقطع الى الخلود
بباطل ...

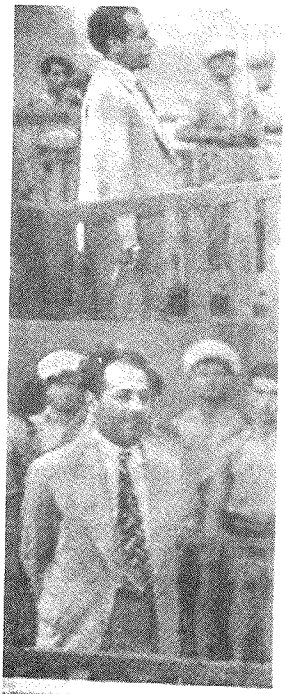

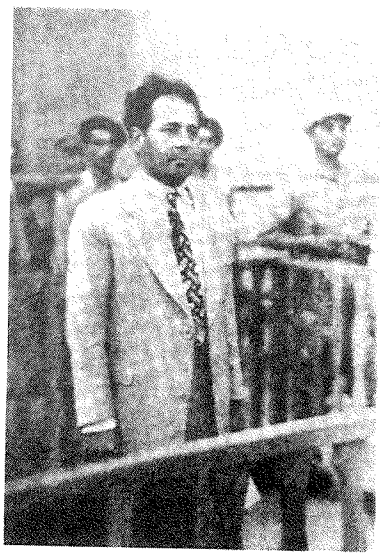

لقطات متفرقة عن عدد «الحياة» يبدو فيها سعادة في أوضاع مختلفة أثناء محاكمته الطويلة تتراوح بين الدفاع المتين والمرارة وخيبة الأمل والتأمل.
(نقلا عن الحياة 49/7/8)

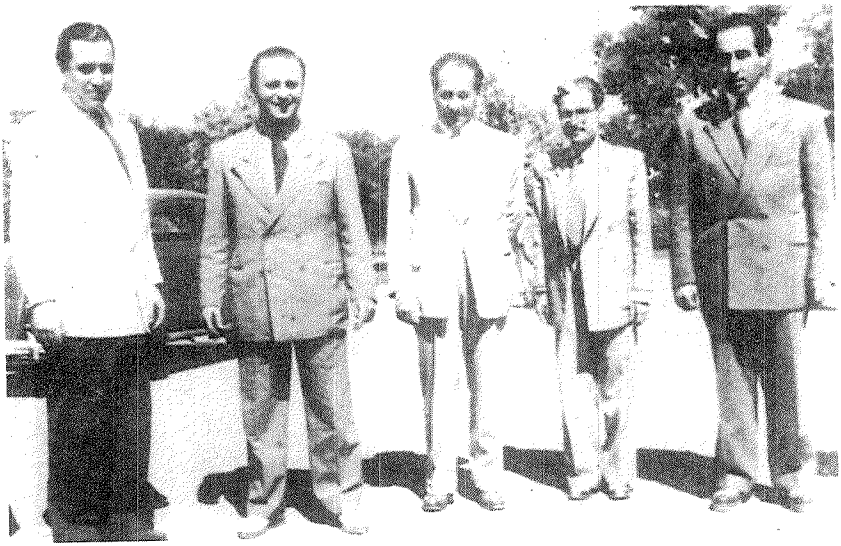

سعادة يحيط به فريد صبّاغ، عبدالله قبرصي، أديب قدورة وسعيد سربيه بمناسبة سحب مذكرة الاحضار 9-10-1947

أنطون سعادة بين النقيب جان تيان والأمين عبدالله قبرصي أول آذار 1949

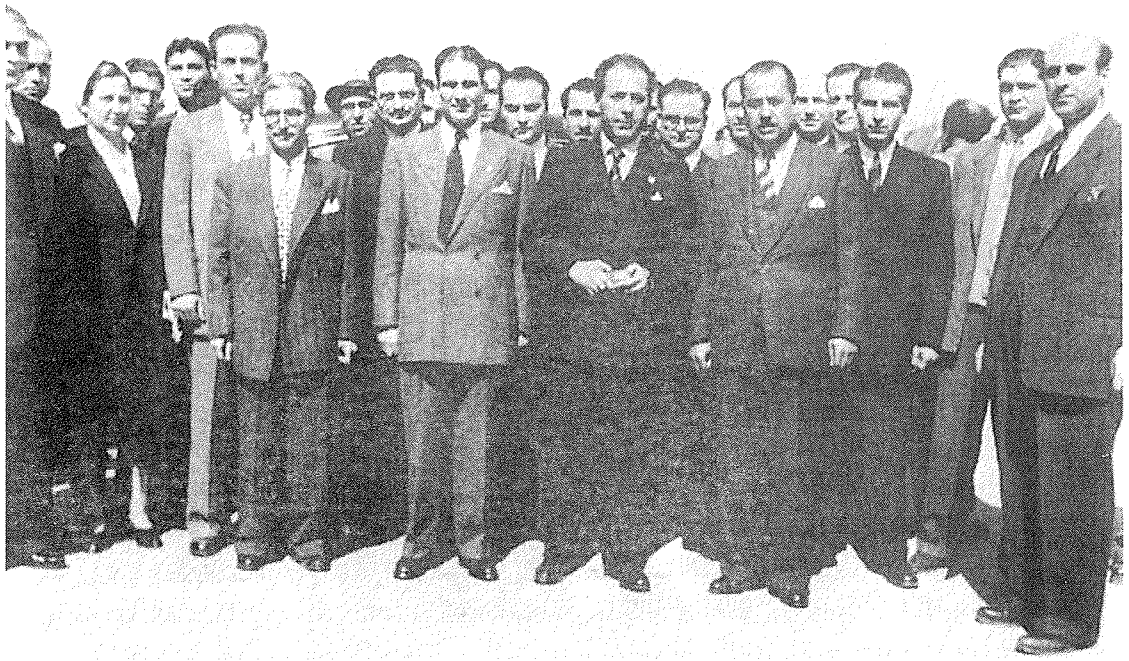

سعاده يوم وصوله بين مستقبليه من قادة الحزب. من اليمين آنيس فاخوري، فايز صايغ، عبدالله سعادة، فؤاد أبو عجرم، كامل ابو كامل والياس جرجي قنيزح. من اليسار عصام المحايري، عبدالله قبرصي، مأمون اياس، نعمة ثابت، عبدالله محسن وفريد الصبّاغ.

المجلس الأعلى 1954 وقوفاً من اليمين اسكندر شاوي، عيسى سلامة، مصطفى عبدالساتر، منير الحسيني، اديب قدورة، انعام رعد، محمد يوسف حمود، خليل الشيخ وابراهيم يموت. جلوساً من اليمين: أسد الأشقر، جورج عبد المسيح، عبدالله قبرصي، كامل أبو كامل.

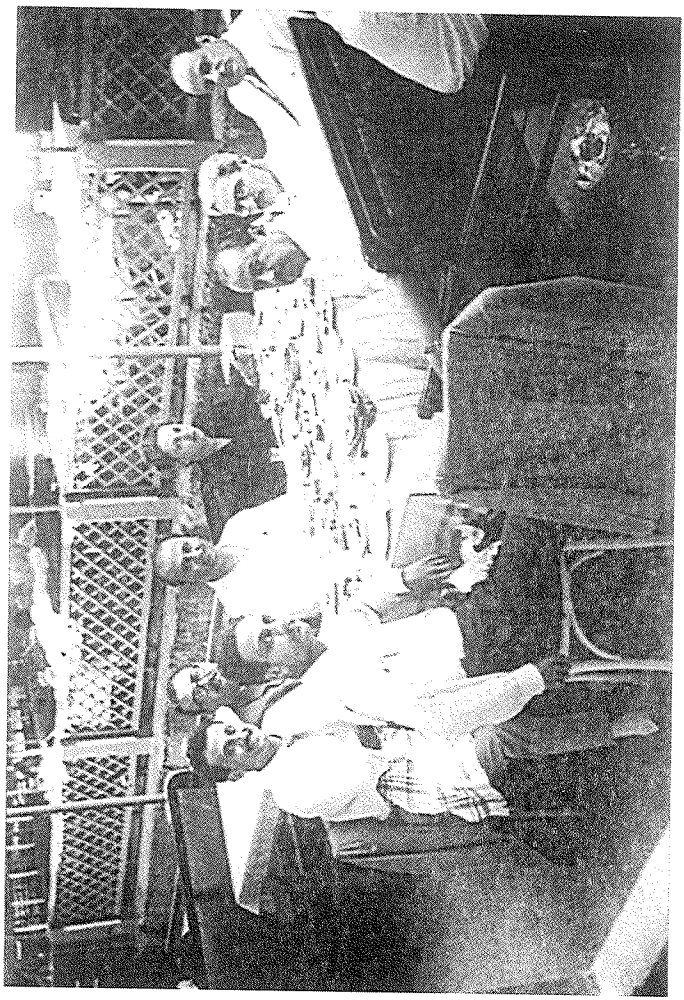

في دمشق في الخمسينات: الأمينة الأولى، كامل أبو كامل، إنعام رعد، فؤاد أبي عجرم وعبدالله قبرصلي

يلقي كلمة في مخيم الفلسطينيين في ضيبة صيف عام 1956.

حفلة تأبينية في أنفه للفقيد القومي الاجتماعي وهيب عودة وقد ظهر عبدالله قبرصي يلقي كلمته ووراءه غسان تويني وبولس سليمان 1956

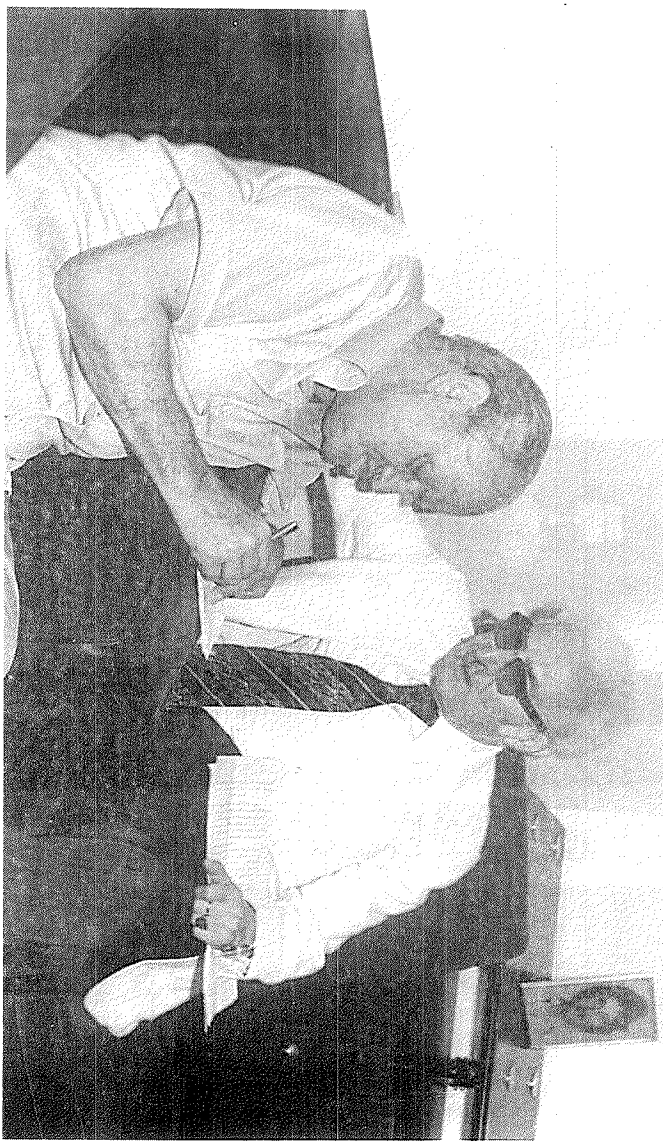

الأمينين عبدالله قبرصي وجبران جريج

عبدالله قبرصي عن يمينه ابراهيم يموت، وعن يساره محمد يوسف حمود آذار 1986

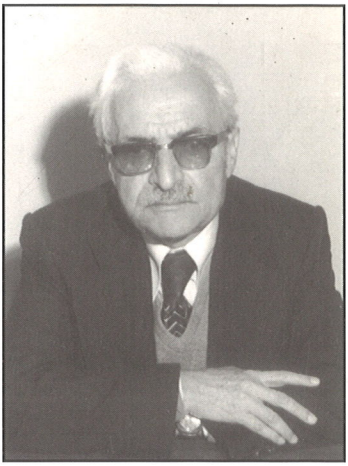

ولد المؤلف في قرية ددة ـ الكورة ـ لبنان الشمالي في 27 تشرين الأول 1910. سافر والده الى المهجر ولما يبلغ الثالثة من عمره. وبعد سفر والده بستة أشهر توفيت والدته، فعاش يتيماً وقضى سني الحرب، مع كل مآسيها، في بيت جده لأمه وبيت عمه.

درس اللغة العربية في المدرسة الرسمية في ددة ثم في بترومين وبرصا والقلمون. وسنة 1920 التحق بمعهد دير البلمند حيث تتلمذ على يد الشاعرين سليمان نصر ونعمان نصر. ولما أقفل معهد البلمند ابوابه سنة 1923 التحق بمدرسة الصفا التي اسسها الشاعر نعمان نصر.

ومن الصفا انتقل الى معهد الفرير في طرابلس حيث نال البكالوريا. ومن ثم دخل معهد الحقوق الفرنسي وحاز على الليسانس ومارس المحاماة من بعدها بعد ان سجل في نقابة محامي بيروت في 29 كانون الأول 1932.

انتمى الى الحزب السوري القومي الاجتماعي في أوائل سنة 1934، وقد عينه انطون سعاده أثناء وجوده في السجن 1935 زعيماً للحزب بالوكالة ثم رئيساً لمجلس العمد... وقد انتخب رئيساً للمجلس الأعلى سنة 1955 واستمر على عدة دورات يعاد انتخابه. وناضل في صفوف الحزب وقاسى متاعب السجن والنفي والتشريد حوالي 17 عاماً. اثناء الحرب الكبرى الثانية وبينما كان في معتقل المية ومية، ألف كتاب «مصرع السمنة» ونشره لأول مرة سنة 1944 بواسطة دار النهضة.

عضو في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتّاب اللبنانيين اسس في فنزويلا أثناء اغترابه القسري، بعد الثورة الانقلابية مجلة الندوة باللغتين العربية والاسبانية التي استمرت تصدر من عام 1966 حتى 1971.

صدر للمؤلف:

- مصرع السمنة (رواية).
- وحي الظلام (شعر).
- نحن ولبنان.
عبدالله قبرصي يتذكر (ثلاثة أجزاء).
- قبل الطوفان وبعده (شعر).

ISBN 9953-417-39-3
9 789953 417394